شيفرة من سراب

إسماعيل بن سعادة

شيفرة من سراب

رواية

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب، 2014.
10، نهج إبراهيم غرافة، باب الواد، الجزائر.

ردمك : 978-9947-39-084-9
الإيداع القانوني : 2014-3866

تبدو ساحة البريد المركزي في مثل هذا الوقت من فصل شتاء الجزائر العاصمة سنة 1968 شبه خالية، تثير الإحساس بالملل و انقباض النّفس، يزيد من تفاقم ذلك الشعور لون السماء الحبري الأسود و عصف الرياح الشديد. الأحوال الجوية سيئة للغاية و ليست على ما يرام في حوض البحر الأبيض المتوسط حسب توقعات مصالح الأرصاد الجوية.

يتوقف يعقوب مائير فجأة عند الرصيف و يشعل سيجارة ثم يعيد تسوية الوشاح المحيط بعنقه و أذنيه جلبا لدفء انعدم في مثل هذا الجو السيبيري. لمح صدفة امرأة تبرز من ظل مدخل للسيارات في الجهة الأخرى من الرصيف، لم يعرها اهتماما و أسرع في مشيته في اتجاه هدفه المتمثل في الوصول إلى الميناء. لم ينفعه العشاء الشهي الذي تناوله في مطعم "السلطان" أو يسهم في تحسين مزاجه المعكر ؛ إذ وصل إلى الجزائر العاصمة منذ ثلاثة أيام لرؤية يخت معروض للبيع و معاينته، وجده قديما، متهالكا و نصف متهرئ، في وضعية بئيسة تثير الاشمئزاز و التقزز، فتحسّر و انتابه شعور بالمرارة لتجشمه كل هذا التعب من دون فائدة... أدخل رأسه بين كتفيه كي يقاوم جيّدا الرياح التي تكنس الطريق مثيرة الغبار المحمل بالتراب و أوراق الأشجار و كل ما صادفته في طريقها.

فترة هدوء و سكون مكنته من سماع وقع خطى سريعة خلفه، إنها خطوات امرأة... و بعد ثوانٍ سمع نداءً بالفرنسية : سيدي ! سيدي !... توقفَ ثم استدار و ظهره مواجه للرياح ؛ المرأة ترتدي معطفا من الفرو و قبعة كبيرة فوق رأسها، كانت لا تزال على بعد عشرين مترا عندما أشارت بيدها طالبة منه انتظارها، و في نفس اللحظة لمح يعقوب وصول سيارة تسير بهدوء و تأنٍّ، تكاد تلتصق بالرصيف، بعد ذلك كل شيء جرى بسرعة فائقة : توقفت السيارة فجأة و اندفع منها رجلان، أمسكا بالمرأة التي انطلق صراخها يشق أرجاء المكان.

هجم يعقوب من دون تفكير أو تردد... أما المرأة فكانت تدافع عن نفسها باستماتة و شراسة حالت دون تمكن المعتدين من إرغامها على ركوب السيارة. وصل يعقوب بسرعة إلى المكان، فاستدار أحد الرجلين ممسكا دائما بالمرأة و يصيح بصوت عالٍ، ثم انفتح باب السيارة الأمامي فجأة و نزل منه رجل ثالث كان أمام عجلة القيادة، قفز إلى الرصيف و بيده مسدس يسد الطريق أمام تقدم يعقوب المهرول إلى نجدة المرأة.

توقف ! صاح في يعقوب.

حتى لو أراد ذلك لما أمكنه، هبة ريح شديدة تلقي به مباشرة على الرجل الذي تراجع إلى الوراء تاركا إياه يصطدم بمجموعته، و يمر يعقوب إلى العمل من دون انتظار : لكمة خاطفة قوية و مباشرة تطيح بالرجل ماسك المسدس الذي لم يسعفه الوقت لفهم ما يحدث له، يردفها بضربة شديدة من ساعده هشمت بعض أسنان الرجل الثاني الذي بدوره ارتطم رأسه بعنف بحائط مجاور، و اضطر ثالثهم أن يترك المرأة غصبا عنه.

في وضعية غير مريحة في تلك اللحظة، تلقى يعقوب ضربة قوية رمت به على السيارة... لم يعد يميز جيدا ما حوله من شدة الغبار، و على تلك الحال من التململ تلقى ضربة ثانية قوية في بطنه جعلته يتلوى و يتألم بشدة، لكنه قاوم بشجاعة و ركل خصمه بكل ما أوتي من قوة مرتكزا على السيارة، ما حمل مهاجمه على التراجع إلى الخلف و هو يصرخ فاقدا المبادرة، تشجع يعقوب و تقدم ناحيته و وجه له لكمة ناحية كبده أرفقها بأخرى في وجهه ما أدى به إلى التقهقر مرة أخرى خطوات إلى الخلف احتلها يعقوب على الفور ليهاجم من جديد، لكن صراخ المرأة الملتصقة بالحائط على بعد أمتار منه نبهه إلى خطر داهم ؛ لمح يعقوب القضيب المرفوع في الهواء الشاق طريقه تجاه جمجمته، فابتعد تاركا بينه و بين خصمه مسافة معتبرة في اللحظة المناسبة، سوء حظه جعله يتزحلق و يفقد توازنه و يقع ممددا على ظهره، الفرصة السانحة لعدوّه كي ينقض عليه قبل أن يتمكن من الوقوف، انتفض يائسا في محاولة منه صد مهاجمه الذي يلوّح بقضيبه الحديدي ناحيته، و لوح بيديه رافعا ذراعيه في الهواء في استماتة يحمي وجهه و رأسه، لمح المرأة تقترب منه ثم شعر باصطدام الرجل به و وقوعه فوقه بكل ثقله و هو يئن متألما، تخلص بسرعة من الرجل و وقف فلمح المرأة و هي تعيد لبس فردة حذائها التي استعملتها في توجيه ضربة قوية إلى رأس المهاجم أفقدته وعيه.

لنهرب ! المنطقة غير آمنة. قال يعقوب هذا و أمسك بذراعها و جرها عبر الشارع بينما نوافذ واجهات بيوت تفتح تطل منها رؤوس نساء و رجال تستطلع ما حدث، حتى الرياح العاصفة لم تتمكن من حجب أصوات الشجار العنيف. اقتحما جريا شارعا

عرضيا قريبا من ساحة أول ماي، ثم خففا عدوهما كي لا يلفتا الأنظار و سارا بخطوات عادية. تأملها و هو لا يزال ممسكا بذراعها ؛ وجه جميل، شفتان ممتلئتان تثيران الرغبة، عينان سوداوان في تناسق انسجامي بديع مع الأنف و الفم، شعر غزير أسود عبثت به الرياح في كل اتجاه بعد سقوط قبعتها.

كيف أنت الآن ؟ سألها بلطف لأول مرة.

أدارت وجهها نحوه و ابتسامة متشنجة تعلو محياها.

أنا بخير، شكرا لك سيدي.

أحقا ما تقولين ؟

حقيقي، أنا فعلا بخير رغم كل ما حدث.

التفت خلفه، لا أحد، ليس هناك من خطر، لقد انسحب المعتدون... وصلا منطقة عمرانية هادئة و توقفا قرب موقف حافلات، قال يعقوب و هو يحك ذقنه من شدة الألم : اسمحي لي أن أقدم لك نفسي... فقاطعته قائلة بلغة فرنسية : أنا أعلم من تكون، كنت أنتظر خروجك من المطعم... لكنك كنت تسير بسرعة لم أتمكن معها من اللحاق بك.

بقي لحظات صامتا قبل أن يسألها :

أنت فرنسية ؟

لا، أنا جزائرية من أصول إيطالية، لكنني عشت مدة طويلة في فرنسا أنا و شريف، لذلك تعودنا استعمالها في كل شؤون حياتنا حتى و نحن نعيش في الجزائر و معظم شعب هذه البلاد يتكلمها بطلاقة و حتى لغته الدارجة هي مزيج من العربية و الفرنسية.

من هو شريف هذا ؟

شريف خان ! ألا تعرفه ؟

حث ذاكرته يفتش عن الاسم يستحضره لكنه لم يتمكن من استرجاعه رغم أن الاسم ذكره بشيء ما.

لا بد أنك تتذكره، تؤكد المرأة.

ساعديني لو سمحت، أتذكر الوجوه لكن الأسماء مع مرور الوقت... لقد كان يتواجد منذ زمن طويل في عالم لا أهمية للأسماء فيه، وجودها لا يعني شيئا و غالبا ما تكون مستعارة.

سيسيليا، يوليو 1945...

مرّ وميض مثل البرق في ذهنه فردّ بسرعة قائلا : الآن فقط عادت إلي الذاكرة و تذكرته.

شريف خان... عميل سابق في أجهزة الاستخبارات الفرنسية، انضم سريا إلى جبهة التحرير الجزائرية قبل أن يتحول فجأة إلى معسكر الإيطاليين، قايض حريته عقب انهيار النظام الفاشستي في إيطاليا بمد جهاز الاستخبارات العسكرية بمعلومات جد هامة و حساسة ؛ كان يعقوب آنذاك هو ضابط الاستخبارات الأمريكية المكلف بالجاسوس الفرانكو- جزائري، لم يفارقه طيلة المدة التي جاوزت الشهرين.

كيف هو الآن ؟

بخير، شكرا... يريد أن يلتقيك، بحوزته شيء يهمك يريد عرضه عليك...

توقف يعقوب، فعلت نفس الشيء و تبادلا النظر...

الأفضل أن نذهب إلى مكان نحتسي فيه مشروبات ساخنة و بالمرة نبتعد عن أخطار الشارع، اقترح يعقوب عليها.

اجتاحت لحظة مسحة من الخوف عينيها الذابلتين، و قالت : كلا، بل أفضل البقاء في الشارع، هو الآمن لنا.

لم يلح عليها، و أدرك أنها تخاف الأضواء و الأماكن المزدحمة خشية أن يعرفها أحد.

لماذا لم يأت بنفسه مادام يعرف أين يجدني ؟

لا يستطيع التنقل كيفما يريد.

تقدمت منه حتى لامسته و ضغطت على ذراعه.

أرجوك، تحرك، افعله من أجلي.

رد مندهشا و متهكما في آن واحد :

من أجلك ؟

طبعت قبلة حارة على شفتيه و انسحبت بسرعة و هي تضع ورقة في يده من دون انتظار ردة فعله. نظر إليها متأملا و هي تبتعد بخطى سريعة ثم تختفي في ظلام ركن من ناصية الشارع.

امرأة غريبة، مغامرة غريبة... منذ سنتين خلتا، لم تعد تربط يعقوب مائير أية علاقة بجهاز الـ "سي أي أيه"، و هذا ما يجهله بالتأكيد شريف خان. الحذر يتطلب منه أن لا يزج بنفسه أو يتورط في قضية غير معني بها و يجهل خلفياتها ؛ الحذر، نعم... لكن الحذر و يعقوب لم يكن يجمعهما تآلف أو انسجام غالبا، هناك الفضول و التعطش للمغامرات... قرر الذهاب، و ألقى نظرة خاطفة على الورقة فوجد مخططا تفصيليا للمسكن الذي طلبت منه التوجه إليه أين يوجد زوجها شريف خان و ينتظره.

بعض البواخر ترقص مثل سدادات فلينية على طول رصيف الميناء، شادة حبالها بقوة تريد تحرير نفسها في إصرار و عزم من الحيز الضيق المقيدة فيه و الانطلاق إلى أعالي البحار حيث الحرية و الانعتاق. لا يوجد حس إنسان على الرصيف لشدة هيجان البحر و تلاطم أمواجه، أجبر الجميع مكرهين على دخول غرفهم و الالتجاء إلى أماكن آمنة و دافئة، الوحيد الذي ظل يحتفظ برباطة جأشه رغم الهيجان و العواصف هو المنارة التي بقيت ترسل بإشاراتها تهدي السفن التائهة و ترشدها في ذلك الليل الحزين.

وصل يعقوب إلى فندق بالاس حيث يقيم و صعد مباشرة إلى غرفته. لا يوجد ما يجعله يخشى أو يتوجس من شريف خان، لكن القليل الذي خبره الليلة و تعرف عليه يجعله يخشى أن يكون العميل الفرانكو- جزائري السابق و زوجته الجميلة متورطين في قضية ما مع أشخاص لا ينصح بمصاحبتهم أو التعامل معهم، إن تدخل في الأمر سيجد نفسه حتما بين كفي رحى. لبس تحت سترته صدريته المضادة للرصاص و وضع حول معصمه قضيبا حديديا مغلفا بالجلد، و أدخله في كمه، ارتدى معطفه و قبعته ثم نزل يسير راجلا إلى أن بلغ ساحة ميدان "موريس أودان" أين وجد – من حسن حظه – سيارة أجرة. عندما أدرك السائق بأن زبونه أجنبي دار دورة كبيرة كي يأخذه إلى طريق الوحدة الإفريقية، تركه يعقوب يفعل و لم يعلق لأنه كان مأخوذا بالمنظر الجميل الذي سحره، منظر من المدينة و الميناء بأضوائهما التي تشد العيون و تبهر الأنظار من مسافة كيلومترات.

شريف خان... ظل يراود ذهنه و يلح عليه دون أن يتمكن من طرده، رجل غريب الأطوار... بعد مدة وجيزة من سقوط روما، بلغت عنه عشيقته الإيطالية القوات الأمريكية، إيطالية آية في الجمال تخلت عنه مدركة أهمية البحث عن رجل واعد من العهد الجديد تحتمي في كنفه يكون من المنتصرين ؛ يعقوب المكلف بالقضية قدم العرض الاعتيادي إلى الجاسوس للتعاون معهم، و أعطى قائمة تضم ما لا يقل عن أربعين اسما لمجرمي حرب، حوكموا جميعهم و أعدم منهم أكثر من النصف. بصدق و أمانة قام يعقوب بواجبه في إخفاء هوية مصادره و أبقاها سرية و مخفية، هذا لا يمنع أن تكون هناك بعض التسريبات من جهة أو من أشخاص بسوء أو بحسن نية، شريف خان نفسه يمكن أن يكون قد غفل و نقص حذره و تخلى عن حرصه و ارتكب بعض الأشياء التي أوقعته – من حيث لا يدري – في المحذور، شدت الأنظار إليه و جذبت له عداوات شديدة و قاتلة ممن تفطن للخطر الذي يمثله في سياق صراع المصالح الحاضرة و المستقبلية... إذا كان شريف خان قد استمر يعمل في مجال الاستخبارات و المعلومات بطريقة ما على ما يبدو، فلماذا ؟ بدون شك لأنه لا يستطيع ممارسة عمل آخر خارج مهنته الأصلية.

سارت السيارة في طريق الكورنيش الجميل، المنظر البانورامي الخلاب جعل يعقوب يتحسر و ينشرح صدره في آن واحد، يشعر بغبطة و هو ينظر في ألم لذيذ إلى أحد الشوارع التي أحبها و عشقها، كان يغشاه في شبابه قبل أن يغادر البلد الذي ولد و ترعرع فيه، متنعما بحياة رغيدة في كنفه، لم تتمكن فرنسا و من بعدها أمريكا أن تُنسياه حنينه

و ارتباطه العاطفي بمهد صباه و شبابه، بكل الذكريات الجميلة التي لم تفارق يوما مخيلته رغم البعد و الفراق. ازدادت شراسة هبوب الرياح بزيادة مستوى الارتفاع، السيارة نفسها كادت تتوقف في أحيان كثيرة مستسلمة لشراستها، زادتها أمواج البحر المدمدمة و المتلاطمة التي ترتفع لأمتار في السماء قتامة و قسوة. و لما وصلا شارع "أرنستو شي غي فارا" طلب من السائق التوقف، و دفع له أجرته و نزل يمشي متظاهرا بالتوجه إلى حانة لتضليل السائق، و بمجرد أن انصرفت السيارة توقف يعقوب و عاد أدراجه يتأمل المنظر الأخاذ الذي استوقفه و لم يتمكن من مقاومته، منظر المدينة من ذلك العلو الساحق بحوضها العائم مع سفنه و بواخره المتعددة الأحجام و الأنواع، توجه بعدها مباشرة إلى الكازينو المتواجد على بعد مائتي متر و توقف. كانت الأضواء و الأنوار تتسرب من خلال نوافذ في أقصى المكان كما تربض سيارتان في موقف السيارات. عاد يعقوب إلى الشارع و دار على يمينه في حين انطلقت فجأة هبة ريح شديدة تعزف سيمفونيتها بعنف في حزن جنائزي آلاتها أغصان و فروع و أوراق أشجار اللوز و الصنوبر الضخمة المنتشرة في المكان، الآن وصل إلى مكان مظلم كئيب يثير الفزع و يداه مندستان في أعماق جيبي معطفه، تردد لأول مرة قائلا في نفسه : « كان الأفضل لي أن أكون في مثل هذا الجو و هذه الساعة في سريري بدلا من حشر أنفي في مسألة لا تعنيني و أجهل أسبابها و خلفياتها »، ثم وصل إلى مفترق طرق و انعطف يسارا، لا تزال بعض المنازل مضاءة و نباح الكلاب يعلو كلما هدأت الرياح قليلا... مصراع نافذة يقرع بعنف تحت تأثير العاصفة الهوجاء... هل فعلا شريف ينتظره

هذا المساء ؟ لكن لماذا لم تبق معه السيدة ؟ يتساءل مرة أخرى، هل من عادتها قضاء لياليها خارج بيت الزوجية ؟

المنزل الرابع... ها هو أخيرا المكان الذي يقصده و عانى كثيرا كي يعثر عليه في مثل هذه الأجواء الغاضبة. المنزل في واقع الأمر عبارة عن فيلا متوسطة يحيط بها سياج حديدي يرتفع على حائط صغير يفصل بين الحديقة و العالم الخارجي، مبنى مظلم مربع الشكل يعطي الانطباع على بعد أمتار بالصلابة و الخشية و الهجران، يعمق من تلك الأحاسيس في النفس خلوه من الأضواء و الأنوار. أدار مقبض الباب الحديدي فانفتح مصدرا صريرا رهيبا مثل عواء ذئاب التوندرا، و كان نباح الكلاب يتفاقم و تزداد حدته كلما ولج أكثر في المكان. سار فوق أرضية ممر حجرية، الفيلا جد متواضعة و غير عالية كأن مالكيها يعانون الفاقة الشديدة فقصرت أيديهم عن الاهتمام بصيانتها و الاعتناء بمظهرها الخارجي الكئيب.

اشتم يعقوب رائحة غريبة تنبعث لم يدرك كنهها بعد، أثارت فضوله و خشيته أن يكون في الأمر مكيدة، و سرعان ما ذهبت مع الرياح، رائحة أقرب ما تكون إلى الغاز، ربما... الآن تأقلمت عيناه مع الظلام فلمح جرسا على يمين الباب، وضع إبهامه و ضغط... هز انفجار رائع أركان المكان ردا عليه، قوة خارقة و جامحة انبعثت عاصفة من الداخل خلعت الباب و رمت به بعنف في وجه يعقوب الذي أمسك به لا إراديا ليجد نفسه يحلق في السماء يتعلم منه فنون الطيران و المناورات الجوية، شعر بنار ساخنة تلفه و تدثره قبل أن يسقط على الحصى عدة أمتار بعيدا إلى الخلف فاقدا الوعي في غير إغماء

إذ ظلت حواسه شبه متنبهة و هو يستمع إلى ما يشبه دقات أجراس أو صفير قطار أو أن الأمر يتعلق بأصوات تكسير زجاج متلاحقة. نهض تلقائيا بصعوبة و هو يترنح مبتعدا عن الفيلا التي بدأ الحريق ينتشر فيها بسرعة جراء الرياح و قوة الانفجار، الأمطار نفسها لم تطفئ النيران أو تحد من انتشارها، و قد ذكره المنظر رغم الحالة التي هو فيها باحتراق معبد عشتار كما ترويه كتب العهد القديم و صورته إحدى أفلام السينما. رأسه يؤلمه بشدة، الرياح تصرخ يصاحبها نباح الكلاب و أصوات قلقة تسمع تتنادى عن بعد، أضواء البيوت تنار بسرعة. الهرب... هو الحل... نعم، الابتعاد بأقصى سرعة حتى لا يجد نفسه مضطرا لإعطاء تفسيرات و تبريرات... وجد نفسه على الطريق و رجل مجهول ينتصب كالمارد فجأة أمامه يخرج من العتمة يتكلم، أدرك أن الرجل يكلمه فرد عليه بعربية جزائرية كما يتقنها و يعرفها بطريقة عادية : أصابني أرق فخرجت أتمشى قليلا لأنتعش فأسقطتني الرياح العاتية في حفرة أصبت جرائها بجروح طفيفة و أنا عائد الآن إلى منزلي القريب من هنا. و أكمل سيره ساخرا في سريرته من الموقف الغريب الذي تعرض له، استعاد بعد عشر دقائق وعيه كاملا، فجلس على كرسي تحت شجرة صنوبر بحري يستريح و يسترجع أنفاسه مندهشا من كيفية وصوله إلى هذا المكان المجهول. لا تزال الرياح تعوي و تصرخ في الأشجار التي تتلوى مصدرة أصواتا كالزئير بالإكراه و تحت القوة الرهيبة المسلطة عليها... وقف يعقوب و توجه نحو الجدار العازل الذي كان يحمي المكان في زمن الوجود التركي بالجزائر و لا يزال يحميه، إذ كان يمكّن المدافعين من صد هجومات الأعداء إن حاولوا التسلل من تلك

النقطة البحرية ذات الأهمية الاستراتيجية للسيطرة على أطراف المدينة و تضييق الخناق و حصار من يتواجد بداخلها ؛ تراءت له في الأسفل آلاف الأنوار الدائرية المنبعثة من المدينة تحيط في حنان بالواجهة البحرية و أحواضها الواسعة التي تعيد إلى الذاكرة أمجادها البحرية يوم كان أسطولها البحري سيد البحار و المحيطات من دون شريك أو منازع، و بدون تعب أو كلل تستمر المنارة و كلها حيوية و نشاط في كنس المياه العاتية للمتوسط.

حاول في خضم تلك الفوضى أن يجد مكان فندقه فلم يمكنه ذلك، ثم تذكر ما حدث له : الانفجار الرهيب الذي أعقب دق الجرس، الباب الذي تلقاه في وجهه و طارا معا محلقين في الهواء... بدأ يلمس في حذر وجهه فوجد الدماء لا تزال تنزف من جرح عميق في أعلى جبهته، و ليس هناك ما يوحي بخطر على حياته، فقط الباب الذي استقبله مثل مضرب عملاق ؛ الرائحة التي داعبت خياشيمه و قرع الجرس نسختا نسخا لا يزول على قرص ذاكرته التسجيلية. القضية واضحة الآن أمامه، كان المنزل ممتلئا عن آخره بالغاز، هذا الأخير اشتعل فجأة عن طريق الشرارة الكهربائية الصادرة عند ضغطه على الجرس. أخرج منديلا من جيبه مسح به على وجهه الملطخ بالدم و سؤال أقلقه يلح عليه بشدة : هل كان يتواجد ساعتها شريف خان أو زوجته أو كليهما بالفيلا عند حدوث الانفجار المروع ؟ الوسيلة الوحيدة و المثلى للتأكد من الأمر بسرعة هي العودة إلى الفيلا أو بالأحرى ما تبقى منها، و هذا ليس صعبا خصوصا في وجود الظلام و الجو المضطرب من دون التعرض لأخطار كبيرة محتملة، فعاد إلى الطريق، و من هذه

الناحية كانت السماء سوداء قاتمة تتخللها كتل سحب حمراء تتنقل بسرعة و كثافة تحمل نذير شؤم في الأفق القريب... مر في طريقه بمطعم فلمح رواده يتكلمون بحماس و هم جالسون في شرفته الواسعة تحميهم من الرياح و تقيهم من الأمطار مظلة واسعة مثبتة بإتقان أعلى الجدار، و ما كاد يصل إلى مفترق الطرق حتى رأى المنزل يحترق بقوة رهيبة رغم المجهودات الجبارة التي تبذلها مجموعة من رجال المطافئ للسيطرة على النيران و إخمادها، لكن اشتداد قوة العاصفة زاد الطين بلة، إذ كانت الرياح تطرد المياه الموجهة إلى بؤر اللهب من خراطيم مياه المطافئ لتستقر بعيدا عن وجهتها، منشطة انتشار باع النيران التي ترسل بأصوات رهيبة كأنها محركات طائرة نفاثة تأخذ طريقها إلى السماء.

قطب يعقوب وجهه إذ تبين له أن لا إمكانية و لا أمل الآن في معرفة إن كان شريف و زوجته أو أحدهما موجودا داخل الفيلا عندما حدث الانفجار و تبعه مباشرة الحريق المدمر، يتطلب الأمر يوما أو يومين على الأقل، عندما تهدأ العاصفة و يتم رفع الركام و حطام بقايا الفيلا المنكوبة. الشارع مليء بالناس، الكثير منهم يرتدي معطفا فوق منامة أو قميص نوم و يرتعد من شدة القر، مد يعقوب أذنيه يستمع إلى ما يدور بينهم من أحاديث باهتمام لعله يجد ما يروي غليله و ينير طريقه بعدما عجز بوسائله الخاصة بالمتاح أمامه أن يروي فضوله و يؤكد شكوكه و تساؤلاته ؛ رجل طويل و ضخم يقدح وجهه بالشرر يروي مؤكدا أنه رأى الإرهابي يرمي بقنبلة داخل الفيلا و أنه كان دائما يتنبأ بمثل هذه النهاية المأساوية لصاحب الفيلا بالنظر إلى ماضيه الإجرامي خلال الحرب مع الفاشست،

الإرهابي الذي نفذ العملية لا يبعد أن يكون من إحدى دول الحلفاء أو إيطاليا يساريا، لم لا ؟...

تذكر مائير فجأة الرجل الذي اصطدم به و هو يبتعد عن الفيلا، أليس هو نفس الرجل الضخم الطويل ؟

على حين غرة سلط على وجه يعقوب ضوء ساطع يعمي الأبصار صادر عن مصباح يدوي، بهره الضوء فوضع يده على عينيه يحميهما، ثم سمع صوتا يسأله : أنت مصاب... أنت تنزف !

رد عليه : ليست هناك خطورة، لقد وقعت منذ قليل على جنب الرصيف فأصبت بخدوش خفيفة.

أنت أجنبي، أليس كذلك ؟

نزلت أشعة المصباح للأسفل فأدرك يعقوب أن من يسأله شرطي. بدأت الأمور تتعقد، أكيد ثيابه تحمل آثار الانفجار، بالإضافة إلى جرح جبهته النازف و الدماء... أحواله الظاهرة كلها تثير الريبة و تزرع الشك. ندم في قرارة نفسه أن عاد بمحض إرادته إلى هذا المكان، و لو صبر قليلا لما وجد نفسه يواجه الآن ورطة عويصة لا يدري كيفية الخروج منها سالما.

جواز سفرك أو ما يثبت هويتك لو سمحت ؟ طلب منه الشرطي.

لا يمكن ذلك الآن سيدي، أشار يعقوب بيده من فوق كتفه، أوراقي تركتها في السيارة غير بعيد من هنا.

تعالَ معي من فضلك، أمره الشرطي. هذا الأخير دفع يعقوب بلطف خارج مجموعات الناس المندهشة مما يحدث،

تحاول التقاط كل ما يروي فضولها على شاكلة شعوب منطقة المتوسط المشهورة بهذه الخصلة المتوارثة عبر القرون و الأجيال المتعاقبة. سار معه و خلفهما سرب من الصبية يتبعونهما... ما كان يتمنى مثل هذا الحادث لكنه حدث و قضي الأمر، عليه الآن إيجاد وسيلة سريعة للتخلص من الشرطي بسهولة، و هذا يتطلب الانفراد به. قطعا الطريق الكبير في صمت رهيب قبل أن ينبري يعقوب يسأل الشرطي في لطف : ماذا جرى يا سيدي ؟

بدا التذمر واضحا على وجه الشرطي و لم يجبه، كانت عنده شكوك جدية تجاهه، هذا واضح و أكيد... عاود المحاولة مجددا مستعملا دهاءه و فطنته بعد أن نظر إلى مجموعة الصبية التي تقتفي أثرهما، موجها كلامه في هدوء : ألا يمكنك سيدي إبعاد هؤلاء الصبية و الطلب منهم تركنا في سلام، مهما يكن لست كائنا غريبا قادما من كوكب القردة أو حيوانا أسطوريا !

لم يرد عليه لكنه التفت إلى الصبية و وجه لهم كلاما لاذعا فتوقفوا على الفور لكنهم لم يتراجعوا أو ينسحبوا ؛ و لما وصلا إلى المكان المعني سأله الشرطي و هو يرمقه بعين الريبة و الحذر : أين هي سيارتك ؟ مد يعقوب يده في أحد الاتجاهات قائلا : هناك سيدي، تحت الأشجار الكثيفة... أشعل الشرطي مصباحه موجها أشعته القوية إلى الناحية التي أشار إليها يعقوب و هما يسيران قبل أن يتوقف : أين هي سيارتك المزعومة ؟ أم أنها ترتدي طاقية الإخفاء ؟ ردد الرجل في جفاء و سخرية لاذعة.

ربما سرقت، رد يعقوب بسرعة و هو يمر إلى الفعل الذي لا مناص منه : من دون تريث وجه خاطفة للشرطي، قوة اللكمة رفعته في الهواء و ألقت به أمتارا قليلة يتخبط على وجه الأرض، بينما هو أخذ يعدو متسلقا ربوة تعلوها أشجار فواكه الشتاء من برتقال و يوسفي و ليمون هندي بكل ما أوتي من سرعة كي يمرر على الشرطي فرصة اللحاق به و مطاردته بعد أن يفيق من الصدمة و يسترد وعيه، و ربما طلب المساعدة من زملائه. في الأعلى كانت لا تزال تصله صرخات الشرطي الهستيرية الطالبة للنجدة تعلو أحيانا على أصوات الطبيعة الثائرة ؛ تسلق هذه الربوة – و هو منهك للغاية – في مثل هذا الليل، في مثل تلك الأجواء المثيرة خصوصا لمن كان يجهل المكان مثله... إذا تمكن من الإفلات و الوصول سالما دون رضوض أو إصابات سيصلي صلاة شكر خاصة للرب ؛ و بينما هو يتسلق حدث ما كان يخشاه، إذ عثرت قدمه في فجوة جذع شجرة معمرة مترامية الفروع و الأغصان، فتألم بشدة لكنه لم يستسلم للألم المبرح الذي اجتاحه و هو يحاول الوقوف بعد سقوطه العنيف، أمسك بصعوبة بالغة ما يشبه فرعا ثانويا من جذع شجرة داعيا الله في سره أن يكون متينا بما فيه الكفاية كي يتحمل ثقله، و نجح أخيرا في الصعود إلى الأعلى بعد لأي و أذناه تلتقطان أصواتا غير بعيدة، صرخات أشبه ما تكون بأصوات و عياط القبائل الإفريقية و هي تؤدي طقوس رقصاتها الغريبة الخاصة بها أو عندما تخرج للصيد و القنص تطارد حيوانات الأدغال تصطادها أو عدوّا أفلت منها.

أكيد، هم أبناء المنطقة و يعرفون خباياها جيدا، ربما هي منطقتهم المفضلة للهو و اللعب طيلة النهار عندما تسمح

الطبيعة لهم، و مطاردتي بالنسبة لهم تبدو مسلية و شيئا جديدا اكتشفوه يذكي جذوة نار فضولهم، يغذيها طيشهم و تلهبها عواطفهم، يبدو ذلك بديهيا من أصواتهم و صرخاتهم المدوية التي يصدرونها من دون انقطاع أو توقف.

طريقه الآن يمر نازلا عبر منعطفات، ما جعله يتخوف من أن يضيع منه درب النجاة الوحيد الذي بحوزته في جوف ذلك الليل الحالك المحمل بشتى المفاجآت غير السارة على الإطلاق... سقط للمرة الثانية بعد أن زلت قدمه في منعرج سريع الانعطاف، لكنه تمكن في آخر لحظة من الإمساك بنتوء صخرة هائلة وجده قريبا من متناول يده و قد كاد يجد نفسه يهوي إلى الأسفل جثة هامدة و مهشمة يصعب التعرف على ملامح صاحبها.

عندما همّ بالوقوف لمح مجموعة الأطفال تنتصب متسمرة عند رأسه ترسل صرخات مدوية مثل الرعد ؛ عليه أن يواجه الموقف المستجد بحزم، إن تلكأ أفلت منه الأمر و فقد المبادرة معرضا نفسه لما لا تحمد عقباه.

اصمتوا ! أمرهم صارخا في غضب، و فوجئ بتنفيذهم أمره على الفور إذ خيّم عليهم صمت رهيب كأن على رؤوسهم الطير. واصل يعقوب بصوت هادئ يعنفهم : أقسم أنكم حمقى لم تفهموا شيئا و لم تستوعبوا الموقف، لستم سوى مجموعة من الأغبياء و البلهاء، بدلا من الحملقة و الجمود في أماكنكم مثل تماثيل حجرية عليكم بمساعدتي، هل تعرفون أولا من أكون ؟ سكوت تام أعقب تساؤله لا يسمع خلاله سوى أصوات أنفاسهم

المتوترة الصاعدة كالشخير من أعماقهم جراء ما بذلوه من جهد و أهدروه من طاقة و هم يطاردونه.

أنا من المخابرات، قمت بتدمير منزل العميل، إنه جاسوس خطير... آه لم يكن الأمر سهلا و لو علمت بوجودكم في المنطقة لما ترددت في طلب مساعدتكم.

رد أحد الصبية في زهو و انبهار : صحيح، سيدي ؟

لقد ربح الجولة و تمكن من إقناع الصبية بالضرب على الوتر الحساس لديهم...

طبعا ، أنتم تدركون جيدا أنه لا ينبغي لشرطي غبي أن يعرف مثل هذا السر الخطير. انفجر الصبيان بالضحك، و استمر يعقوب قائلا : الآن علينا التحرك بسرعة، تبقى مجموعتكم هنا و يتوجه بعض أفرادها في اتجاه معاكس للاتجاه الذي أذهب فيه أنا يقودني فيه أحدكم إلى الجهة السفلى، فهيا بنا.

عليه الآن التحرك بسرعة حيث بدأ يلمح ضوءا و يتناهى إلى مسامعه بعض الأصوات لم يتنبه لها الصبية مما ينذر بخطر داهم، أكيد هو الشرطي أو بعض زملائه ممن هبوا لنجدته. تقدم أحد الصبيان منه و قال : أنا ابن المنطقة و أعرفها جيّدا ، سأكون سعيدا إن قبلت أن أقودك سيدي.

لا بأس من ذلك، (رد يعقوب) أنتم بواسل و ستنالون مكافأة سخية على خدماتكم.

قال الصبي و هو يتقدمه : اتبعني سيدي... و بعد ثوانٍ قليلة انطلقت المجموعة الأخرى حسب أوامر يعقوب في الاتجاه المعاكس الذي حدده لهم مسبقا و أصوات صرخاتهم تتعالى ممتزجة بصوت العاصفة الهادر.

ربع ساعة كان ضروريا للوصول إلى أحد مداخل المدينة حيث بدأت تترا ءى أوائل البيوتات و السكنات. شكر يعقوب الصبي و منحه عدة أوراق نقدية و تركه يعود أدراجه فرحا بما ناله في انتظار المكافأة الكبيرة المنتظرة، و أخذ هو يسير بسرعة فائقة و حذر متناهٍ... مرت دقائق قبل أن يعثر على سيارة أجرة في حالة يرثى لها، لم يكن يملك الخيار، المهم بالنسبة له أن يبتعد من المنطقة قبل أن يتم القبض عليه أو الدخول مجددا في صدامات و عراك مع الشرطة و غيرها من مشاكل هو في غنى عنها في الوقت الحالي. طلب من السائق التوجه إلى ميدان موريس أودان، و بعد منتصف الليل بقليل وصل إلى فندقه، لم ينتبه له الحارس الذي كان يغط في نوم عميق، فدلف مباشرة إلى المصعد الذي أقله إلى الطابق الرابع و منه رأسا على غرفته ؛ كان منهكا للغاية، جسمه كله يتألم و حالته النفسية في أسوأ درجاتها... أي شيطان دفعه كي يتدخل في أمر لا يعنيه و لا يستوعب خلفياته و أهدافه ؟ قرر أن يأخذ في الصباح أول طائرة و في أي اتجاه، المهم عنده الابتعاد عن هذا المكان و بأسرع ما يكون.

توقف متسمرا و هو يفتح الباب إذ لمح نورا ينبعث من غرفته من جهة الرواق الضيق. هل يكون هو من ترك النور مشتعلا عند خروجه ؟ أغلق الباب بهدوء حتى لا يحدث أدنى صرير، و تأكد من أن قضيبه الحديدي يعمل و يتحرك بمرونة، ثم تقدم على رؤوس أصابعه مثل قط يرصد فأرا ليثب منقضا عليه في اللحظة المواتية، فوجد رجلا يجلس على إحدى الأرائك يطالع باهتمام ملحق جريدة لوموند الفرنسية الشهيرة "العالم الدبلوماسي"، يرتدي ثيابا متواضعة تجاوزتها الموضة

منذ سنوات : سترة رمادية، سروال أسود مخطط، قميص أبيض بعنق صلب تتدلى منه ربطة عنق سوداء يمسكها دبوس ذهبي يشدها إلى القميص، مع حذاء أحمر لماع، و الرجل أسمر اللون، أصلع جزئيا في مقدمة رأسه، شواربه سوداء تخالطها شعيرات بيضاء، وجهه رخو ناعم و جميل، يدخن سيجاره الهافاني الضخم بشراهة نافثا دخانه القاتم في سماء الغرفة مستعيرا شكل طبقات سحب اصطناعية تذكر بطلبة الأرصاد الجوية في مختبراتهم يعاينون شتى أنواع السحب و الغيوم المولدة اصطناعيا، تتراقص صعودا و نزولا في تعرجات متداخلة راسمة أشكالا هندسية غريبة ضبابية باهتة قبل أن تنجذب نحو المصباح و تتفرق أشتاتا متناثرة ببطء، و متسارعة أحيانا في اتجاه فتحة صغيرة يتسرب منها هواء بارد في أعلى الجدار وضعت خصيصا للتهوية، مثل فلول جند مهزوم تطارده قوات هازميه، و قد أعاد المنظر إلى ذاكرة يعقوب فلول جند مصر المنكسرة في حرب 1967 المنسحبة فوضويا و الهائمة على وجهها في كل اتجاهات و نواحي صحراء سيناء و الجنود الإسرائيليون يطاردونها برا و يقتنصونها جوا. تمكن من التعرف عليه من ملامحه العامة رغم تقدم السن به، إنه شريف خان.

دخل يعقوب بعد غلقه باب الرواق بعناية. كان الشخص الآخر واقفا تتصدر وجهه المرتخي ابتسامة تنم عن احترام مبالغ فيه.

مساء الخير سيدي النقيب، أنا جد سعيد برؤيتك ثانية.

لا يوجد ما يدعو يعقوب أن يعلمه أنه تدرج في الرتب منذ نهاية الحرب و أنه الآن برتبة عقيد. سأله ببرودة واضحة : كيف دخلت إلى هنا و من أذن لك بذلك ؟

ظهرت أمارات التعجب و الإحراج معا على وجه الرجل و هو يرد : سيدي النقيب، أظن أن بين رجال مهنة كمهنتنا لا يطرح مثل هذا السؤال الغريب عن وسطنا ؟

صحيح... رد يعقوب و هو ينزع معطفه و يتوجه ناحية الحمام يلقي به في ركن ثم يتأمل مليا وجهه في المرآة، سحنة يرثى لها... قام بتنظيف طوارئ سريع فاحصا بالمرة جروح جبهته و خده، لا توجد خطورة عليه و لا يستدعي الأمر تدخلا طبيا أو خياطة الجروح و وضع مساكات، ستلتئم وحدها سريعا.

أعطني دقيقتين سيد شريف أتفرغ بعدها لك.

بكل تأكيد سيدي النقيب، افعل ما يريحك.

قام يعقوب بغسل الجروح بسائل مطهر و وضع عليها قليلا من كحول اليود ثم عاد إلى الغرفة بعد تسريح شعره و تسوية هندامه، و بادر ضيفه قائلا : ماذا يجري عندكم أيها الثعلب العجوز ؟

قامت عيناه بحركة سريعة، ثم جذب نفسا طويلا من سيجاره و نفثه بسرعة في الهواء في تكلف ظاهر :

هل التقيت فرنشيسكا ؟

جلس يعقوب على الأريكة المقابلة و هو يرد متبرما : لقد أرسلتني من دون رحمة إلى أعالي المدينة في هذا الجو اللعين و أنا عائد للتو من هناك.

انتفض شريف قائلا : ذهبت إلى هناك ؟

طبعا ، ليس من عادتي هدر الوقت و أنت تعرف هذا جيدا .

انحنى الجاسوس الفرانكو- جزائري إلى الأمام و الاضطراب باد على محياه و قال : لقد وقعت في فخ محكم يا عزيزي !

انفجر البيت بمجرد أن ضغطت على الجرس و لا يزال المسكن إلى حد الساعة يحترق.

تحولت سحنة شريف إلى الشحوب و شفتاه تتحركان في سرعة : لقد حاولت عبثا الاتصال بفرنشيسكا ، و لما أعيتني الحيلة قررت المجيء بنفسي إليك لأمنعك من الذهاب، لكن يظهر أنني قد وصلت متأخرا ، و من حسن حظك أن تمكنت من الإفلات بجلدك.

كان الحظ إلى جانبي هذه المرة أيضا كما ترى، هل أنت من ترك مفاتيح الغاز مفتوحة ؟

الغاز ؟! أي غاز تقصد ؟؟؟

المسكن كان مليئا بالغاز عن آخره، و رنة الجرس هي من أعطى شرف انطلاق شرارة التفجير المهول.

واضح جدا أن شريف صدم بما يسمعه إلى درجة الذهول، أصبح مثل الأبله إلى حد السخافة...

حقيقة أنا محتار و مندهش مما جرى و لم أعد أفهم شيئا ، فقد بلغت عن طريق مكالمة هاتفية مجهولة أنني سأتلقى زيارة خطيرة في حدود التاسعة ليلا ، لهجة التهديد في صوته جعلتني أرتعب و أغادر الفيلا خلال دقائق معدودة.

بُلغت بالزيارة ؟ كيف و من طرف من ؟

كما أسلفت عن طريق الهاتف، أما من طرف من فلدَيّ فكرة لكنني أحتفظ بها لنفسي في هذه المرحلة، لا تغضب سيدي النقيب، هذه من أسراري الخاصة و لا أهمية لها بالنسبة إليك.

يريد أن يُفهمه بكل صراحة و وضوح بأنه ليس مجبرا على إعطائه إلا ما يودّ هو دون إلحاح أو ضغط منه. وقف يعقوب و أخذ زجاجة من الكحول صب منها كأسا شربها دفعة واحدة و هو يمعن النظر في وجه القابع أمامه : أتريد كأس خمر ؟

لا، شكرا، لا أتناول أبدا الخمر في مثل هذه الساعة، رد شريف مبتسما.

أنت محق في هذا. يرد الزجاجة إلى مكانها و يعاود الجلوس قبالته. أخبرتني زوجتك أنك تريدني، تريد عرض مقترح هام علي، تفضل كلي آذان صاغية.

في الحقيقة، أنا جد سعيد بلقائك لأني و إلى حد البارحة لم أكن أدري ماذا أفعل، كنت محتارا و لم يكن بوسعي الاتصال بالسفارة الأمريكية.

هذه عادة جيدة تدخل في باب الحرص والاحتراز، رد يعقوب باقتضاب و قد ضاق ذرعا من هذه المقدمة الهادئة و النبرات المتزنة للغاية كأنه أستاذ يلقي محاضرة أمام طلبته، حتى يخيل لمن لا يعرف ماضيه و طبيعته أنه أمام رجل ملتزم و عفيف خال من كل الشوائب المعيبة، هو الذي يمتلك تجربة رائدة في عالم الليل و النساء و موائد اللذة بمختلف أشكالها و شتى أنواعها.

لو سمحت، الوقت متأخر و أنا تعبان، اذهب إلى صلب الموضوع مباشرة و لا تضيع وقتي و وقتك، نبهه يعقوب ففتح سترته ليحس براحة أكثر و هو يتهيأ لقول أهم ما جاء به الليلة مانحا نفسه لحظات تمكنه من ولوج الموضوع بيسر و من دون تكلف.

كما لا يخفى عليك، لقد عملت و تعاونت مع جهاز الاستخبارات الإيطالي... أنت تفهم ذلك، حافظت على بعض العلاقات و المعارف... قاطعه يعقوب معلقا و هو يبتسم ابتسامة باردة : يموت الزمار و تبقى أصابعه تلعب كما يقول مثلكم العربي الشائع. لم يخامر العميل السابق أي شعور بالحرج أو إحساس بجرح كرامته، و استمر يقول بعد أن أخذ نفسا عميقا من سيجاره : سأصل، لا تقلق و لا تتبرم، أقول أنني تعاملت في قضايا معينة مع المخابرات الإيطالية، قضايا صغيرة ليست على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لمحترف متمرس مثلي تسري في عروقه دماء المغامرة و حب الحياة، هم لا يملكون الوسائل و الإمكانيات الهائلة التي تمتلكها الـ "سي أي أيه" و الـ "كي جي بي"، هذه أمور تدركها مثلي و تعرفها بحكم خبرتك أفضل مني... لم يتمالك يعقوب نفسه و قاطعه بحدة : و هذه المرة تمكنت من الإمساك بخيوط قضية خطيرة و تظن أن الأمريكيين وحدهم من يستطيع أن يدفع لك ما تمنّي نفسك به و أكثر، ها أنذا قد اختصرت لك الطريق و عبّرت عما في صدرك، أليس كذلك ؟ أم جانبت الصواب ؟

هذا بالضبط ما أردت قوله و أشكرك أن كفيتني مؤنة الطريق و لا غرو من ذلك، ملَكة تلخيص الأشياء في كلمات

قليلة و عبارات مقتضبة يشهد بها كل من خبرك عن قرب أو تعامل معك، رد شريف بصوت خافت.

ما الموضوع بالضبط سيد خان ؟

بدأ شريف يتململ على كرسيه و وجهه يتنقل بين كل ألوان الطيف كأنه يتهيأ لإلقاء حمل ثقيل ينوء به عاتقه و يحصل من خلاله على مبتغاه، خبر يعلم وحده الآن أهميته القصوى بخطورته الأكيدة و فوائده الجمة للولايات المتحدة الأمريكية، يدخل في الحسابات الاستراتيجية للقوى العظمى و صراعاتها الجيوسياسية المتناقضة و المعادية لبعضها البعض في مستنقع الحرب الباردة و الساخنة التي تدور رحاها بين المعسكرين و الكتلتين شرقا و غربا على جميع الجبهات و في أركان الأرض الأربعة. ألقى دفعة واحدة و بسرعة ما يريده قبل أن يضرب لسانه عن النطق و تحتجز الكلمات في حلقه : بحوزتي رموز الاتصالات الخاصة بالجيش المصري.

لم يظهر تعبير معين على وجه يعقوب عندما رد عليه : تقصد مفاتيح الشيفرة أم أنا مخطئ ؟

هذا ما عنيته بالتحديد، رد خان ببطء.

مطالبك مقابل ذلك ؟

عشرة ملايين دولار و لن أتنازل قيد أنملة، ردد شريف بحماس و هو يحملق في وجه يعقوب.

أما يعقوب فرد عليه مقهقها : عشرة ملايين دولار ! هل جننت يا رجل ؟ لقد ذهبت بعيدا في تقديراتك و أطماعك، لو تعلق الأمر بشيفرة الجيش الروسي لأمكنك أن تطلب مثل هذا المبلغ و أكثر، لكن الجيش المصري... الأمر لا يستدعي و لا يتطلب ذلك.

انقبضت ملامح شريف خان المرتخية و رد بحدة و تصميم من يدرك أهمية سلعته رغم محاولة التهوين من جانب المشتري كي يحصل عليها بثمن بخس : إما عشرة ملايين دولار و إما لا شيء...

ليست لدي الرغبة للمزاح، دعني أنام فأنا محتاج للراحة، و نصيحتي لك أن تتوجه بعرضك إلى المافيا السيسيلية فربما نلت مبتغاك و حققت أحلامك، رد عليه يعقوب في سخرية لاذعة.

انحنى شريف إلى الأمام و هو يقول : ألا تدرك أهمية ذلك ؟ مصر لها حدود مشتركة مع حليفتكم إسرائيل و هي حليف رئيسي للروس الذين يتجسسون عليها و على حلفائكم الآخرين في المنطقة، إيران و دول الخليج الأخرى ؛ هل يمكنك أن تتخيل قيمة و أهمية المعلومات الاستراتيجية التي ستحصلون عليها عندما تصبح اتصالاتهم في متناول أيديكم لدرء الأخطار الأكيدة و الواردة بوقوع أسراركم الاستراتيجية و العسكرية من خلال اتصالات حلفائكم في متناول الروس و المصريين و انعكاسات ذلك على أمنكم الحاضر و المستقبلي و مستقبل ذراعكم الطولى في المنطقة إسرائيل ؟ الشيفرة المصرية أشرف على إنجازها خيرة خبراء اتصالات الجيش الأحمر بالتعاون مع نخبة من العلماء و الضباط المصريين، هل أدركت الآن أهمية و خطورة الموضوع أم أنك لا تشاطرني الرأي ؟

رد عليه يعقوب بسرعة في هجوم مضاد : إذًا، ماذا تنتظر ؟ اذهب و اعرض ما في حوزتك على الإسرائيليين، سيهتمون بالأمر من دون شك.

أخذت سحنة شريف مسحة مقرفة و هو يرفع يده ملوحا في الهواء : هم بخلاء بطبعهم و انتهازيون بالسليقة و سأضيع وقتا طويلا كي أحصل على المبلغ الذي أريده و أنتظره منهم، و معرفتي البسيطة بأحوالهم تجعلني أخشاهم و لا آمن جانبهم و مكرهم.

ضحك يعقوب ثم توقف و قال : ما دمت تتعامل مع الإيطاليين و تملك رصيدا معتبرا من العلاقات الوطيدة مع جهاز استخباراتهم، لماذا لا تعرض عليهم ما تملك ؟ أم هناك محاذير تخشاها ؟

كلا، الأمر ليس على هذا النحو الذي ذهبت إليه، قال ذلك و صمت.

استعاد يعقوب جديته و قال : اسمعني جيّدا، أحبذ أن أقول لك مسبقا الثمن الذي يمكنك الحصول عليه، و قبله سيطلبون منك ضمانات قبل أن تتسلم دولارا واحدا، عليك طبعا يقع واجب إثبات – بما لا يدع مجالا للشك – أن مفاتيح الشيفرة التي تزعم تخص فعلا الجيش المصري و أنها الأخيرة في الخدمة السارية المفعول، و كي يحصل اليقين عندهم سيعطونك نصا و يطلبون منك فك رموزه، هل فكرت في هذا ؟

ابتسم شريف ابتسامة صفراء و قال : أتخالني سفيها أم مجنونا سيدي النقيب ؟! لو أعطيتكم الكيفية التي يتم بها تفكيك رموز أي نص لأمكن ذلك رجالكم المختصين في مجال الشيفرة فك الرموز و العثور على جميع المفاتيح بدون عناء يذكر.

إذًا، هل عندك اقتراح معين ؟ طلب منه يعقوب.

رد شريف : نعم، تسلمون المال المتفق عليه إلى شخص أعينه لكم لاحقا، بالتزامن مع ذهابي إلى أي مكان تحددونه أنتم و معي المطلوب، يفحص المختصون عندكم الشيفرة و لن أغادر المكان حتى تتأكد حقيقة و صلاحية ما بعتكم إياه.

أظن أن مقترحك جد معقول أيها الثعلب الماكر، كلمني مساء الغد، ستجد ردا عن مقترحك و عرضك عموما.

قطب شريف خان وجهه و ظهرت الحيرة عليه كمن أسقط في يده و سأل في شبه استجداء : ألا يمكن التعجيل أكثر من ذلك ؟

كلا، لماذا ؟ هل تحتاج إلى المال ؟

هز رأسه بالنفي و قال : ليس كذلك، لكن...

قاطعه يعقوب بإشارة مبهمة ثم قال بهدوء : الليلة، لولا وجودي لما تمكنت زوجتك من النجاة من بين أيدي مجموعة من عتاة المجرمين حاولوا اختطافها.

ظهر الرعب على وجه شريف قبل أن يرد مستفسرا : هل هي بخير ؟... هل أصيبت بمكروه ؟!

اطمئن، لحد الآن لا بأس، لكن هذه الحادثة مع تفجير المنزل كلها مؤشرات و مقدمات تدل على أخطار قادمة تتهددك بجدية...

رد شريف بسرعة : في هذه المهنة كما تعلم، الأخطار حاضرة دائما بقوة و بدرجات متفاوتة.

هذا بديهي، هل تحتاج إلى مساعدة خاصة ؟

تردد شريف قليلا قبل أن يرد : كلا، لا عليك، سأتمكن من حل مشاكلي بمفردي.

و فرنشيسكا، هل فكرت فيها هي الأخرى ؟

انتفض شريف واقفا فجأة و أغلق سترته ثم قال : آه... فرنشيسكا لا خوف عليها و لن تتعرض لأي خطر جسيم.

استشعر يعقوب من نبرات صوته شبه الحادة أن الأمور ليست على ما يرام بين الزوجين و إن حاول إخفاء الأمر، لا بد أن هناك أمرا ما جعله يحتد بذلك الشكل. حقيقة، هما غير متجانسين، لا يوجد أي تناغم أو تآلف بينهما من أول نظرة، فرنشيسكا تبدو مخلوقا جميلا تهفو إليه الأفئدة و تخفق له القلوب، مليئة بالحياة و الأحاسيس الجياشة، تثير الرغبة في النفوس الميتة، بينما هو عكسها تماما، كل ما فيه يثير التقزز و النفور...

موافق، سأكلمك مساء الغد هنا عندك.

عند العاشرة، (حدد يعقوب بدقة) ليس قبل و ليس بعد، هل فهمت ؟

و هو كذلك، تصبح على خير سيدي النقيب.

رافقه يعقوب إلى باب الخروج و ودعه طالبا منه توخي الحيطة و الحذر : احترس يا صديقي و حافظ على نفسك، لدي اعتقاد قوي أن هناك من يريد بك شرا، هذه نصيحتي لك و أنت حر في كل ما تراه لنفسك. يبتعد شريف خان من دون ضجة يسير على أطراف أصابعه.

رجل غريب في أطواره و علاقاته و في كل مراحل مسارات حياته السابقة و الحالية كما يبدو، قال يعقوب هذا في نفسه

و هو يغلق الباب جيدا تجنبا لأي طارئ محتمل، نزع ثيابه بسرعة و اندس في سريره و قد قرر الاستيقاظ باكرا ليتوجه إلى روما، لأن هذه المعضلة المعقدة لا تبت فيها إلا جهة رسمية، و لتكن البعثة العسكرية بالسفارة الأمريكية المخولة بالتفاوض في مثل هذه الأمور و بالذات مسؤولي الـ "سي أي أيه" لتقدير أهمية العرض المقدم و مخاطره من الناحية الأمنية و الاستراتيجية و إسقاطاته على المدى القريب و البعيد على الأمن القومي لأمريكا و حلفائها على حد سواء من خلال الصراعات الدائرة على مستوى كل الجبهات مع خصوم الغرب التقليديين. لماذا روما بالذات ؟ لأن ملف شريف خان يحتفظ به هناك بكل تطوراته الخاصة بمساره المهني لدى مكتب الـ "سي أي أيه" في ملفات السفارة.

(مكتب الـ "سي أي أيه" في روما)

لم يطرأ تغيير على فرانك، دوما على نفس الهيئة كما يعرفه يعقوب، نفس النظرات الضاحكة من وراء نظارته الرقيقة بإطارها الفضي، نفس تسريحة الشعر القصيرة على الطريقة العسكرية، لم ينس الرجل يوما انتسابه إلى نخبة رجال المارينز فيما مضى، حتى تقاسيم وجهه لم تؤثر فيها كثيرا تقلبات الزمن.

لم أتوقع أبدا أن أجدك عندي هنا بهذه السهولة ! هذا يستأهل أن أبلغ الرأس الأكبر بأنك رجعت من تلقاء نفسك، و عليه يستطيع تقديم نذر و إشعال الشموع في كنيسة

القديس يوحنا المعمدان شكرا لله على عودة الابن الضال إلى حضن أمه !

قطب يعقوب حاجبيه و ظهرت الدهشة على محياه : على رسلك يا هذا ! ماذا تقصد بمحاضرتك هذه ؟!

ابتسم فرانك و ربت على كتفه مطمئنا و هو يدفع به نحو إحدى الكراسي الموضوعة على شكل دائري أمام مكتبه و رد بسرعة : الأمر بسيط و واضح للعيان يا صديقي، مدير ال "سي أي أيه" نفسه يتابع أخبارك، مرة هنا و أخرى هناك، كل الجهاز يسأل عنك و يتحرى أخبارك ؛ قبل أيام علمنا أنك تتواجد بالجزائر، و استباقا للأحداث أعطى تعليمات صارمة طالبا مني العثور عليك و إقناعك بالعودة إلى الخدمة من جديد. في كل الأحوال، المسؤولية يتقاسمها غيره، كما قال لي شخصيا، فيما يخص الغلطات الفظيعة التي وقعت في 1956 عند الاجتياح الثلاثي لمصر عقب تأميم عبد الناصر لقناة السويس. أمرني كما أسلفت أن أحضرك عنده حالما أجدك و على جناح السرعة.

قاطعه يعقوب بلطف : لا تتعب نفسك و ترهق أعصابك يا عزيزي، فلن أعود أبدا إلى "لانجلي" و هذا قرار لا رجعة فيه.

ظهرت الحيرة و الدهشة على فرانك، خاب الأمل الذي غمره و راح يتأمله في شبه بلاهة قبل أن يسترد رباطة جأشه : لكن... ماذا تقول ؟! أعطيك فرصة الرجوع إلى موقعك من الباب الكبير مع رد الاعتبار و ترفض كل هذا ببساطة متناهية ؟ أنت مجنون و لا شك !

يجوز أنني مجنون، لكن هذا قراري و لن أتراجع عنه و لا أريد الخوض فيه لو سمحت، رد يعقوب بحزم لطيف موحيا لصديقه بطي الموضوع نهائيا ؛ ساد بعدها صمت ثقيل بينهما، يتبادلان النظرات كأنهما يتراسلان و ينقلان رسائل مشفرة تحملها ترددات الإشعاعات الصادرة عن عيونهما، لم يصبر فرانك و كسر الصمت المطبق قائلا في حنق : ماذا دهاك ؟! ماذا أصابك ؟! ما الذي جرى لك بالضبط حتى ركبت رأسك ؟! هل وجدت عملا أكثر أهمية و مردودية و امتيازات من الموجود عندنا ؟

ابتسم ببرودة و رد باقتضاب : كلا، ليس بعد.

إذا، كيف تعيش حياتك ؟ المال ضروري للحياة أم أنا مخطئ ؟

ضحك يعقوب هذه المرة إلى حد القهقهة ثم قال : أكيد، لكنني أملك ما يكفيني للعيش دون المساس بكرامتي أو جعلي أتسول على الأبواب، معاشي من الوكالة و ما وفرته أثناء خدمتي يزيد عن احتياجاتي المتواضعة.

بدت علامات الريبة و القلق على وجه فرانك فبادر يعقوب يطمئنه على الفور : لا تقلق يا عزيزي و لا يذهب خيالك بعيدا، أنت ترى خلف كل شيء مؤامرة أو دسيسة، أنا لست مرتزقا أقدم خدماتي لكائن من كان مقابل إغراءات مادية مهما كانت، و لو أردت لفعلته منذ زمان و السبل ممهدة و الطرق معبدة أمامي كما تعلم و لا يخفى عليك.

عفوا، لم يخطر ببالي أبدا ما تقوله، فلا تقوّلني ما لم أقله و أنت تعرف أن علاقاتنا ليست وليدة اليوم، و إن شككت في كل الناس فإنه لا يمكن أن يخامرني أدنى شك تجاهك.

ابتسم يعقوب في سره، هو الذي يعرف فرانك أكثر من نفسه، يرى المؤامرات و الخيانات في كل قضية يتعامل معها أو أشخاص يلتقيهم صدفة، حتى أنه ليشك في نفسه ذاتها لو خامرته شكوك تجاهها... ثم رد ساخرا :

إذًا أرشح نفسي من هذه اللحظة لأكون طريدة مؤهلة لصيادي الوكالة في كل خطوة أخطوها.

هز فرانك كتفيه و حملق في وجه صديقه، ثم أشعل سيجارة و نفخ دخانها في توتر واضح و رد في عجالة : لم تعد مثل هذه الأساليب موجودة الآن كما عرفناها سابقا، السياسة بتغيراتها و مصالحها تفرض مع تطور الزمن نوعية جديدة من الرجال و طرقا مختلفة في معالجة القضايا المطروحة على "لانجلي" و علينا التأقلم مع المستجدات و إلا وجدنا أنفسنا و قد تجاوزنا الزمن و خارج مجال التأثير، كم مكدس لا أهمية له...

كي لا أضيع وقتك فقد جئتك اليوم أقدم لك عرضا أراه شخصيا هاما، قال يعقوب بجدية حازمة.

من أي نوع هذا العرض لو سمحت ؟

اصبر و ستعرف كل شيء بالتفصيل، هناك شخص عرفته في إيطاليا سنة 1945، جاسوس فرنسي من أصول جزائرية، فر من الجزائر و تعاون مع المخابرات الإيطالية، جاءني و أنا في الجزائر يعرض علي بيع مفاتيح الشيفرة السرية الخاصة

باتصلات الجيش المصري، هذا هو سبب مقدمي إليكم، فهل يهمكم الأمر ؟

أكيد، لكن من هو الرجل بالتحديد، هل يمكن الوثوق فيه و الركون إليه ؟

جاسوس سابق كما أسلفت، عمل في مصالح الاستخبارات الفرنسية قبل استقلال الجزائر، كان يتعاون سرا مع جبهة التحرير الجزائرية، و عندما كشف الفرنسيون أمره هربه ثوار الجزائر عبر ليبيا إلى إيطاليا الفاشستية المعادية لفرنسا و المتحالفة مع ألمانيا آنذاك في عهد موسوليني ؛ تم تبييض صفحته و ماضيه مع الفاشست مقابل تعاونه معنا عند استسلام إيطاليا، كلفت رسميا لاعتبارات كثيرة حينها بالإشراف عليه و التعامل معه، حقيقة قدم لنا معلومات قيمة و خدمات لا تقدر بثمن ساعدتنا كثيرا في إنجاز مهماتنا.

قاطعه فرانك قائلا : أهو رجل جاد و منضبط ؟

استطرد يعقوب في توضيحه : أظنه كذلك، و إن كان في الماضي هوائيا و زير نساء، لا بد و أن له ملفا في المركزية و في أرشيف الـ "سي أي أيه" هنا في السفارة بروما.

كم يطلب مقابل بضاعته ؟

عشرة ملايين دولار.

ضحك فرانك ملء فيه، ضحكة استغراب و استنكار.

مجنون و لا شك هذا الرجل !

هكذا كان ردي عليه، لكنه مصمم و يأبى التنازل.

إذا ليسلمك أولا ما في حوزته نجربه و نختبره، و حالما نتأكد من صلاحية بضاعته سندفع له مبلغا مناسبا بكل أريحية.

لن يقبل بذلك، هو يشترط دفع المبلغ مسبقا إلى طرف ثالث يختاره، بدوره يأتي تزامنا مع ذلك بالشيفرة المزعومة إلى أي مكان نعينه له و نختاره بإرادتنا، كما أنه يتعهد بالبقاء و عدم مغادرة المكان قبل التأكد نهائيا بما لا يدع مجالا للشك أو أي شبهة من حقيقة الشيفرة و مدى مطابقتها و صلاحيتها.

بعد تفكير قصير رد فرانك قائلا : يبدو لي الأمر جد معقول و متوازن.

هذا ما أراه أنا أيضا، تبقى الآن مسألة المقابل الذي يطلبه و يصر عليه.

ظهرت أمارات التبرم على وجه فرانك قبل أن يقول : لا أدري... لكن يمكنك أن تقترح عليه نصف المبلغ و ليفهم أنه أقصى ما سندفعه في حالة ثبوت صدقية ما يدعيه، و إن ثبت على مطلبه و ركب رأسه فلن نعدم حينها وسيلة أخرى لإقناعه و إن كنت شبه متأكد من إمكانياتك التي لا تضاهى في ردعه و جعله يخضع في نهاية المطاف لما نريده.

موافق شريطة أن تكون الوسائل سلمية و غير عنيفة، رد يعقوب في حزم.

رد فرانك بسرعة : طبعا، طبعا... نعود الآن إليك، هلا سايرتني و قبلت نصيحتي و تخليت عن عنادك و تراجعت عن قرارك النهائي الأحمق الرافض العودة إلى مسؤولياتك السابقة.

ابتسم يعقوب ابتسامة غامضة و مبهمة.

قرار لا رجعة فيه ؟ هذه كلمة كبيرة تحمل تأويلات عديدة و تفسيرات شتى لا أستسيغها في الموقف الحالي. ثم قام فرانك و طلب منه الذهاب لتناول الأكل و احتساء بعض الكؤوس لتخفيف بعض ما شاب حديثهما من توتر و عصبية.

كان بودي ذلك، لكن الوقت يداهمني و جد ضيق كما ترى، يجب أن أكون في الجزائر قبل منتصف الليل، و لم يعد يفصل عن ميعاد إقلاع طائرتي سوى ساعتين.

(الجزائر العاصمة)

لم تهدأ العاصفة كثيرا، و إن كانت ملامح تحسن ملموسة في الأفق رغم تساقط الأمطار، و هبوب الرياح على أرصفة الميناء تدفع بأمواج لا متناهية متراصة و متلاطمة الواحدة خلف الأخرى تقفز تموجاتها للأعلى بزبدها و شررها المنطلق منها قبل أن ترتد في حسرة فجأة منكسرة في غياهب مناطق سوداء عجيبة، يذكر منظرها بزحف جيش ثم ارتداده و تفرقه بعد انحسار الموجة الأولى و اندحارها لاستماتة المقاومة و صلابة عزيمة الجيش المدافع. أكيد، الإنسان لم يبتكر شيئا جديدا بما في ذلك الخطط الحربية التي يكون قد اكتشفها من مراقبته للطبيعة و التغيرات التي تطرأ عليها في مختلف المراحل برا و بحرا و جوا...

دخل يعقوب فندقه و توجه بسرعة إلى غرفته فألقى نظرة متفحصة عليها خوفا من أن يكون الفضوليون قد زاروها أثناء غيابه أو وضعوا فيها أدوات تجسسية لمعرفة ما يدور بداخلها، حيث لم يغفل أن زيارة شريف خان له قد مرت في

الكتمان من دون أن يتفطن المتربصون لتحركاته في كل خطوة يخطوها، و لما تأكد من خلو المكان من كل ما يريبه نظر إلى الساعة الحائطية التي تقترب عقاربها من العاشرة ليلا، حان إذا وقت تشريف الضيف الذي سيهل بطلعته عليه بعد قليل حسب الموعد المضروب بينهما مسبقا، اللهم إلا إن كان قد تعرض لمكروه بعد نزوله من عنده، و هو ما لم يستبعد إمكانية وقوعه. دخل الحمام و توجه مباشرة إلى المرآة يدقق النظر في جرح جبهته، فحصه بتروٍّ و عناية فوجده بدأ يندمل من دون التهابات أو مضاعفات ما ينبئ بزوال الأثر تماما بعد أيام معدودة، فعاد راضيا إلى الغرفة، و جلس على كرسي يتفحص جريدة، و لم تمر دقيقتان حتى رن جرس الهاتف، إنه شريف خان.

مساء الخير، (رد يعقوب) لماذا تأخرت هل يمكن أن نلتقي ؟

نعم، أخبرني أولا هل نجحت ؟ سأل في لهفة واضحة.

رد يعقوب بسرعة : نعم، يمكن أن أقول ذلك، فقط هناك أمر يقف عائقا في إتمام الصفقة هو المبلغ الذي طلبته، لذلك يجب أن نبحث في الأمر قبل الخوض في التفاصيل الأخرى.

زال الارتياح الذي غمره فجأة و خيم صمت قصير قبل أن ينبري العميل الفرانكو- جزائري يقول متلعثما : خلال نصف ساعة بالكثير نلتقي في كازينو "كليوباترا"، هو لا يبعد كثيرا عن فندقك و لولا حالة الجو السيئة و المتدهورة لأمكنك الوصول إليه سيرا على الأقدام، خذ تاكسي يقودك رأسا إليه، هو جد معروف يرجع وجوده إلى حقبة الفرنسيين، هل عرفته و أنت ابن العاصمة ؟

أعرفه و إن لم تطأه قدماي أبدا، اطمئن و لا تجزع فلن أضل طريقي إليه. قطع الخط و ذهنه يبدي و يعيد : هل يقبل شريف بنصف المبلغ الذي سيعرضه عليه أم يتمسك برأيه ؟ هو ذكي و فطن و يعلم بالقطع أنه لن يجد من يدفع له مثل هذا المبلغ في مثل ظروفه المستعجلة و الأخطار المحدقة به، من مصلحته و سلامته الشخصية أن لا يتسرب الخبر إلى جهات أخرى و بالتالي الأفضل له إبرام الصفقة بسرعة و مع جهة مضمونة، و يحصل على مقابل لم يحلم به من قبل و لن يحصل عليه لو عاش حياته مرتين يعمل ليلا و نهارا بدون هوادة ؛ هو يعلم قيمة بضاعته و أهميتها التي لا تقدّر بثمن، ذلك ما يجعله يعاند و يجادل كي يحصل على ما يريد، فهل يا ترى يقبل بنصف ما طلب ؟ سؤال يلح عليه بقوة، لكنه في قرارة نفسه يدرك أن رفضه سيفوّت عليه فرصة نادرة لا تعوّض، ليس هو شخصيا لكن على أمريكا و حليفتها في المنطقة إسرائيل، هذه الأخيرة مؤهلة ربما أكثر من أمريكا أن تدفع من دون تردد أي ثمن مقابل الحصول على مفاتيح الشيفرة السرية الخاصة باتصالات الجيش المصري، و تداعيات ذلك لا تخفى على كل خبير و مختص في المجالين العسكري و السياسي بكل ما يحمله المعنيان من أبعاد جيوسياسية و تكتيكات استراتيجية عسكرية بكل تأثيراتها و إسقاطاتها الآنية و المستقبلية على نتائج أي صراع قد ينشب بينها و بين دول محيطها العربي المعادي لها. الأهمية تنضوي من دون شك في المعرفة المسبقة بتحركات و انتشار الجيوش الميدانية المصرية على طول الجبهات و داخل المدن و خارجها، مكوناته الدفاعية و الهجومية و أعدادها الآلية و البشرية مع منظومات

دفاعاته الجوية و الصاروخية و كيفيات تأطيرها و أماكن نصبها و غيرها من المعلومات الهامة الأخرى التي تخص مختلف القوات المصرية البرية و البحرية و الجوية، إضافة إلى ثغرة تحصل منها إسرائيل على معلومات هامة تخص الجيوش العربية الأخرى مثل سوريا ، الأردن، اليمن، العراق و غيرها من الدول العربية مما يمكّنها من كسب أي حرب قادمة أو القيام بحرب استباقية لتدمير منشآت تكوّن خطورة على أمنها في اللحظة المناسبة التي تراها فتلجأ إليها لدرء أي خطر محتمل للهجوم عليها.

على كل أمريكا و إسرائيل هما وجهان لعملة واحدة، و بعد قليل سينجلي الأمر و أرسو على بر آمن، قال هذا ثم لبس معطفه و وضع قبعته على رأسه، تفقد كالعادة عصاه و مصباحه الجيبي و خرج بسرعة، استأجر سيارة من الفندق و توجه إلى كازينو"كليوباترا".

الكازينو شبه خال من الزبائن، أكيد هي الأحوال الجوية التي تردع الناس و لا تشجعهم على الخروج من بيوتهم. جلس يعقوب إلى طاولة منزوية بعيدا عن الأنظار و طلب كأسا من الويسكي و هو يمعن النظر في الفرقة الموسيقية التي تقوم بعزف موسيقى شاعرية قبل أن يظهر مغنٍّ شاب على الركح و يبدأ في ترديد مقاطع من أغنية عاطفية تتمايل على أنغامها راقصة ترتدي ثيابا شفافة تظهر أكثر مما تخفي الأجزاء الحساسة من جسمها، تهتز و تتمايل في حركات خليعة و أوضاع مثيرة تدغدغ الأعصاب و تثير زوابع مكامن النفس موقظة الغرائز الحيوانية الكامنة التي تنتظر فقط الفرصة كي تبرز للسطح

تترجم لسان حال الأحاسيس البهيمية المكبوتة لدى الإنسان عندما يوجد في أجواء تنسيه الذوق السليم و الوازع الأخلاقي و الرادع الديني فيتحرر من كل القيود و ما يسمو به ساقطا في عالم الأحاسيس المثير و الرغبات المحمومة و ما يتبع يكون نتيجة حتمية و تحصيلا حاصلا تماشيا مع السياق العام لكل تراكمات تلك المقدمات التي وضع الشخص نفسه فيها فتحول إلى فاقد للإرادة قياده عنان شهواته و رغباته الحيوانية، يأتي بأمور معيبة ربما لم تخطر بباله يوما أن يأتي بمثلها.

ظهر التبرم و القلق على وجه يعقوب إذ جاوزت الساعة منتصف الليل و لم يظهر أثر شريف خان، و ساوره الملل و هو يتأمل بعض الرجال و رفيقاتهم على حلبة الرقص يؤدون رقصات باهتة من دون حماس... سادس كأس ويسكي يطلبها لحد الآن، و قد قرر أن يغادر المكان بعد الانتهاء من شرب كأسه دون انتظار شريف خان و ليتحمل وحده مسؤولية التأخير في إنجاز الاتفاق المزمع بينهما ؛ لو كان يعرف أين يجده لما تردد لحظة في الذهاب إليه لينهي الأمر عوض هذا الانتظار الممل و المرهق عصبيا و الموتر نفسيا.

نادى يعقوب على النادل و دفع ثمن مشروباته و همّ بالانصراف، فقد تأخر شريف كثيرا و لا يسعه البقاء أكثر من ذلك، من المحتمل أن يتعرض لخطر داهم، هو الذي يجهل كلية و لا يعرف شيئا محددا عن العلاقات المتوترة التي نسجها مع الآخرين و جرى له ما جرى حتى أوشك أن يفقد حياته أو يعتقل بسبب شريف الذي يأبى في عناد الكشف عن كل أوراقه و منها علاقاته المشبوهة مع أشخاص معينين أو أجهزة استخباراتية

بعينها ، و من بينهم من أراد خطف زوجته... لم يتقدم خطوتين نحو باب الخروج حتى لمح فرنشيسكا تقف باحثة بعينيها في القاعة عن شخص ما ، كان معطفها و شعرها المبللان يلمعان تحت الأضواء ؛ أشار لها بيده و لما عرفته أسرعت الخطى نحوه... حقيقة هي امرأة رائعة، كل ما فيها يأخذك بعيدا و يشدك إليها... تقدم منها و هو يحييها بحرارة، لاحظ شحوب سحنتها و اصفرار وجهها فظن أن الخوف مازال يمسك بتلابيب نفسها جراء المخاطر التي تعرضت لها و كان شاهدا عليها. جلست فرنشيسكا على كرسي قبالته، و تقدم منهما نادل فطلب يعقوب كأسي ويسكي، لا يخفى عليه أنها في أمسّ ما تكون إلى شراب قوي التأثير. ابتعد النادل فبادرها قائلا : أين هو شريف ؟ أنا هنا أنتظره منذ مدة طويلة بناءً على موعد مسبق بيننا.

حركت يداها في ما يوحي بالقلق و الاضطراب و أعلنت بسرعة : لن يأتي.

لماذا ؟! هل حل به مكروه ؟!

لم ترد ، لكنها بقيت تتأمله بعينيها الجميلتين كأنها مترددة قبل أن تنبثق تقول : أظن أنه يمكنني الوثوق بك... تمتمت ذلك في همس مثلما تكلم نفسها.

لقد طلبت منه قبل الآن إن كان يحتاج إلى حماية خاصة لكنه رفض و أبى في عناد ، أخبرها يعقوب مشجعا كي تمر إلى المصارحة المباشرة و الاعتراف بما يغيب عنه إلى حد الساعة.

لوت شفتيها الممتلئتين مرارة و تبرما و فتحت ثغرها الجميل : هذه هي طباعه دوما ، لم يتغير البتة، متعجرف

و متكبر و معتد بنفسه إلى درجة الغرور الذي سيورده يوما حتفه... غباء و عناد لم أخبر مثلهما في حياتي.

يظهر أنها لا تحمل له ودا في قلبها بل كراهية دفينة تنتظر الفرصة لتعبر عن نفسها و تتفجر بارزة على السطح.

هل فعلا أنتما زوجان ؟ تساءل يعقوب.

للأسف نعم، يا ليتني ما اقترنت به و ربطت به مصيري، عيشتي معه كلها أحلام وردية و وعود كاذبة لم يتحقق منها شيء... هذه المرة بالمال الذي كان سيتسلمه منك، كنا قد قررنا السفر إلى جزر الكرايبي و شراء بيت و قضاء ما تبقى من العمر في سعادة و بحبوحة من العيش بعيدا عن كل المنغصات و ما يذكرنا بالآلام و متاعب ماضي حياتنا، لكن...

قطعت كلامها بمجيء النادل يحمل طلبهما، شربت كأسها دفعة واحدة من دون توقف فبدأت خدودها الشاحبة تتورد و تعود إليها نظارتها بعد سريان الكحول في دمائها، أعقبه تدفق سريع للدفء في مناطق جسمها الحساسة.

هلا شرحتِ لي ما حصل بالضبط ؟ لم أعد أفهم ما يدور !

كنا نتواجد عند أحد الأصدقاء تلبية دعوته لنا للعشاء، غادر شريف المكان بعد أن كلمك بالهاتف، و كنت أراقبه من النافذة و هو يتوجه إلى موقف سيارات الأجرة، فجأة و قبل أن يصل إلى الموقف برزت سيارة ناحيته، توقفت و نزل منها رجلان، ما جرى بعدها كان من السرعة بمكان : في لمح البصر انقضّا عليه و رميا به داخل السيارة التي انطلقت تزمجر بسرعة رهيبة !

قاطعها يعقوب متسائلا : كم كان عددهم ؟ هل تعرفت على أحدهم ؟

رأيت اثنين بالإضافة للسائق، ربما يوجد رابع لم أنتبه له للسرعة التي تم بها تنفيذ الاختطاف.

هل هم نفس الأشخاص الذين هاجموك ليلة أمس ؟

يحتمل ذلك كما قلت، لأن سرعة التنفيذ مع حلاكة الظلام و الأجواء المضطربة حال بيني و بين التعرف عليهم.

ماذا فعلت بعد ذلك ؟

صمتت لحظة كأنها تستذكر كابوسا مزعجا... ارتشفت جرعة من كأس يعقوب ثم قالت : بعد ذلك، لقد كنت مرعوبة من هول ما رأيت حتى أنني لم أجرؤ على الخروج أو التحرك خوفا من أن يقتحم أحدهم الشقة أو ينتظر خروجي للإمساك بي... أخذت نفسا عميقا قبل أن تكمل : انتظرت ساعة كاملة استرجعت فيها بعض شجاعتي و رباطة جأشي ثم خرجت لأنني رأيت أنه من واجبي إبلاغك بما حدث، إذ لا أحد يمكنه القيام بالأمر غيري، أخذت تاكسي و جئت مباشرة إليك.

صب يعقوب كأس ويسكي و دفعه للسيدة قائلا : اشربي هذا أيضا، ستكونين بخير بعد قليل.

و أنت لماذا توقفت عن الشرب ؟

يكفيني ما شربته الليلة إلى حد الثمالة و أنا في انتظار زوجك.

رضخت لأمره من دون مناقشة و مدت يدها تتناول الكأس تعبّ منها بنهم.

الآن، أرجو منكِ أن تضعيني في الصورة، إذا كنت ترغبين في مساعدة زوجك عليك بكشف ما في حوزتك من أوراق

مخفية كي أتمكن من تقييم الوضعية و تقديم المساعدة المطلوبة و المستعجلة لزوجك.

خفضت عينيها و ارتعشت الكأس في يدها حتى كادت تسقط لو لم تسعفها باليد الأخرى و قالت :

عن أي أوراق تتكلم، قل ما تريده مني و تنتظره على وجه التحديد ؟

أرجوكِ، لا الوقت و لا الظرف يسمحان لنا بالقيام بلعبة القط و الفأر، كل ثانية تهدر تفوّت علينا فرصة إنقاذ حياة رجل تتهدده مخاطر جمة. عندما تحصل مشاكل من هذا النوع هذا يعني أننا بحثنا عليها و تسببنا فيها و في ردود أفعال أصحابها، يضاف إليها جهلنا لمعطيات معينة بكل إسقاطاتها الخطيرة التي يمكنها أن تطيح بنا جميعا و بأسرع ما تتخيلينه، هذه وضعية زوجك باختصار شديد من دون أدنى شك كما أراها شخصيا، لهذا كله أطلب منكِ و للمرة الأخيرة أن تدلي بدلوك و تخبريني بكل صغيرة و كبيرة تعرفينها و بَلغتك عن الموضوع.

فتحت معطفها عن آخره، تحته فستان قطني أحمر غامق يحتضن في شغف صدرها المثير الذي يحاصرك فلا تتمكن من رفع عينيك عنه، يكشف عن الأجزاء العلوية من نهديها في جرأة و تحدٍّ غير خافية على العيان، كأن الأمر مقصود و متعمد لإيقاع الفريسة في الشباك. لم يفت الأمر يعقوب، هو الخبير في مثل هذه الأمور الشائكة و المواقف الحساسة عند تداخل الأمور الأمنية و تشابكها مع عالم بحر النساء العميق بمثيراته الحسية و متعه الجسدية، لكن يعقوب بخبرته و دهائه يستطيع شكم اندفاعاته و مقاومة أي تيار يريد أن يجرفه إلى

شاطئه... صحيح أنها وقعت من نفسه موقعا طيبا، لكنه أجّل الأمر إلى حين، كل مقام و له ما يناسبه من مقال، الآن حياة زوجها في خطر و عليه أن يعرف التفاصيل منها قبل فوات الأوان و ضياع اتفاقه معه و الشيفرة إلى الأبد.

ردت عليه بصوت حزين و مؤثر لكن بتصميم : هذه أمورنا الخاصة، تهمنا وحدنا فقط.

انتفض يعقوب يحملق فيها، مستنكرا ردها غير المتوقع : اتركي عنك هذا التشنج و العناد، نفس التفكير و التعليل على شاكلة شريف و الحاصل أمامك، من يدري ربما الآن هو في عالم الأموات، إن كنت تحبذين نفس مصير زوجك أنت حرة، لست مجبرا على استجدائك أو إقناعك، في كل الأحوال الأمر يهمك و القرار يرجع إليك، افعلي ما تشائين و لا تلومي بعد ذلك إلا نفسك إن بقيت حية !

أمتأكد أنت مما تقول ؟ لقد شعرت بالرعب و الانهيار... ردت مذهولة.

ماذا تظنين إذا ؟ لست بامرأة غبية كما يلوح لي، هل أخذوا زوجك لقضاء سهرة جميلة على ظهر يخت يتناول ما لذ و طاب في جو موسيقي شاعري... رجاءً أوقفي تظاهرك بالبلاهة و السذاجة، فزوجك الآن إن لم يكن قد قُتل بعد فهو يتعرض لأقصى فنون التعذيب لحل عقدة لسانه و جعله يقر و يعترف بما يريدون منه، بالطبع المكان الذي يخفي فيه مفاتيح الشيفرة.

اصفر لونها و اضطربت قليلا و هي ترمقه في دهشة : لا أملك ما أقوله لك و لا أعرف شيئا عما تتحدث عنه و ترمي إليه.

شعر يعقوب بضيق و اجتاحه غضب عارم لكنه تمالك نفسه و رد عليها بهدوء : حسنا، لا أدري لماذا أضيع وقتي معك، تمنياتي لكِ بالتوفيق و نصيحتي لك أن تلعبيها جيّدا. ثم أشار للنادل الذي أسرع نحوه، فدفع الحساب و وقف يهم بالانصراف.

انتظر، أرجوك... قالت و هي تمسك به من ذراعه، فجلس مكرها و هو ينظر إليها شزرا ينتظر رؤية ما تريده منه : كلّي آذان صاغية، تفضلي و بسرعة لو سمحت فقد ضيعت و زوجك ما فيه الكفاية من وقتي.

أرخت أهدابها كأنها تخشى من نظراته النارية المحدقة فيها و قالت هامسة : كل ما جرى أتحمل وحدي مسؤوليته... فقدت الثقة كليا في شريف، و لما تناهى إلى علمي وجود الشيفرة السرية في حوزته خفت أن يعرض الأمر على الإيطاليين...

هكذا إذن !

لكنها استمرت في سرد حكايتها متجاهلة مقاطعته : الإيطاليون لا يدفعون أبدا، و شريف كان يعول عليهم كثيرا بحكم علاقته السابقة بهم، لذا ارتأيت أنه من الأفضل التوجه إلى جهة أخرى تكون مستعدة أن تدفع بسخاء، عثرت على عميل من الاستخبارات المصرية...

قاطعها مرة أخرى يعقوب ضاحكا ملء فيه قبل أن يعلق بسخرية لاذعة : في النهاية كل المدينة تعلم بالأمر، هذا هو التهور بعينه و الحمق بشخصه.

مررت يدها على شعرها ترفع الخصلات المتدلية على جبينها في عصبية ظاهرة و ترد بإحراج بالغ محاولة تبرير سلوكها : لا يمكن لأي شخص أن يتنبأ بالغيب، حقيقة لقد غضب شريف

غضبا شديدا لما عرف بالأمر، كان يخشى من أن تتم تصفيته من طرف الإيطاليين لو تعامل مع المصريين أو أي جهة موالية للعرب.

هل تظنين أن عملاء من الاستخبارات المصرية هم من هاجمك ؟

هزت رأسها الجميل نافية و صمتت قليلا تفكر قبل أن تعود لاستكمال حديثها : لا أظن ذلك رغم العلاقات الوطيدة بين الاستخبارات المصرية و الجزائرية، الأرجح أن يكونوا إيطاليين أو من أوروبا الشرقية لأن الوسيط المرسل من طرف المصري لم يكن سعيدا عندما أخبرته أن ينسى ما عرضته عليهم بخصوص الشيفرة مقابل مبلغ مالي كبير.

هل تعرفين اسم المصري الذي اتفقت معه ؟

أخذت جرعة كبيرة من الخمرة تداري بها ارتباكها و تشحذ عزيمتها ثم قالت : أظن أن اسمه... يسري الكاشف.

أين يمكن أن نجده ؟

في بيته الواقع في أعالي العاصمة.

هل هو بعيد من هنا ؟

عشرون دقيقة بالكثير، بالسيارة طبعا.

فلنذهب حالا من دون إضاعة للوقت، أمرها يعقوب.

ارتعش جسدها الشهي و ظهر الخوف و التوجس على ملامحها و ردت في ارتباك : تقول... نحن ؟!

نعم نحن، أنا و أنتِ و لتبقي على جانب ما دمت مترددة، بحق السماء هل تودين رؤية زوجك مجددا أم أنك تفضلين موته ؟

ظهرت تقطيبة على وجهها تعبيرا عن استنكارها و سخريتها معا مما سمعته.

أدرك يعقوب لحظتها بأن مصير زوجها لا يهمها إطلاقا، على العكس من ذلك هي فرحة و مرتاحة لتخلصها منه ؛ كل ما تريد هو تركها تعيش حياتها بعيدا عن هذه المتاهات، لكنها بالمقابل في حاجة ماسة للمال و الكثير منه، لهذا قرر أن يستدرجها من هذا الجانب كي تتعاون معه و قد أدرك أنها تعرف الكثير من الأمور و تأبى متعمدة الخوض فيها لحاجة في نفسها تناور للحصول عليها. نظر إليها مليا حتى خفضت عينيها هربا من سياط النار الحادة المسلطة عليها تكاد تحرقها، ثم قال في هدوء و بتأنٍّ ضاغطا على مخارج كلماته : تمكنت من الحصول على مبلغ ثلاثة ملايين دولار، إذا تمكنتِ من تسليمي الشيفرة فالمبلغ كله لك... وحدك، و لننسى شريفا و نتجاوزه.

بقيت صامتة لحظات تحدق في لا شي قبل أن تعقب بسرعة : كان اتفاقك مع شريف ينص على عشرة ملايين دولار.

يستحيل الحصول على هذا المبلغ و قد عرّفته بذلك و شرحت له الأسباب باستفاضة، ثلاثة ملايين دولار هو أقصى ما يمكن، مبلغ كبير كما ترين ليس من السهل الحصول عليه، يمكّنك من الذهاب و الاستقرار في أي منطقة من العالم تختارينها في رغد و سعادة تحسدك عليها أميرات الشرق و الغرب، و أعدك بأن نساعدك و نحميك إن رغبت في ذلك.

لا تكلمني في هذا الأمر، أنا لا أعرف أين خبأ شريف الشيفرة. هي جادة و صادقة بكل تأكيد، لم يفاجئ الأمر يعقوب لأن شريف رجل محترف، حتى و إن كان يهوى فرنشيسكا و يهيم بها فإنه لم يكن يثق بها كثيرا إلى الدرجة التي يطلعها

فيها على أشغاله الخطيرة و أسراره الدقيقة... تابع يعقوب قائلا : أنت الآن لا تملكين الخيار و لا مناص من مساعدتي، حتى لو بقيت فرصة وحيدة لإنقاذ زوجك فيجب أن نستغلها و لا نتركها تضيع هدرا و تطير من بين أيدينا، كفى رغيا و هيا اتبعيني لننطلق بسرعة. قامت في صمت مسلمة قيادها له من دون أن تتفوه بكلمة تسير أمامه تتقدمه إلى باب الخروج في استسلام.

المكان كئيب، يثير الخوف و الاشمئزاز، يزيد من وطأة ذلك الإحساس غزارة الأمطار و عصف الرياح الشديد المتلاعب بفروع الأشجار و أوراقها لتتألف من ذلك أصوات منكرة متلبسة بالظلام الدامس فتمتلئ القلوب رهبة و هلعا. ركن يعقوب سيارة البيجو"403" – التي كان قد استأجرها من الفندق – في مكان مظلم، أوقف المحرك و أطفأ الأنوار ؛ لم يعد يسمع سوى عصف الرياح و تساقط رذاذ المطر على زجاج السيارة الأمامي و هيكلها الخارجي عازفا مقطوعة موسيقية راقصة على شاكلة الطامطام الإفريقي.

انظر... المنزل الصغير المواجه لنا على تلك الربوة، المحاط بسور تعلوه الأشجار الضخمة، قالت فرنشيسكا مشيرة بأصبعها في اتجاهه.

نزع يعقوب مفاتيح السيارة خلسة و وضعها في جيبه من دون أن تنتبه له فرنشيسكا ؛ هو أيضا لا يثق بها و لا يأمن لها.

سأذهب ألقي نظرة، لا تتحركي من مكانك مهما كان و انتظري رجوعي، هل فهمت ؟

قال لها هذا و نزل مباشرة، عدل من وضع قبعته فوق رأسه و أدخل يديه في جيبي معطفه و انطلق يقطع الطريق بسرعة ليبلغ الرصيف المقابل قبل أن تتبلل ثيابه أو يلمحه أحد. السكنات قليلة و مسافات معتبرة تفصل بينها، تتشابه تقريبا في طرازها المعماري الفرنسي الكولونيالي على شكل فيلات صغيرة. توقف على بعد ثلاثين مترا يتأمل و يعاين مسكن العميل المصري يسري الكاشف ؛ منزل جميل يحيط به سور حجري، حديقة صغيرة تبرز منها أشجار ضخمة عالية تغطي بظلال أغصانها الفارعة جل واجهات الغرف و تتستر عليها فلا يظهر منها سوى أعلى النوافذ، أفضل طريقة يلجأ إليها كل من يحرص على بقاء ما يدور خلف الأبواب المغلقة رهين الأرجاء لا يتسرب، في طي السرية و الكتمان بعيدا عن أعين و أسماع الفضوليين و المتلصصين و غير المرغوب فيهم. المنزل يسبح في ظلمة عاتمة، هدوء مريب في غياب أي مؤشر يدل على وجود حياة بداخله.

تقدم يعقوب بهدوء و حذر مهيئا عصاه في كمه كعادته كي تكون في متناول يده إن استدعى الأمر استعمالها في غياب حيازته على سلاح ناري لحد الآن، عالج السياج الحديدي الذي يعلو السور الحجري بدقة و مهارة الخبير المحترف، لم يحاول مع الباب خوفا من صدور صوت ينبه أحدا و كي يتفادى بالمناسبة الفخاخ المنصوبة و أجهزة الإنذار المحتمل وجودها فتعسر مهمته ؛ تمكن بسهولة من الولوج إلى داخل الحديقة و سار على طريق ضيق مرصوف بالأحجار الصلبة يقود نحو مدخل البيت، ثم توقف أمام عتبة الباب الأخيرة مادا أذنيه يتلصص لعله يلمس حركة ما تصدر من الداخل تنبهه إلى خطر داهم

يتهدده... هدوء تام و سكون لافت، لا يسمع إلا عصف الرياح و تساقط الأمطار و أصداء أصوات بعيدة آتية من المدينة ؛ لمح جرسا حائطيا فلم يتمالك نفسه و ابتسم، لا يجوز الوقوع في نفس المطب مرتين... ثم طاف بهدوء حذر حول البيت متوخيا الحيطة أن تصدر نعاله صوتا يمكن أن يشي به فيتفطن له من بالداخل إن وجد. النوافذ مغلقة مما يحتم عليه الدخول مجبرا من الباب الأمامي بعد معالجته، الوسيلة الوحيدة المتوفرة لحظتها في مثل تلك الظروف الاستثنائية لانعدام منافذ أخرى لكل من يرغب دخول البيت، و عاد يتفحصه بإمعان فوجده لحسن حظه غير مغلق بالمفتاح، يفتح بكل يسر بالمزلاج ؛ لم يندهش أو يرتب، هو يعلم أن الكثير من أجهزة الاستخبارات تطلب من رجالها الظهور عاديين في أعين جيرانهم كي لا تثار الشبهات و الشكوك حول أشخاصهم، و الامتناع عن غلق الأبواب إلا في الظروف القاهرة التي تستدعي ذلك ؛ ممارسة جيدة من الناحية النفسية تبعد كل الشكوك عن صاحبها، إذ لا يمكن لأحد أن يتخيل أو يمر في ذهنه بأن صاحب البيت يعيش حياة مزدوجة، هو من يترك بيته من دون إغلاق عند خروجه.

دخل يعقوب و هو يتصنت باهتمام و كل حواسه متحفزة، وصل فجأة إلى سمعه شيء غير عادي هذه المرة... شيء يشبه حشرجة أو أنينا خافتا، أخرج مصباحه اليدوي طاردا الظلمة المطبقة على أرجاء البيت برواقه و غرفه الأربعة المفتوح باب إحداها قليلا... مرت ثوانٍ و لا ردود أفعال أو حركات مريبة صدرت باستثناء تلك الحشرجة. دفع الباب ببطء، ملتصقا بالجدار و مادا ذراعه، رافق حركته تلك صدور صوت حاد و مفزع من دون حدوث شيء خطير. تقدم يعقوب بحذر شديد،

ألقى نظرة خاطفة و أشعل النور ليفاجأ بوجود رجل مطروح على بساط قرب أريكة، صوّب يعقوب مصباحه إلى وجه الرجل المتمدد على الأرض، حدسه وحده كان يكفي كي يتعرف على الرجل، لكن الحذر مطلوب في جميع الأحوال ؛ إنه شريف خان، كان المسكين هو من يصدر تلك الحشرجة الرهيبة. فتش يعقوب جميع أركان الغرفة و بقية الغرف بسرعة و عاد في لمح البصر بعد فشله في العثور على ما يشفي غليله و ينير دربه مغلقا - بإحكام - الباب الخارجي بالمزلاج كي لا يفاجئه أحد من الخارج على حين غرة.

ملامح شريف خان المطموسة لم تكن تستهوي النظر إليها، يظهر أنه ضرب بآلة حادة ضربا عنيفا إلى درجة فقدت فيها ملامح وجهه الصفة الآدمية. جلس على ركبتيه بقربه و المسكين يرسل أنات خفيفة بالكاد تلتقطها الأذن، لا تكاد تسمع، تصاحبها رغوات في حين يعلو جانب شفتيه المزرقة زبد أبيض شفاف. أزاح يعقوب جانبا من سترته فوجد رصاصة في صدره، ثم مال أكثر عليه و قال في أذنه : شريف... هل تسمعني ؟

تململ المحتضر بشدة و تحركت شفتاه لكن صوته مكث سجين حلقه.

أنا صديقك يعقوب... هل عرفتني ؟

نـ..عم... لم يتمكن من إتمام كلامه إذ صدر عنه صوت رهيب مثل فرقعة مصحوبا بحشرجة.

يجب الإسراع لأن المسكين على وشك الرحيل و توديع الدنيا.

أخبرني أين هي مفاتيح الشيفرة ؟ (قال آمرا إياه بقوة).

حاول رفع رأسه قليلا ليتكلم فساعده يعقوب و هو يمد أذنيه ليلتقط أي حرف من بين شفتيه.

عنـ..ـد غو..ـندليزا... في صند..وق... خشـ..ـبي... و يسقط رأسه بعنف يتدلى على جانب.

ترك يعقوب رأس الجثة يلامس البساط برفق و قام بسرعة يفتش جيوب الميت و يضع كل محتوياتها داخل جيوبه، و فجأة بلغ سمعه حس سير بالخارج فانتفض بقوة و خرج من الغرفة يختبئ في المطبخ بعد نزع مزلاج الباب، ثم جثا على ركبتيه و قام بإطفاء مصباحه و وضع عينه على قفل الباب. دخل أحدهم و هو يغني، يضاء الرواق و يسمع صوت وضع حقيبة أو محفظة على الأرض، تلاه ارتسام خيال في مجال نظر يعقوب المحدود. توقف الرجل أمام باب غرفة القتيل لثوان محدودة، ثم دخل كأنه مجبر و قد توقف عن الغناء، و عندها وصلت سمع يعقوب أصوات عالية كالصراخ بدت له مثل السباب و الشتائم بالعربية، تأكد الآن و مما سبق أن الوافد الجديد هو في واقع الأمر صاحب البيت، المصري يسري الكاشف بشخصه ؛ رجل طويل، عصبي المزاج كما يبدو، شعره أسود قصير خالطه بعض الشيب، بدوره يجثو هو أيضا قرب جثة شريف خان ثم يعاود إرسال سيل من الشتائم في لهجته المحلية. أكيد يكون الآن الجاسوس الفرانكو- جزائري قد فارق الحياة... رنين التليفون الفجائي جعل يعقوب يهتز حتى كاد يقع على ظهره، توجه الرجل ليرد... مكالمة جد قصيرة، وضع السماعة بعنف في نفس الوقت الذي أطلق فيه سلسلة جديدة من الشتائم البذيئة، و بدأ بعدها مباشرة

يعمل في توتر و اضطراب. أدرك يعقوب بسرعة ما يجري : يسري الكاشف – إن كان هذا هو اسمه الحقيقي – يقوم بلف جثة شريف داخل البساط و يربطها بحبل غليظ كي لا تتدحرج منه و نيته أخذها بعيدا عن المنزل إلى مكان آخر للتخلص منها.

باضطراب شديد، أعاد المصري الأثاث الذي حركه كما كان مكانه و وضعيته الأصلية قبل جذب البساط، ثم لبس معطفه و حمل الجثة الملفوفة على عاتقه و خرج بعد أن أطفأ الأنوار تاركا البيت يسبح في بركة من الظلمة العاتمة. وقف يعقوب بحذر، و انتظر إلى حين لم تعد تصله أصوات الخطوات الثقيلة المبتعدة فخرج إلى الرواق و منه إلى خارج البيت ليجد نفسه يسير في الشارع و الأمطار لا تزال تتهاطل مصحوبة برياح عاتية، توقف عندما أصبح البيت غير مرئي بالنسبة له. يبدو أن يسري الكاشف قد تبخر أو طار في الهواء بحمله... جذب انتباه يعقوب من ناحية اليمين صوت إغلاق صندوق جاف تلاه بعد ثانيتين صوت محرك سيارة و حزمة أضواء تنطلق... الرجل يستعمل السيارة في نقل الجثة و التخلص منها.

من دون تفويت ثانية، أخذ يعقوب الاتجاه المعاكس تاركا مسافة معقولة، و قطع الطريق بسرعة ليلتحق بسيارته. لم تتحرك فرنشيسكا أو تبرح مكانها... تسلل يعقوب تحت المقود و شغل المحرك. هناك، الآخر ينطلق مثل الإعصار، فعل بدوره نفس الشيء و الأضواء مطفأة، و في نفس اللحظة تقريبا بلغ أسماعهما صوت إيقاعي لصفارة إنذار يشق الأجواء آتيا من الخلف.

إنها الشرطة ! صاحت المرأة محذرة.

مثل العادة، دوما متأخرين... علق يعقوب ساخرا.

ظل يتبع المصري مدة قبل أن يشعل فجأة أضواء سيارته و هو بالقرب من الأخرى.

ما هذا ؟! (سألت فرنشيسكا في اضطراب) هل وجدت شيئا أم لا ؟

من دون انتظار رد عليها : وجدت زوجك، لكنه ميت...

انتفضت قائلة : ماذا... قلت ؟!

أعقبها صمت لحظات قبل أن تنبري تسأله : هل أنت من اتصل بالشرطة ؟

بالطبع لا. و صمت.

السيارة أمامه الآن تسير بسرعة معقولة، شيء مفهوم لأن صاحبها لا يتمنى أن توقفه الشرطة و جثة في صندوق سيارته.

هل تعلم ماذا سيفعلون بالجثة ؟ تستفسر فرنشيسكا.

كيف لي بربك أن أعلم، هل أنا أحد شركائهم مثلا ؟ أنا لا أملك جوابا شافيا لسؤالك... الآن على الأقل، الجثة موجودة داخل السيارة التي نتبعها.

آه !! كأنها صدمت بالخبر.

هلا أخبرتِني عن أوصاف يسري الكاشف ؟ سألها فجأة مغيرا منحى الحديث.

يسري الكاشف ؟ طويل...

هل يرتدي معطفا جلديا أسود اللون ؟ قاطعها بسرعة.

نعم، أحيانا...

عمره ؟

في العقد الخامس من عمره.

نعم، إذا هو من ينقل جثة زوجك.

أشارت بأصبعها غير مصدقة إلى السيارة أمامها التي تبعد حوالي ستين مترا :

هنا... تقصد ؟

نعم، أقصد ما فهمتِه. و ألقى نظرة خاطفة عليها فوجدها تبلع ريقها بصعوبة لجفاف حلقها و تضم شفتيها في تأثر و ارتعاش زاد منه تراقص البيجو 403 بعنف على الطريق المبلل الذي أصبح يشبه في جل مقاطعه ميدانا للتزحلق ينذر بكارثة لكل سائق لا يلتزم الحذر و الحيطة و لا يملك مهارات عالية في فنون القيادة في مثل هذه الحالات الحرجة. أشعل يعقوب أضواء سيارته الأمامية و الخلفية لأنه لمح سيارة قادمة من الاتجاه المعاكس ثم عاد فأطفأها، منحنيا على المقود متفحصا الطريق - بمنازله القديمة المتراصة على جانبيه - كي لا يقع في حفرة أو مطب يؤدي به إلى التهلكة.

إلى أين يقودنا هذا الطريق ؟ سألها يعقوب.

إلى شرق الجزائر، ردت عليه باقتضاب.

هل ينوي الكاشف التوجه إلى إحدى مدن شرق الجزائر مع خطورة الأمر لوجود نقاط مراقبة و تفتيش عديدة للشرطة و الدرك على طول الطريق ؟ احتمال ضعيف، ردد يعقوب في نفسه.

بدأت المنازل تتناقص تدريجيا و تظهر حقول على نطاق واسع... لمح عن بعد طريقا ريفيا توجد في نهايته هضبة شيدت عليها منارة ثانوية كانت تستعمل سابقا، يُلجأ إليها في حالة الطوارئ القصوى أو حدوث عطب جسيم يحول دون ممارسة المنارة الرئيسية للدور المناط بها، فعادت به ذاكرته إلى الماضي

و أسعفته بالعودة إلى صباه و شبابه، و تذكر الطريق الذي سار فيه مرارا و تكرارا مع زملائه و أصدقائه يتنزهون راجلين عند تباشير الربيع و في عز حر الصيف، عرف الآن أنه لا يفصله عن البحر سوى مسافة قصيرة، في حين بدأت السيارة الأمامية تخفض فجأة من سرعتها مؤكدة شكوك يعقوب و استنتاجاته : في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، الكاشف على يقين من خلو المكان و أن لا أحد سيزعجه في ما يأمل القيام به. و على حين غرة انطفأت أضواء السيارة الملاحَقة، فرفع يعقوب قدمه عن دواسة السرعة و ترك السيارة تسير حرة حوالي مائة متر قبل أن تتوقف على جانب الطريق المنخفض.

ابقي هنا و لا تتحركي، سأتحرى الأمر ثم أعود.

لم ترد، فنزل يمشي بهدوء على العشب متجها نحو المكان الذي اختفت فيه السيارة منذ لحظات، و لم يتجاوز المائة خطوة حتى تراءى له البحر بكل زخمه و هديره خلف صخور فوضوية تتداخل في غير تجانس و انسجام. كانت السيارة هناك خارج الطريق، فاقترب يعقوب أكثر...

السيارة فارغة و صندوقها مفتوح، سيارة عتيقة من نوع "سيتروين" و المطر ينهمر بغزارة على هيكلها المتهرئ، المتحرك مزمجرا تحت تأثير مهب الرياح و قطرات المطر محدثا ترنيمات تشبه النقر على الدفوف. لم يفوّت يعقوب الفرصة و اندس بسرعة داخل السيارة خلف مقعد القيادة مكورا كي لا يلمحه أحد، و على أهبة الاستعداد في انتظار ما سيحدث.

دقائق و يخرج يسري الكاشف بسرعة و يدلف داخل السيارة بعد أن أغلق صندوقها الخارجي، طبعا لقد أنهى عمله

الجنائزي بنجاح و تفوق، أخذ مكانه أمام المقود و أغلق الباب و شغل المحرك... اعتدل يعقوب بتأنٍّ في جلسته و قال في لهجة باردة و بالعربية كي يتأكد من أنه يفهمه : انتظر لحظة، لسنا مستعجلين إلى هذه الدرجة. انتفض الآخر بعنف مثل ديك ذبيح يحاول أن يستدير، فأضاف يعقوب محذرا بعد أن تنبه بأن الرجل يتعب نفسه كي يراه في مرآة السيارة العاكسة، لكن الظلام حال دون تحقيق مراده : يجدر بك أن لا تتحرك، أنا مسلح، ضع يديك على المقود و انظر أمامك.

ماذا تريد مني ؟ سأل المصري مستسلما.

تبادل الحديث معك، هل عندك مانع ؟

أنا لست ثرثارا، فلا تضيع وقتك.

ضحك يعقوب ملء فيه ثم عقب قائلا : سنرى ذلك و نتحقق منه، أنا أيضا ليس من عادتي إهدار الوقت.

أنت أمريكي على ما أظن، أم أنا مخطئ ؟

لقد أصبت و لا يسعني إلا أن أهنئك على فطنتك.

لهجتك هي من أوحى إلي بذلك، و الأمر لا علاقة له بالذكاء أو بالغباء.

سأله فجأة مغيّرا الحديث : أخبرني، ماذا فعلت بالبساط ؟

عن أي بساط تتحدث ؟ رد المصري محاولا المراوغة.

لقد خيبت ظني فيك و بدأت تضيع وقتي و وقتك معا، لا فائدة ترجى من تقمصك دور الأبله يا عزيزي، كنت في منزلك و رأيت و سمعت كل ما جرى، رأيتك تحمل جثة شريف و تأتي بها إلى هذا المكان و كنت أتبعك خطوة بخطوة، فما رأيك ؟

تأوه الكاشف و تنهد في عنف قبل أن يقول : إذا أنت من قام بتصفيته ؟

رد يعقوب بسرعة هادئة مصححا : لا، لقد وجدته عند دخولي في نفس الوضعية التي خبرتها بنفسك.

من أنت و ماذا تريد مني تحديدا ؟

كان بيني و بين السيد شريف خان عمل.

خيم صمت قصير... الآخر يستخلص النتائج بالتأكيد.

فهمت، (رد الكاشف) لكن أي ريح خبيثة قذفت بك إلى بيتي ؟

كنت أبحث عن شريف خان.

في بيتي ؟!

نعم، و قد وجدته.

أنت من يدّعي ذلك...

أخبرني عمن كلمك في الهاتف لحظة اكتشافك الجثة.

هذا لا يخصك... و كي أروي فضولك و لا يذهب بك خيالك بعيدا فقد جاءني تحذير بأن الشرطة قادمة، أحدهم بلغها بوجود جثة في منزلي، ارتحت الآن ؟

كل هذا بديهي و معقول لمسته بنفسي، الغريب في الأمر أن الرجل دخل بيته و هو يغني، أما دهشته عند اكتشافه الجثة فيطرح علامات استفهام... هذا ما دار في ذهن يعقوب، ثم قال للكاشف : استمع، أنا مستعد أن أصدق روايتك بأنه لا يد لك في الموضوع، بالمقابل أنت حتما تعلم بمن يريد أن يورطك و تملك على الأقل فكرة عنه ؟

أفكاري تخصني وحدي و لست مستعدا أن يشاركني فيها شخص آخر.

ردوده كلها تنم عن صلابة و عناد، لذلك قرر يعقوب أن يجرب معه بطريقة أخرى خامرت ذهنه عندما كان داخل السيارة ينتظره، الفكرة تتمثل في جعل الكاشف يتعاون معه و يكون حليفا له، لأن المصري يكون على علم و دراية بالكثير من الأسماء و الأمور بالعاصمة البيضاء في حقل الجوسسة الدولية و دهاليزها السرية.

أنت مخطئ يا عزيزي، ألم تجد عند شريف ما اقترحته عليك زوجته ؟ رد عليه بسرعة و هدوء.

التزم الكاشف الصمت لبضع ثوانٍ يعمل فكره قبل أن يتصدر للرد : أنت تعلم جيدا بأن جيوب شريف خان كانت خاوية.

لم يرد يعقوب، فقد نصب فخا محكما و ينتظر النتيجة. عاود الكاشف الكلام بعد صمت قصير : إن كنت تعرف زوجة شريف خان يمكنك أن تبلغها بأنني مازلت مهتما بما اقترحته علي.

ماذا اقترحت عليك السيدة ؟

هذا أمر لا يخصك، بلغها فقط، هي تعرف محتوى الرسالة التي حملتك.

أنا أيضا، كم هو المبلغ الذي وعدتها به ؟

مبلغ كبير، مليون دولار أمريكي.

ضحك يعقوب ثم توقف بعد أن شعر باستغراب الكاشف و استهجانه و قال : أرجو أن لا تفسر ضحكي على غير مقصده، يؤسفني أن أقول لك بأن عرضك لا يرقى إلى المستوى المطلوب.

لم يرد الكاشف، فاستمر يعقوب يقول بتأنٍّ متعمد : استمع، يمكننا في الواقع، في هذه القضية بالذات، أن نتفاهم و نتعاون معا، لأن الاهتمام مشترك و لا يهمنا من يحصل عليه، المهم من يدفع أكبر مبلغ.

رد الكاشف بعزم و تصميم : هذا مستحيل و غير ممكن.

كل شيء ممكن يا صديقي، ليست هناك عداوات دائمة، المصالح فقط هي التي تدوم و قد التقت في هذه اللحظة مصالحنا، ما الذي يمنعنا من الالتفات إليها و ترك الخصومات الإيديولوجية و السياسية جانبا و أنت ترى بأني أملك المال الضروري لإنجاز العمل و الصفقة معا بحكم امتلاكك معرفة كبيرة بالأرض و الناس و المحيط بكل تشابكات مسالكهم...

صمت المصري لحظات راح يفكر فيها ثم عاد في هجوم مضاد يقول : كل شيء يؤكد بأنك عميل عدوّ تحاول خداعي و التغرير بي، و من ثم يسهل عليك جرّي إلى لعبة لا أفقه في خلفياتها.

أصبحت المقاطعة ضرورية، فرد يعقوب قائلا :

أنت تتكلم بما لا تفقه، السيدة فرنشيسكا براندیزي تعلم من أكون فعليك بها.

دعني أضحك، يمكنك الضغط عليها و إجبارها على قول كل ما تريد بالإكراه.

هي موجودة معي، سيارتي لا تبعد أكثر من مائة متر من هنا، هي وحدها و بكامل حريتها إن رغبت في الذهاب... هل تسمي هذا إكراها ؟!

لا تزال الشكوك تعشعش و الريبة سيدة الموقف، بينما صبر يعقوب بدأ في النفاد، فقال بصوت تلمس في باطنه الخطورة : على كل حال، ليس أمامك خيار آخر، و أنا آسف أن أقول لك هذا، أنت لا تجهل طبعا بأن ما نبحث عنه تكمن أهميته و تتجسد قيمته فقط حين يكون السر في مأمن و لا يتسرب الخبر، إن عُلم فستغير الشيفرة و مفاتيحها بسرعة و يصبح الحالي في خبر كان لا يساوي علبة كبريت، لذلك أحذرك لأنني و بكل بساطة لا أثق بك و لا أستطيع المجازفة أو التخيل للحظة أنك بحت بالأمر و خضت في الموضوع مع أحد بعفوية أو مجبرا. في النهاية إن لم تقبل الآن التحالف معي سأكون مضطرا لقتلك و وضع جثتك بلطف بجوار جثة شريف خان، هل فهمت كلامي و استوعبت مرادي ؟

لم يظهر أي تأثر على يسري الكاشف، فقط اعترض قائلا : فرضا أنني قبلت بالتعاون معك، ما الضمان بأنك لن تتلاعب بي و تخدعني في النهاية عندما تحقق مراميك ؟

أجاب يعقوب متنهدا : سأنتهي إلى الظن بأنك فعلا غبي، الضمانة ما شرحته لك منذ قليل و المتمثل في الضرورة المطلقة للحفاظ على السر.

يمكنك التخلص مني بسهولة في نهاية الأمر...

رد يعقوب ساخرا و متهكما : إلى ذلك الحين، افترض أن يكون عندك الوقت الكافي كي تدرك الأمر و تعلم قيادتك و أصدقاءك الكثيرين هنا، ليس عندي أكثر مما عرضت و الخيار يرجع إليك، فهات جوابك لو سمحت و لا تضيع وقتي.

بعد تفكير عميق، هز الكاشف رأسه و نظر في سقف السيارة كأنه يستجدي السماء أن تساعده و تبارك القرار الذي سيتخذه ثم قال : حسنا، عند هذا الحد أنا موافق، و استدار يحاول أن يميز يعقوب المكور في الركن و يداه مندستان في جيوب معطفه.

هل يمكنني أن أتحرك بحرية الآن ؟ سأل الكاشف.

ضحك يعقوب و هو يرد : بالتأكيد يمكنك، كان عليك أن تفعل ذلك منذ مدة إذ لا يوجد بحوزتي سلاح.

تململ المصري و استشاط غضبا لإحساسه بالمرارة و المس بكرامته و استغبائه معا، لكنه كظم غيظه و قال : المشكلة الآن أننا لا نعرف أين خبأ شريف الشيفرة، زوجته نفسها تجهل ذلك.

هل أنت متأكد من الأمر ؟

بالطبع، هي تحتاج إلى المال و تعلم أنه لا يوجد من يمكنه أن يدفع لها أكثر من المعروض عليها.

علينا بداية بتفتيش منزلها للتأكد من ذلك.

منزلها احترق و قضت عليه النيران و أصبح رمادا، و هي الآن تقيم مؤقتا عند إحدى صديقاتها.

بالفعل، أنا نفسي من أعلن الخبر لشريف، لم يعجبه الأمر و كان يود الذهاب بمجرد حصوله على المال مقابل الشيفرة.

ربما كان يريد خداعك ؟

أكيد لا، هو نفسه اقترح طريقة مضمونة يسلم بها الشيفرة و يستلم المال، و قد أعجبتني لتوفيرها ضمانات حقيقية للطرفين.

إذا فهمت جيدا، لم يكن شريف يحتفظ بالشيفرة في بيته ؟

صحيح، ضع في بالك أن شريف كان جاسوسا سابقا تعامل مع الإيطاليين و الأمريكان و ربما غيرهم...

كانت تراودني شكوك في شأنه... ماذا لو أن الشيفرة لم تقع أبدا بين يديه و يقتصر دوره على مجرد الوسيط ؟

أنا تقريبا متأكد من أنه كان يملك الشيفرة، رد يعقوب مطمئنا.

أنا لست على هذا الاعتقاد، أظنه كان يستقي معلوماته من امرأة تدعى غوندليزا كافلو.

مدّ يعقوب أذنه، غوندليزا هو الاسم الذي نطق به شريف قبل تسليم روحه.

استمر الكاشف يقول : تعمل موظفة في شركة بحرية تقع في ساحة موريس أودان في قلب العاصمة.

هل لديها علاقة بالمخابرات الإيطالية مثلا ؟

أصولها ترجع إلى أوروبا الشرقية، أما الشركة البحرية فلا أخالها إلا واجهة تختفي وراءها خلية جوسسة و جمع معلومات خطيرة، عليك البدء من هنا فأنا لن أتمكن لأن المرأة تعرفني شخصيا و ربما رفقتها.

هل لك أن تصفها لي ؟

امرأة شابة و جميلة، ممتلئة الجسم و متوسطة الطول، شقراء، شعرها غالبا ما تسحبه إلى الخلف على شكل ظفيرة تمسكها

عادة بعقصة، أستطيع الجزم بأنها تعمل في الخفاء لصالح جهاز المخابرات الروماني و ظاهريا مع الإيطاليين...

و يخطر ببالك مثلا أن تخون الجهاز الذي يستخدمها ؟

نعم، تفعلها و لم لا، إن كان لمصلحتها و مصلحة عشيقها شريف خان.

كم هو عمرها ؟

فوق الثلاثين حسب ظني...

حقيقة، لا أحد يستطيع أن يفهم النساء، ربما وجدت عند هذا العجوز سحرا لم تجده عند غيره من شباب هذه الأيام، هل تعرف أين تقيم ؟

في شقة مفروشة، شارع ميشلي، سأسجل لك كل البيانات إن أردت.

أكون شاكرا، ألقي عليها نظرة خاطفة ثم أمزق الورقة و أرميها.

أخرج الكاشف ورقة و قلما من جيبه، أشعل ضوء سقف السيارة كي يرى جيدا و دوّن المطلوب ثم سلمه ليعقوب و هو يتأمله في فضول.

شكرا، (قال يعقوب) هل تريد أن نلتقي غدا بعد الظهر نقيّم الموقف و تطلعني على حصيلة المعلومات المستجدة ؟

لا مانع عندي، في حانة "كارفور" هل تعرفها ؟ و لما لمس حيرته أكمل يقول : 1، شارع لافييت، إن تعذر عليك المجيء كلمني على هذا الرقم (5673) أما رقمي الشخصي فهو (2375) احفظهما جيّدا.

شكرا، أستأذن الآن و إلى الغد.

و هو كذلك، ليلة سعيدة، رد الكاشف.

سجل يعقوب رقمي الهاتف و انصرف مسرعا كأن شخصا يطارده إلى المكان حيث تنتظره سيارته و فرنشيسكا التي التزمت بأمره و لم تتزحزح كما يبدو عن مكانها. بادرته و هو ينطلق بصوت نبراته قلقة : بدأت أتوجس خيفة أن يكون قد أصابك مكروه.

أطلق يعقوب ضحكة مجلجلة قبل أن يرد : أشكرك على قلقك علي.

انطلقت أضواء السيارة و هو يستدير نصف دورة، لاحظ عندها فقط بأن وطأة الأمطار قد خفت كثيرا.

هذا الكاشف رجل طيب، (قال و هو يزيد في سرعته) لم أجد صعوبة تذكر للتفاهم معه و...

قاطعته غير مصدقة : هل فاتحته في الأمر ؟

بكل تأكيد، هو يظن أن شريف لم يملك يوما الشيفرة، ما رأيك أنت ؟

هزت كتفيها استهانة و صكت أسنانها : أف... شريف كانت فيه عيوب كثيرة، لكن للشهادة لم يكن يراوغ في الأعمال، تهمه سمعته كثيرا، يمكنك تصديقي.

أصدقك، لأن هذا المصري يبدو لي غريب الأطوار فقد روى عنك أشياء لا تصـ...

أي أشياء هذه التي رواها عني هذا الملعون ؟ و اعتدلت في جلستها.

تظاهر بالإحراج و التردد ثم قال بعد لأي : أعفيني، لا أستطيع الإعادة، أشياء غير محببة.

أنت تكذب و لا شك... ردت متوترة و غاضبة يكاد الشرر يتطاير من عينيها.

حسنا، (رد بسرعة) أنا آسف ما كان يجب أن أكلمك في هذا.

لم ترد كما كان يتوقع، كان يأمل أن يدفعها غيظها أن تقص هي الأخرى أشياء عن المصري، لكن ربما هي الأخرى لا تعرفه بما فيه الكفاية.

بدأت تظهر و تتراءى أوائل منازل المدينة عندما كانت عقارب ساعة السيارة تشير إلى الثالثة صباحا و الشوارع خالية تماما.
سألها يعقوب : هل تودين أن أوصلك إلى وجهة معينة ؟

لا أدري أين أذهب... و لا أريد العودة إلى منزل صديقتي...

فعلا هو تهور و مجازفة غير محمودة العواقب، إذ يحتمل تعرضك للاختطاف بدورك... إلا في حالة واحدة : أن يكون زوجك قد خبأ الشيفرة هناك.

لا، هذا مستحيل، كان يتخوف من أن أصل إليه، أدرك بحدسه أنني أراقب حركاته و أعدّ عليه أنفاسه.

لم يعلق يعقوب، لكن حياة الزوجين بدأت أخيرا تتوضح في ذهنه : إنها تكره زوجها، و أكبر دليل أنها لم تسأل مجرد سؤال عنه أو بالأحرى عن مصير جثته مع علمها بوجودها في سيارة المصري، لم تكن مهتمة بنهايته المأساوية و خاتمته الأليمة و هي على بعد أمتار منه.

أين قررت الذهاب سيدتي ؟ سألها بلطف مبالغ فيه.

في استسلام المقهور المغلوب على أمره و العاجز عن اتخاذ قرارات، ردت هامسة : لا أدري... خذني حيث تريد.

في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل لن تجدي غرفة بالفندق، أضاف بعد تفكير : إن راقك اقتراحي يمكنك أن تأتي معي إلى فندقي، غرفتي بها سريران، وضع مؤقت طبعا حتى نجد حلا لهذه المعضلة.

ظهر الارتياح على محياها و ردت فرحة : شكرا لك، معك على الأقل أكون في مأمن من المتربصين.

رد عليها بصوت خافت كالهمس : هذا يتوقف على الأسباب الحقيقية.

صمتت و لم تعقب، بينما بدأت منارة الميناء تتراءى قريبة أكثر فأكثر.

كم مر على زواجك من شريف خان ؟ سألها و هو يدرك بأن الخوض في الموضوع يثير أشجانها و مكامن أحزانها، لكنه يود أن تخبره بالقصة منذ بدايتها.

عشرون سنة، ردت في مرارة.

كيف وقعت في غرامه ؟

لا أدري كيف، و طالما سألت نفسي و طرحت عليها نفس السؤال، أكيد كنت لحظتها فاقدة الوعي، غير مدركة النتائج الوخيمة التي تنتظرني لاحقا.

كيف كانت علاقتكما الحميمية ؟

علاقة عادية مثل جل الأزواج.

هل كان يمتلك ميزة خاصة في مخاطبة الجنس اللطيف و التأثير عليه ؟

أما في هذه... أقول نعم، لسانه الحلو يسلب به القلوب المتحجرة و يسحر بأساليبه العسلية الملتوية رحيق سحايا عقول النساء و الرجال على حد سواء.

لمح الفندق عن بعد فركن السيارة في جهة غير بعيدة عنه و توجها سيرا على الأقدام. سلمه عامل الاستقبال المفتاح و لم يجرؤ أن يسأله إن كانت المرأة زوجته أم لا ، لأنه تسلم دوامه في المساء ؛ العادات و التقاليد لا تزال راسخة تطبق بحذافيرها إذا تعلق الأمر بالنساء و الأعراض في الجزائر. عند دخولهما الغرفة شعر يعقوب بالتردد الذي ساورها ، لم يعر الأمر اهتماما و تقدم ينزع معطفها يعلقه في خزانة الملابس الحائطية الموجودة في البهو. وجدها في الغرفة تقف حائرة بين السريرين، فستانها يحتضن جسمها البض الشهي في حنان، كل ما فيها يصرخ بالأنوثة و جاذبية مغناطيسية ينجذب إليها الرجال من دون مقاومة أو اعتراض على شاكلة ملكة النحل و الذكور. بدوره نزع معطفه و قبعته متسائلا بينه و بين نفسه إن كان يجدر به أن ينام في نفس الغرفة مع غادة كل مفاتنها تنطق بالإغراء الشهواني و وحشية تفجر رغبة الاحتواء الجامحة، لكن من الصعب على كل ذي ذوق سليم أن يطلب من أرملة ثكلى مثل ما يدور في رأسه و زوجها لم يمض على مفارقته الحياة سوى ساعات معدودة... أخرجه من أفكاره تلك شروعها في الكلام :

هل يمكنك أن تقرضني منامة أو ما يشبه لو سمحت ؟

و لو، بكل ممنونية، لكنها ليست مفصلة على قدك.

لا يهمني أمرها، المهم أن أقضي بها الليلة.

أخذ منامة و سلمها لها، فأخذتها و ذهبت مباشرة إلى الحمام. استغل يعقوب الظرف و أخرج محتويات جيوب شريف يضعها فوق الطاولة و خرج يعلق معطفه لأنه أدرك أنها ستبقى مدة ليست بالقصيرة داخل الحمام تهيئ نفسها و تعتني بإصلاح مظهرها العام. بدأ العد : حزمة مفاتيح، أوراق إثبات الهوية، دفتر صغير، قداحة و علبة سجائر فرنسية، تذاكر مسرح و متاحف، حافظة نقود و أنبوبتا أقراص منومة و مهدئات. لما فتح حافظة النقود وجد سبعة آلاف دينار، وصلا بريديا، زجاجة عطر صغيرة، بطاقات زيارة تحمل اسمه... و هو يعيد الأشياء إلى وضعها، أخذ مذكرته و فتحها فوجد ملحوظات يومية لكنها غير مفهومة، كتبها شريف برموز سرية خاصة به لتفادي وقوعها في أيدٍ غريبة. هو نفسه يعمل بنفس المبدأ و يطبق نفس الطريقة إذا تعلق الأمر بأشياء شخصية هامة. دفتر العناوين يمكنه أن يشي بأمور هامة، لكن هذا يتطلب منه اهتماما خاصا. وجد صورة في جيب جانبي صغير، صورة لشقراء جميلة، تسريحة شعرها إلى الخلف، مكتوب على ظهرها : إلى شريف، روحي و حياتي، غوندليزا. وضع الصورة في جيبه، ثم جمع غنائمه و وضعها في حقيبته و أغلق عليها بالمفتاح. بدأ بنزع ثيابه و قد أحس بالتعب يغزوه و يسيطر على جسده... و على حين غرة ظهرت فرنشيسكا مرتدية سترة المنامة فقط، يشدها إلى الأمام نهداها الصلبان يتصدران طليعة صدرها مثل مقدمة جيش تستطلع خطوط العدوّ الأمامية، ساترة نصف فخذيها البلوريتين، مبرزة ساقيها الممتلئتين في تناسق رائع

و بديع يأخذ بالألباب و يمنع النوم من طرق الأجفان. أومأت إلى السريرين و سألته : أيهما ؟

أشار إلى السرير القريب من الجدار الذي لا يزال على حاله و لم يستعمله.

لامسته عند مرورها إلى السرير فشعر بكهرباء تصعق كامل جسمه و بالكاد تمالك نفسه و هو ينظر إليها تندس في أغطية سريرها... ماذا تخبئ هذه الغادة من كنوز دفينة يتوق أن يكتشفها بنفسه، أكيد ما تخفيه هو الأفضل و الأروع من الظاهر على السطح... قال هذا في نفسه و نهض يسرع إلى الحمام بعد فشله في مقاومة الرغبة الجامحة التي تجتاحه، يرش الماء البارد على رأسه و وجهه و يعود إلى البهو يسحب قنينة خمر صغيرة من جيب معطفه يعب منها بشراهة قبل أن يغلقها و يعيدها مكانها، ثم أشعل سيجارة يسحب منها أنفاسا عميقة تهدئ قليلا من روعه ليكبت جماح شهوته و يمسك بعنان نيرانها المتأججة التي تطل برأس فتنتها كلما أرسل بنظره إلى النائمة على بعد أمتار منه.

استيقظ يعقوب باكرا و قد استرجع كامل لياقته و حيويته، بينما فرنشيسكا لا تزال تغط في نومها و بطانيتها مسحوبة إلى الأسفل جزئيا عنها كاشفة جانبا من جسدها الشهي تحت رحمة أعين يعقوب تفترسه بوحشية لذيذة... تقدم من السرير و قام بتغطيتها يقي نفسه و يطرد الأفكار التي راودته الساعة، و أخيرا تنفس الصعداء و ذهب فورا يأخذ حماما باردا. ارتدى ملابسه و خرج بهدوء من الغرفة، في الخارج كانت الرياح قد هدأت لكنّ ضبابا كثيفا و باردا يعم المكان. استقل

سيارته و انطلق بينما مناظر جسد فرنشيسكا عادت تتسارع أمامه، صور بانورامية تذهب و تعود مركزة على فخذيها و أردافها...

أكيد، (قال في نفسه) هذه المرأة تمتلك ملَكة خاصة تميزها عن غيرها من بنات جنسها...

كان من الحكمة ربما و من الأفضل له أن يقطع الاتصال معها، لكن حاجته لها في أمور أخرى تتعلق بموضوع الشيفرة تجعله يتمسك بها و لا يستغني عنها رغم عدم ثقته بها، مفارقة عجيبة و تناقض غريب، لكنه مجبر في الوقت الراهن على تبني الاختيار الثاني.

توجه إلى ساحة "موريس أودان" حيث شركة النقل البحري، وجد مكانا ركن فيه السيارة و ترجل قاطعا المسافة الفاصلة سيرا على الأقدام. لم تكن من الخارج تختلف عن بقية شركات النقل البحري بإعلاناتها و ملصقاتها الإشهارية و بياناتها الدعائية مع مجسمات سفن و بواخر و أسعار تحفيزية و إغرائية نحو وجهات و موانئ عالمية تتحدى كل منافسة، لكن المهم بالنسبة له ليس الظاهر إنما ما يجري بالداخل في الخفاء كما أخبره المصري إن كان صادقا... لم يكن في حاجة إلى سحب صورة غوندليزا من جيبه، ملامحها محفورة في ذاكرته لا يمكنه أن ينساها بسرعة، لم يتردد و دخل، إنها قاعة كبيرة و واسعة أكثر مما تخيلها قبل دخوله، واجهته طاولة خشبية وضعت عليها بعض الإعلانات الإشهارية، بريقها يخطف الأبصار من أول وهلة، نقشت عليها صور بواخر و سفن و بحارة تعود إلى العهود الرومانية تمتد إلى اليسار بطريقة غير متوقعة، و في نهايتها

ستارة، لا بد أن وراء الستارة بابا أو ما يشبه لأنها لم توضع عفويا أو ارتجالا، لا بد من وجود سبب وجيه يودّون إخفائه، شيء لا يجب أن يراه الغرباء... هذا ما خطر ببال يعقوب.

المتواجدون بالوكالة لا يزيد عددهم عن ثلاثة زبائن لا غير. و من موقعه واقفا قرب باب الدخول، تمكن يعقوب من أخذ فكرة سريعة عن أحوال الوكالة بيسر و راحة، و الأهم من ذلك كله، من دون أن يلفت الانتباه أو يثير فضول العاملين، أربعة موظفين : رجل كبير في السن تظهر على ملامحه الغلظة و القسوة عكس الشابات الثلاث بالطيبة البادية على محياهن و الابتسامات الرائعة التي لا تفارقهن مطلقا ؛ الغائب الحاضر هو غوندليزا بالتأكيد. لمح على الجدار سهمين أحدهما كتب عليه "الإدارة"، ربما عشيقة شريف خان تتواجد في أحد المكتبين.

كي لا يثير الريبة طلب بعض البيانات حول وجهات بحرية من موظفة ثم انصرف، وجد أمامه في الجهة المقابلة مقهى فدخل على الفور متظاهرا بقضاء حاجة، ثم سأل النادل عن التليفون فوجهه إلى الطابق الأرضي، و هناك طلب الوكالة البحرية فردت عليه امرأة، و ردا عن سؤاله أخبرته بأن الآنسة غوندليزا غائبة و لن تعود قبل عدة أيام، إن رغب في ترك اسمه أو هاتفه ستبلغها بالأمر حين تعود.

شكر يعقوب المرأة و أخبرها أنه ليس مستعجلا و سينتظر عودتها و قطع المكالمة، ثم ركب سيارته و توجه رأسا إلى شارع ميشلي، لم يبق أمامه إلا الذهاب إلى عنوان شقة غوندليزا كما دوّنه المصري له. المظهر الخارجي للعمارة يوحي من أول نظرة بالثراء و الرفاهية رغم واجهتها الدالة على قدمها و زوال

شبابها، هيئتها تدل على وجود شقتين فقط في كل طابق، جذبت انتباهه شقة في الدور الأول شباكها مغلق. لقد نسي المصري أن يعيّن الدور الموجودة به الشقة و لا يمكنه أن يطرق أبواب كل الأدوار، سيبدو ذلك سخيفا و مستهجنا بل مثيرا للريبة و الشكوك. دخل مقهى قريبا و طلب المصري في الهاتف، و لا أحد يرد في الجانب الآخر... احتار في أمره و في ما يفعل و وقف يفكر إذا كانت غوندليزا فعلا مسافرة كما بلغه مكتبها، عندها لا يمكن أن تكون الشقة المغلقة الشباك بالدور الأول سوى شقتها. دلف بهدوء داخل العمارة، و مر بسهولة من أمام حجرة البواب، يرتقي بتأنٍّ درج العمارة في غياب المصعد، ما يعني أنه معرض بأن يفاجأ في أي لحظة و على حين غرة. دق الجرس عدة مرات و انتظر لحظات، ثم أعاد الكرة أكثر من مرة، و لما يئس من الرد تأكد له أنها هي الشقة التي يستهدفها، فأخرج بسرعة رزمة المفاتيح التي وجدها في جيب شريف خان و بدأ يقارنها مع ثقب القفل إلى أن عثر على مفتاح ملائم فأدخله، و صدق ظنه : إنه المفتاح المناسب، لم يجانب الصواب فشريف خان كان عنده مفتاح بديل ليأتي شقة عشيقته متى شاء و أراد. دخل و أغلق الباب برفق فوجد نفسه في رواق مظلم، ثم فتح باب غرفة بالصدفة أمامه فتسربت أشعة الضوء من خلال مصراعي النافذة، و لما تأقلمت عيناه جيدا مع العتمة التي تلف البيت أخرج مصباحه الصغير و مر يلف الغرف يأخذ فكرة عامة عن المكان : ثلاث غرف، حمام، مطبخ، خزائن حائطية ؛ شقة كبيرة عن امرأة عازبة حتى مع عشيقها، هذا أول ما تبادر إلى ذهنه... المصري أخبره أنها مؤجرة مفروشة و هو ما يبدو للعيان، شقة تصلح أن يعيش فيها

كبار السن بستائرها الفاقدة بريقها و لمعانها، بأرائكها القديمة و مقاعدها العتيقة مع ركام من الأثاث المتآكل و المتهري غير النافع يأخذ حيزا هاما من المكان لا يستحقه، يظهر كذلك أن صاحب الشقة قد سافر كثيرا و تنقل في عديد البلدان البعيدة أين أحضر منحوتات هندية و فرعونية، تماثيل بوذية و إغريقية رومانية موضوعة بإتقان فوق رفوف داخل خزانة زجاجية كبيرة للزينة و حمايتها من عبث الأيدي، تأملها يعقوب برهة فوجدها مقرفة تثير الاشمئزاز و الخوف. أول ما شرع في البحث عن الصندوق الخشبي لمح ما يشبهه داخل خزانة، فأخذه و انهمك يفرغ محتوياته، شريف و قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة قال : « الصندوق عند غوندليزا ». رسائل قديمة اصفر لونها، بطاقات بريدية قديمة العهد تعود إلى بداية الخمسينات، كتاب رحلات و أسفار و أشياء تذكارية تعود إلى الحربين العالميتين... الآن الصندوق فارغ و كل محتوياته مرمية على الأرض أمام يعقوب الجاثي على ركبتيه و لا شيء يشبه من بعيد أو من قريب الشيفرة. بإحباط شديد، فحص الصندوق نفسه، و قد صنع من خشب الأبنوس يغلفه من الداخل نسيج أحمر مهترئ، قلبه مثنى و ثلاث جسا و سبرا لأغواره بدقة، أزال زينته و زخارفه الخارجية على أمل أن يجد فجوة سرية فخاب ظنه، و رجح أن شريف لم يكن يملك الشيفرة على شكل كتاب كما هي العادة عند ضباط الاتصالات الحربية ؛ شريف خان محترف و يعرف قواعد العمل السري و أبجدياته، لذا يكون حتما قد قام بتصوير الوثيقة أو إعادة كتابتها لأن كتب الشيفرة محدودة و محروسة، و ضياع أحدها لا يمكن أن يمر مرور الكرام و يؤدي إلى كشف المستور و حقيقة من قام بذلك... حلل يعقوب الموقف ثم عاد يفحص

المحتويات من جديد. إن كان شريف قد صور الشيفرة فهذا يتطلب من دون أدنى تفكير وجود "ميكروفيلم" ؛ ألمانيا النازية و حليفتها إيطاليا الفاشستية أثناء الحرب العالمية الثانية كانتا السباقتين في استعمال هذه الطريقة العبقرية الخارقة بلا منازع، إذ يمكن تقليص صفحة كاملة في حجم نقطة آلة كاتبة و من ثم إدراج الفيلم المصغر بالضبط في مكان النقطة على ورقة مرقنة، طريقة مكنتهما لزمن طويل من التواصل مع عملائهما في شتى أصقاع العالم و بالخصوص في أوروبا و أمريكا. لم يجد أي نص مرقون في المحتويات رغم فحصه كل قطعة بتأنٍّ و دقة متناهية، فاستشاط غضبا و سخطا لكنه تمالك نفسه و أعاد ترتيب الأشياء كما وجدها داخل الصندوق و وضعه في الخزانة. إن كانت غوندليزا قد سافرت بالأمس كما توحي به حالة الشقة تكون بالتأكيد لا تعلم بأن عشيقها شريف خان قد قتل، و مادامت تجهل الأمر فإنه لا يوجد سبب معقول يحملها على أخذ الشيفرة معها مع خطورته على حياتها... بالطبع إن كان شريف يثق بها و أخبرها فعليا بالمكان الذي خبأ فيه الشيفرة، لأنه و لحد الآن يجهل كليا درجة تواطئهما و حدود متانة علاقتهما و مستويات الثقة المتبادلة بينهما. واصل البحث و التنقيب في كل ما تقع عليه يده من علب و حقائب صغيرة دون فائدة، ثم عثر في غرفة النوم على رزمة من الرسائل مكتوبة بالفرنسية ممضاة "ش خ"، إنه خط شريف خان، لا يمكنه أن يخطئه مهما طال به الزمن، و لما تصفح البعض منها وجد محتواها يدور حول العشق و الغرام... لكن لفت انتباهه بعض الجمل الواردة فيها و التي تلمح بتعبيرات مبطنة عن سفر قادم إلى جزر بعيدة ! استمر على تلك الحال

و ذهب به الأمر إلى حد فحص الكتب الكبيرة النائمة فوق إحدى الرفوف عندما نبهته غريزته الأمنية و حدسه الثاقب إلى خطر داهم، فأطفأ مصباحه و أخذ عصاه بيده و قفل راجعا إلى البهو في اتجاه الباب الخارجي، لأن أذنه التقطت حركة مريبة... شخص ما يحاول فتح الباب بآلة حادة ! ماذا يفعل الآن و كيف ستكون ردة فعله ؟ تنبه إلى أن الوافد حديثا دخيل مثله و إلا ما حاول التسلل بتلك الطريقة... يوجد باب ثانوي بالمطبخ يمكنه استعماله للفرار متى شاء، لكن فضوله العارم و رغبته الجامحة في معرفة هوية الزائر الجريء كبست عليه و أوقفته، فأسند ظهره للحائط مركزا عينيه على الباب و تحكم في تنفسه و توقف عن التفكير كي لا يتفطن الزائر لوجوده احتمالا أن يكون من نوعية الرجال التي لها ملكة الحدس و التنبؤ جراء تعوّدها العيش في مثل هذه الأجواء الخطيرة على شاكلة الحيوانات المفترسة. انقطعت الحركة فجأة و تناهت إلى سمعه أصوات خطوات تصعد السلم و أخرى تهبط، و بعد ثوانٍ عادت محاولة تكسير القفل بقوة أشد من السابق.

وجد يعقوب أن الأمر قد طال أكثر مما يجب و قرر أن يذهب يفتح بنفسه في نفس اللحظة التي دار فيها لسان القفل مستسلما، تحرك الباب و دار في اتجاه يعقوب الذي رفع عصاه إلى مستوى كتفه مستعدا ليضرب، و ظهر خيال أسود يرتدي معطفا مشمعا يضع فوق رأسه قبعة يتسلل في هدوء داخل الشقة ثم يستدير يغلق الباب، لطف من الزائر أن أعطى ظهره ليعقوب الذي انهال عليه في رمشة عين بضربة هائلة خلف رأسه و هو يهم بترك مقبض الباب، ضربة احترافية من دون هامش خطأ جعلت الرجل يصدر تأوها حادا و أنينا مكتوما قبل

السقوط على ركبتيه مثل الجمل لينهار على الأرض كشجرة فصلت عن جذعها.

لما اطمأن بال يعقوب، تفقد الباب و أغلقه جيدا، لا تهاون عنده في هذه الأمور، أنار مصباحه الصغير و قلب بقدمه الهيكل المطروح أرضا...

اللعنة ! قال في دهشة و تبرم، كيف لا... و طريح الأرض ليس سوى يسري الكاشف ! رفعه عن الأرض قليلا و حمله على كتفه و توجه به إلى الحمام و فتح حنفية الماء البارد على رأسه بعد نزع قبعته، شدة الضربة حالت دون المصري و الاستفاقة بسرعة، و عندما استرد أخيرا وعيه مكث مذهولا شارد الذهن لا يلوي على شيء كأنه في عالم آخر، لم يسع يعقوب إلا أن يسقيه قدحا من الفودكا البولونية قوية المفعول وجدها في إحدى الخزائن، و بعد لحظات انتفض المصري عائدا من بعيد كمن استيقظ لتوه من سبات عميق يحدق محملقا ببلاهة في كل ما حوله، و ما أن لمح يعقوب حتى صاح متأوها : آه ! لقد وصلت في الوقت المناسب، ألف شكر لك، ماذا فعلت باللعين الذي صرعني ؟ يظن سيء الحظ أن يعقوب هو من خلصه من بين براثن مهاجمه.

في الواقع أنا هو اللعين الذي صرعك... لم أعرفك في الظلام مع ملابسات الظرف، أرجو منك المعذرة و تقدير موقفي.

بهت الكاشف و فتح فمه مثل سمكة أخرجت لتوها من الماء و لم يتفوه بكلمة نابية يشجب ما تعرض له، قال فقط يسأل : إذًا كنت هنا ؟

ما يقارب الساعتين، و قد سمعتك و أنت تحاول فتح الباب بالقوة.

جميل، أنت لم تضيع وقتك كما أرى... رد الكاشف معاتبا.

عفوا، (رد عليه يعقوب) كان لزاما عليك أن تخبرني بالأمر مسبقا، حاولت الاتصال بك و لم أفلح لأنك لم ترد، أخبرني الآن أي ريح طيبة قذفت بك إلى هنا ؟

أخرج الكاشف سيجارة من جيبه و أشعلها، سحب نفسا عميقا و عيناه لا تفارقان يعقوب يتأمله قبل أن يرد على سؤاله : لم أكن أدري كيف أتواصل معك، أنت لم تزودني بعنوانك أو رقم هاتفك، و بدوري لم أرجع إلى البيت خوفا من الشرطة و مضايقاتها، لهذا لم أرد عليك عندما هاتفتني، هل رد عليك أحد أو أخبرك بأنني غائب ؟

لا أحد رد علي ! أجابه يعقوب باستغراب.

إما أنهم لم يأتوا أو لم يمكثوا طويلا بالمنزل، قال ذلك ثم انتصب فجأة واقفا و ثبت نظره في يعقوب و أكمل : لم أضيع وقتي هباء فقد كرسته للشابة غوندليزا و توصلت إلى أنها تعاني من مشاكل جدية ما دفعهم إلى الشروع في تهريبها هذا المساء على متن باخرة شحن متوجهة إلى رومانيا، و لا أريد أن أتخيل لحظة أنني مكانها.

خامر ذهن يعقوب أنه استوعب قليلا ما يحدث، يكون قد وصل طيش العشيقين إلى رؤساء المرأة و جذب انتباههم تهورهما، بالأمس فقط كانت موضع ثقتهم إلى حين اختطافهم شريف و تصفيته ؛ العميل الفرانكو- جزائري السابق تم التخلص

منه بسهولة و كما جرت العادة يرحلون مواطنتهم إلى الوطن لخيانتها الأمانة و هناك تتم محاسبتها، الهدف طبعا من وراء كل ذلك هو عدم لفت الأنظار إلى خليتهم و نشاطهم الخفي، و رميا عصفورين بحجر واحد وضعوا الجثة في منزل المصري و هم على علم بالقطع بنشاطه و عمله كعميل سري ثم قاموا بإبلاغ الشرطة، و لسوء حظ هذه الأخيرة وصلت متأخرة قليلا و سقط الفصل الأول من السيناريو في الماء في حين يستمر تنفيذ الفصل الثاني على قدم و ساق. إن صدقت معلومات المصري فإن المرأة ستغادر الجزائر هذا المساء، في حين هي تمثل الأمل الوحيد في متناوله كي يضع يده على الشيفرة.

لنخرج من هنا، (قرر يعقوب) و لنذهب إلى مقهى أو حانة فقد خطرت ببالي فكرة أريد أن أكلمك بشأنها.

خروجهما كان سهلا مقارنة بطريقة دخولهما، علت يسري الكاشف الدهشة و هو يرى يعقوب يمتلك مفتاح الشقة، لكنه تجاهل الأمر و لم يعلق أو يسأل. قطعا الطريق و دخلا الحانة المقابلة و استقرا في ركن هادئ بعيدا عن الأعين الفضولية و المتلصصة كما هي العادة السارية في المجتمعات المتوسطية. لمس الكاشف رأسه و تأوه من شدة الألم : أحتاج إلى مشروب قوي. اقترح عليه يعقوب مشروبا قويا و أثره فوري، مزيج من الفودكا و البراندي يضاف إليه قليل من الدجين و الجعة.

لأجربن تركيبتك السحرية لأقف على مفعولها السحري الذي تتبجح في مدحه و إطنابه.

طلب يعقوب المشروبات من النادل و بدأ يكلم يسري الكاشف يشرح فكرته بصوت هامس : هذا المساء... الجو

مناسب للقيام بعملية من النوع المنتظر، الضباب ازداد كثافة عن الصباح و عند هبوط الظلام تعاظم تراصه حتى يعز على الشخص أن يميز لأكثر من مترين أمامه، المصابيح تحولت إلى كرات صفراء، نورها باهت، معلقة في السماء مثل رؤوس المشنوقين. عاين يعقوب ساعته ثم نظر إلى يسري قائلا : آن لنا أن نتحرك فهيا بنا...

حسنا... رد الكاشف بهدوء لقناعته الشخصية بوجاهة خطة يعقوب التي لم تكن لتخطر بباله هو بذاته.

عند مرورهما بميدان السيدة الإفريقية أين تتربع الكنيسة الكاثوليكية بهندستها القرن أوسطية الرائعة، تهيمن في إجلال على المكان تسبغ عليه رونقا أسطوريا و عظمة خالدة، ألقى يعقوب نظرة على فندق "جان دارك" أين كان يلتقي في شبابه بفتاة نصرانية أحبها و أحبته إلى حد الهوس، حال دون إتمام تتويجها التعصب الديني الكريه حتى كادت تؤول نتائج إسقاطات تلك العلاقة البريئة إلى ما لا تحمد عقباه بين الطائفتين اليهودية و المسيحية، لو لم يتدخل الحكماء من الجهتين و شيوخ من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لوأد الفتنة في مهدها و إخماد نيران الثورة و الانتقام المتأججة في صدور الفريقين. لما تذكر هذه الحادثة أحس بوخز في قلبه و غصة مرة في حلقه، كيف لا و نتاجها المأساوي لا يزال منحوتا في ذاكرته، فقد انتحرت الفتاة مفضلة الموت غرقا في البحر على الموت هما و كمدا بعيدا عن حبيبها و احتجاجها الصارخ على كل من نصب نفسه وكيلا عن السماء باسم الأديان التي شرعها الله رحمة و خيرا لعباده في الدارين، لكن يأبى هؤلاء

إلا خلق الفوارق و سن العداوات المقدسة يعاكسون كاذبين و مدلسين باسم تبريرات واهية و حجج ضعيفة إرادة خالق الكون في إرساء الحب و بسط السلام و الإخاء و المساواة بين جميع المخلوقات بتعدد مشاربها و اختلاف عقائدها لتحقيق مآرب دنيوية ميكيافيلية لن ترى النور إلا بزرع الريبة و نشر الوساوس و الأوهام بين الخلق من ذوي النفوس المريضة و العقول المتخلفة، بينما تعاليم الأديان نقية خالصة بمزاياها و صفاتها تنزل منزلة الرضا و القبول في قلب كل إنسان و لا يستطيع كائن من كان مهما أوتي من علم و تفقه أن ينكرها بينه و بين نفسه، و في أحلامه و رؤاه، لما تتمتع به من عظمة و إبداع بكل أسرارها الربانية و جمال فتنتها الساحر، لؤلؤة مكنونة تلتقطها كل نفس سوية فطرها الله على الطاعة و حب الخير للجميع. كان لهذا الحادث أكبر الأثر في تحول حياته و حمله على الهجرة و مغادرة الجزائر، و لولاه لكان ربما لا يزال يقيم في المدينة التي ولد بها و احتضنته و أحلامه صبيا و شابا يافعا، مدينة أحبها و عشقها إلى حد النخاع و تعرف في أحضانها قلبه و اكتشف لأول مرة لوعة الحب و خفقان القلب و ما يصاحبهما من أحلام وردية و إبحار في ثنايا طبقات السحاب العليا... برغم مرور السنين لم يتمكن الزمن بكل إرهاصاته أن يمحو من ذاكرته و وجدانه "ماري فرانس" التي لم تستطع كل نسوة العالم مجتمعة أن تنسيه فيها، و لا غرو في ذلك، فللحب الأول الصادق مكانة خاصة تظل ملازمة لصاحبها طيلة حياته.

انعطفا إلى اليمين بعد أن لاحظ المصري أمامهما سيارة لا تبعد لأكثر من خمسين مترا تتوقف فجأة و ينزل منها رجل

ترافقه امرأة، سيارة فورد أمريكية كبيرة لا يزال بريق طلائها المعدني الأسود يلمع مثل نجوم الفجر الوضاح، رزمة مفاتيح تتدلى من ضمنها مفتاح التشغيل ترك في المكان المخصص له ؛ نظر الكاشف يمنة و شمالا يتأكد من عدم عودة العشيقين خلسة، فلم يلمح سوى رجل عجوز خرج فجأة من خلال الضباب القرمزي يسير على مهل.

انطلق الآن... هذه فرصتنا السانحة ! طلب من يعقوب مستعجلا. لف هذا الأخير حول السيارة و لما لم يلحظ ما يريبه فتح الباب و تسلل بسرعة البرق يأخذ مكانه أمام المقود و يشغل المحرك الذي استجاب على الفور، و بمجرد أن بدأ يستدير أشار للمصري الذي قفز إلى جانبه و أغلق الباب لينطلق بكل سرعة المحرك الهائلة لكن من دون تهور أو لفت انتباه. قطعا من جديد ميدان السيدة الإفريقية مرورا بشارع فرعي ثم صعودا في شارع ضيق يطوق المدينة القديمة لم يجد يعقوب صعوبة للتعرف عليها ، إنها قصبة الجزائر الشهيرة التي يفوح منها عبق تاريخ الحقبة العثمانية و مآثر رجاله العظماء من أمثال بربروس و بابا عروج و الداي حسين و قصة مروحته الشهيرة مع قنصل فرنسا التي دخلت التاريخ. شرعت السيارة تنزل فجأة بسرعة كبيرة أجبرت يعقوب على تخفيف سرعته قليلا لدقائق تلافيا لخطر اصطدام أو انقلاب، لينحرف بعدها يسارا فيجد نفسه في طريق حديث و واسع يقوده مباشرة إلى البريد المركزي و من ثم إلى الواجهة البحرية حسب لوحة الإشارة المثبتة أعلى يمين الرصيف.

هل كل شيء على ما يرام ؟ سأل الكاشف قلقا.

رد يعقوب ضاحكا : و أخيرا نطقت، كدت أنسى أنك جنبي، كله تمام أفندم كما تقولون عندكم في مصر، لحد الساعة كل شيء يسير كما خططنا له، السيارة كما ترى حديثة العهد، كل أجهزتها تؤدي وظائفها بروعة و تستجيب بسرعة للأوامر الصادرة، سنحاول قدر المستطاع أن لا نتلفها حتى يجدها صاحبها كما أخذناها منه. ظهرت فجأة إلى يسار السيارة المحطة البحرية و برزت ملامحها من خلال الضباب مثل امرأة مبرقعة تظهر مفاتنها شاحبة باستحياء أو مارد خرج للتو من قمقمه الأسطوري.

يعقوب الآن ينفذ تعليمات الكاشف و توجيهاته بدقة حتى يمكنه ركن السيارة في مكان قريب، مظلم و خفي عن الأنظار لا يسترعي الانتباه خشية أن يكون مالك السيارة قد بلّغ الشرطة، و إن عثرت عليها ستتعثر خطته و يكون ذلك سببا في إخفاقه و وأد ما سطره قبل بدايته. تسلم يعقوب من الكاشف مسدسا ثقيلا، أخذ يفحصه بعناية، فوجده مسدسا آليا من نوع "ماغنوم 44".

احذر، (صاح به الكاشف محذرا) توجد في حشوته بضع رصاصات.

عندما تحقق من وجود زر الأمان في موضعه دسه بسرعة في جيب معطفه...

أول من نزل كان الكاشف تاركا بابه مفتوحا، في حين لمح يعقوب أنوار الباخرة في الجهة الأخرى من رصيف الميناء و هي تتأهب للخروج من حوضها و الإبحار. إن كانت المعلومات التي حصل عليها الكاشف صحيحة فإنه لا توجد صعوبة تذكر،

و إن كان مخطئا... عندها الله وحده من يعلم مآلات الأمور. ارتأى يعقوب – من شدة حرصه – أن لا يحمل معه أوراقه الثبوتية أو أي وثيقة تدل على هويته الحقيقية، و في حال جرت الأمور عكس التوقعات و تم القبض عليه سيختلق اسما وهميا و يلتزم الصمت، يحاول أثناءها الاتصال بأحد أصدقائه بالسفارة الأمريكية يهب لنجدته و مساعدته ليخرج سالما من ورطته و من بين أيدي السلطات الأمنية، سيكون الأمر صعبا لكنه لن يعدم الوسيلة لتحقيق بغيته.

يسري الكاشف يبتعد بهدوء، وجهته مدخل المحطة البحرية ؛ و من دون أن يغيب المصري رمشة عين عن ناظري يعقوب، بدأت تتدفق على مخيلته أحداث اليوم و الأمس، و صورة فرنشيسكا أشدها وطأة و رسوخا بأبعاد جسمها الشهي تتراقص مهتزة أمام عينيه، و عبثا حاول طرد تلك المناظر المثيرة و الخواطر المستفزة من باله تتحداه لتشده إلى استعراض شريطها الجنسي الإيحائي يتابعه رغم أنفه، هو المتواجد في موقف يغنيه عن الاهتمام بسواه و الالتفات إلى غيره ؛ رآها عند تناول الغداء في غرفته بالفندق و الرعب ما زال يمتطي صهوة نفسيتها بمجرد تناولها فكرة خروجها إلى الشارع، لم تزوده بجديد و لم تأت على ذكر زوجها المغتال، و في لحظة ما رفعت فستانها إلى الأعلى تزيل لزقة طبية على جانب فخذها إثر تعرضها لخدش بسيط فأمسك أنفاسه و شد حلقه طالبا منها في رجاء أن تعجل بإسدال فستانها، استغربت على ما يبدو طلبه المتوسل و تعمدت التباطؤ في تنفيذه لتزيد من عذابه ؛ لم يحدث أن رأى يعقوب في حياته ساقين بمثل هذا الجمال و فخذين بكل تلك الروعة و السحر... ضف طريقتها الفاترة و أسلوبها المتأني في

تمرير يدها و جعلها تتسلل بعفوية داخل صدرها لتعديل وضعية رافعة نهديها، إشارات غير كاثوليكية و غير بريئة بالمرة، لم تمر من دون أن يلتقطها هوائي قرون استشعار غريزة يعقوب المتحفزة، تصدر عن امرأة لم يمر سوى يومين على فقدانها زوجها في ظروف خطيرة و معقدة. أخرجه من تلك الخواطر وصول سيارة فاعتدل في جلسته على أهبة الاستعداد للمرور إلى العمل، لكن الكاشف لم يحرك ساكنا أو يعطيه الإشارة الدالة على أنها السيارة المقصودة... بدأ التوتر و القلق يخيمان على يعقوب، الوقت يمر و الباخرة ستنطلق بعد حين و لا شيء في الأفق، هل خُدع المصري و غرر به مصدر معلوماته ؟ لِم لا... كل شيء ممكن و وارد في مثل هذه الصراعات المريرة بتداخلات الذكاء و الدهاء و المكر و القوة، تكون الغلبة فيها لصاحب النفس الطويل الذي يحسن استعمال نقائص العدو و أخطائه و استغلالها لأخذ المبادرة و التحكم في زمام الأمور و توجيه – في نهاية المطاف عند اللحظة الحاسمة – الضربة القاضية التي لا تبقي و لا تذر يحتار لها العدو و ترتبك توازناته التكتيكية و تتهدم بفعل عديد الثغرات و الفجوات المحدثة بها و تسقط جل آلياته التضليلية و مناوراته الخداعية و تذهب في مهب الريح، فيقطف عندها فقط من أدار الصراع بمهارة و دهاء و صبر و مثابرة ثمار جهوده و رجاحة عقله ؛ لكن الكاشف متأكد و متيقن من صدقية معلوماته، لننتظر دقيقة أو دقيقتين و بعدها لكل مقام مقال.

سؤال آخر يلح عليه : إن كان قد تم اكتشاف جثة شريف خان ؟ الاحتمال ضئيل كون المكان المدفون به شبه مهجور لا يرتاده الناس إلا صيفا للتنزه و الترويح على النفس،

خاصة العشاق منهم المحلقون في عوالم ميتافيزيقية تجعلهم لا يلتفتون إلى ما سواهم إلا نادرا، زيادة على الصخور التي تمثل في حد ذاتها حاجزا طبيعيا يمكن الاعتماد عليه جديا، سيمر وقت طويل قبل العثور على جثته باستثناء حالة واحدة فقط : أن يتمكن المد و الجزر البحري من أخذه بعيدا، إلى شاطئ معروف...

شاحنة صغيرة تمر أمامه، على جانبها كتابة لم يتمكن من تبينها... غريزيا، شغل المحرك و حرر المكبح اليدوي و وضع قدمه على دواسة السرعة و عيناه مركزتان على الكاشف ينتظر على أحر من الجمر أن تأتي الإشارة الموعودة، و أخيرا أومأ له المصري بمصباحه اليدوي، كما تم الاتفاق عليه، لينطلق بهدوء تام لأن الموقف لا يتطلب العجلة، عليه بانتظار نزول الشخص أولا من الشاحنة... لمح رجلا يفتح صندوق الشاحنة و يخرج منه حقيبة ضخمة وضعها على الأرض و ينادي حامل أمتعة بالمحطة ؛ أقل من عشرة أمتار تفصله عن الرجل... و مثل مفترس متحفز للوثب، استمرت "الفورد" تتقدم ببطء شديد و سلاسة محسوبة، بدوره بدأ الكاشف يقترب على رؤوس أصابعه...

فتح الرجل الباب الآخر و أمسك بذراع امرأة يساعدها على الهبوط، و ربما إمعانا في الحذر كي لا تحاول التملص و استغلال الفرصة للهروب و الإفلات منه. هي امرأة شقراء، ترتدي معطف سفر، ذات ملامح جذابة و ناعمة...

من دون تردد، مر الكاشف للعمل إيذانا ببدء التحرك، في نفس التوقيت ضغط يعقوب بشدة على دواسة السرعة ليكون

في أقل من ثانية على نفس مستوى الشاحنة ثم فرمل بكل قوة المكابح كي لا يدوس الرجل المطروح على الأرض فاقدا الوعي لا يدرك ما يدور حوله، و في نفس اللحظة تقريبا كان الكاشف يمسك بالمرأة و يدفع بها سريعا داخل السيارة... صراخ المرأة يعلو و هي تقاوم يائسة خاطفيها...

كان يعقوب يقود بتأنٍّ لشدة الضباب قبل أن يطلب منه الكاشف الإسراع، لم يكن ينتظر أكثر من ذلك لينطلق مثل فرس جموح بأقصى سرعة بتلك اللؤلؤة الرائعة بكل المقاييس. شرع محرك السيارة يعوي و يصرخ محتجا يشارك المرأة في الخلف صراخها الذي أصبح أكثر حدة مثل معزوفة موسيقية بنغماتها الحادة التي تصدرها الآلات النحاسية، لكنها تضيع في خضم ضجيج المحرك الهائل المتفوق عليها و تتسرب متقطعة تخترق كثافة الضباب و قطرات المطر التي تقد برقع الغيوم السوداء تفتح عنوة لنفسها و للبرق سبيلا من خلالها. أصبح الآن الوضع أكثر طمأنينة بعد اختفائهم عن الأنظار و ابتعادهم عن المكان إذ لا طائل من أن تستوقفهم دورية شرطة أو درك بسبب السرعة المفرطة أو التورط في حادث سخيف في مثل هذه الأجواء الماطرة التي زاد طينها بلة الضباب الكثيف المهيمن على المدينة و أطرافها يلف طرقاتها و يغرقها في جحافل أمواجه المخملية.

بعد قطع مسافة قصيرة انحرفوا ناحية الشمال على طول خليج الجزائر الذائع الصيت الذي فاقت شهرته الحدود المحلية. لا يوجد حس قط على الطريق الضيق، فقط صوت المرأة المتذمر الآتي من الخلف مع صوت الكاشف يأمرها بالتزام

الصمت و الهدوء. تساءل يعقوب في سريرته عن الذي يدفع بها للمقاومة ؟ هل تظن أن في الأمر خدعة و أنها مؤامرة تم ترتيبها و إعدادها من طرف رؤسائها المباشرين للتخلص منها نهائيا لإخلاء مسؤوليتهم من أي محاسبة محتملة أمام جهازهم المركزي ؟

يسري، (صاح فجأة يعقوب) لو سمحت طمئنها و أفهمها بأننا أصدقاء لا نريد بها شرا.

تذمر الكاشف و انزعاجه من المرأة باد للعيان لأنه لم يكن ينتظر مقاومة تذكر منها خصوصا صرخاتها المدوية التي شكلت بعض الخطورة و خلقت توترات ملحوظة جعلته منزعجا للغاية، كان يود أن يعالجها بطريقته الخاصة لكنه تراجع عن عزمه و لم يجد وسيلة للتهرب من الأمر إلا أن يفعل ما طلب منه شريكه. صمتت على إثرها الشابة و همدت مقاومتها.

عند حلول الظلام، أوقف يعقوب الفورد أمام سيارة الكاشف العتيقة المركونة في نقطة خفية خلف كنيسة السيدة الإفريقية، المكان خال و الضباب متراص و كثيف، سماكته توخز الحلق و البرد يجلد الوجوه، الشيء الذي يجبر الناس على الجلوس أمام المدفآت و يمنعهم مجرد التفكير في الخروج إلا عند الضرورة القصوى. قطع يعقوب وصلة تشغيل المحرك و نزل أولا تاركا المفاتيح فوق لوحة القيادة، لم يحاولا مسح بصماتهما أو إزالة أثرها لأنهما كانا طيلة الوقت يرتديان قفازات جلدية. فتح الباب و نظر إلى الشابة ؛ فعلا هي نسخة طبق الأصل للصورة التي وجدها في جيب محفظة عشيقها شريف خان.

قال و ابتسامة عريضة ترتسم على وجهه : أنا جد سعيد بمعرفتك آنسة غوندليزا ، تفضلي بالنزول لو سمحت سنغير مركبتنا .

رمقته في تحدٍّ يلازمه حقد دفين يشع من أعماق عينيها الشبيهة بصفحة سماء أغسطس، و قالت من دون أن تتزحزح من مكانها : إلى أين تأخذاني، ألا تدركان عظم جرمكما الذي يعاقب عليه القانون أشد العقاب ؟!

اصبري قليلا جميلتي و ستعرفين كل شيء في حينه، ردّ عليها بلطف.

أرفض اتباعكما ، ردت بصوت حاسم ينهي النقاش.

تحرك على إثرها الكاشف فأشار له يعقوب بالتوقف و قد أدرك مراده، و دائما بابتسامته التي لم تفارق محياه أعاد الكرة من جديد : أنت تخطئين كثيرا لأنك ستأتين معنا برضاك أو غصبا عنك.

اهتزت مرتعشة حنقا و غضبا : لا يمكنكما إكراهي على المجيء معكما ، عبثا تحاولان معي.

ظننتك ستسعدين بالمجيء معنا آنسة غوندليزا ، بالقطع أنت تجهلين ما ينتظرك في رومانيا أو إيطاليا ، أليس كذلك ؟

أرخت نظراتها و هي ترد : لم أفهم قصدك و ما ترمي إليه.

صوت نعال في الجهة الأخرى من الرصيف على امتداد الكنيسة ؛ تفطن الرجلان بأن المرأة ستستغل الفرصة و تصرخ بكل ما أوتيت حبالها الصوتية من قوة طالبة النجدة و المدد ، فأغلق الكاشف فمها الجميل بيده الضخمة و شدها بقوة إليه، من ناحيته سد يعقوب بجسمه الهائل فتحة الباب يحول دون

رؤية من بالداخل، و بكل هدوء و رزانة استمر يتحدث وحده موهما المارة أنه يتكلم مع أشخاص بينه و بينهم معرفة سابقة. ما أن نزع الكاشف يده عن ثغرها الجميل حتى بادرها يعقوب بصوت جامد و رهيب : أعطيك ثانيتين لا أكثر تختارين فيهما إما المجيء معنا بإرادتك أو تكونين الجانية على نفسك و أضطر عندها لاستعمال وسائل أخرى لا يمكنها أن تخطر على بالك...

لقد ضيعت وقتنا هذه الملعونة، اتركني أطبخها لأريها النجوم في عز الظهر، زمجر الكاشف و قد انتفخت أوداجه من شدة الغضب.

بصوت خافت مثل الهمس ردت في استسلام و قد أيقنت صعوبة موقفها و أن محدثها لا ينطق جزافا : سأتبعكما، لا داعي لكل هذه التهديدات.

نزلت برفق و يعقوب يقودها نحو السيارة العجوز، أركبها المقعد الخلفي ثم أخذ مكانه جنبها، قال و هو يغلق الباب : أنا من يتشرف هذه المرة بالجلوس معك إن لم تمانعي يا عزيزتي.

أخذ الكاشف المقود، و وجد صعوبة بالغة في تشغيل المحرك الذي يأبى أن يستجيب بسبب البرودة و الخدمة، و بعد إلحاح شديد دار و نطق مرسلا شهيقا و زفيرا كأنه يحتج على مضايقته و إزعاجه من سباته العميق.

من أنتم، أنا لم أركم من قبل على ما أظن ؟ نطقت المرأة أخيرا.

من طينة الرجال الظرفاء نحن سيدتي، بلغنا برحيلك من مصادر عليمة فقررنا تغيير مسار الأحداث حتى لا أبالغ و أقول التاريخ.

و الأسباب ؟ تساءلت في فضول.

لا زالت السيارة ترسل تأوهات و ضجيجا لا يطاق، فانتظر إلى أن عاد الهدوء قليلا كي تسمعه جيدا و قال معلنا : كنتُ صديقا لشريف خان...

تجمدت مكانها من هول الصدمة و بقيت صامتة لحظات قبل أن تسأله : هلا ذكرتني باسمك لو سمحت ؟

من المؤكد أنه لم يكلمك عني أبدا، معرفة اسمي لن تضيف إلى معلوماتك شيئا.

لكن... لماذا تقول صديقه في صيغة الماضي ؟

هي بلا مواربة تجهل بأن عشيقها قد مات و انتقل إلى مغرب الشمس على طريقة الفراعنة.

لقد فهمتني خطأ، شريف اضطر للسفر البارحة مساء و لم يكن بوسعه أن ينتظرك.

لوحت بيدها في الهواء محتجة في غضب : هذا غير صحيح، ما تقوله عار من الصحة تماما.

لماذا كل هذا التوجس ؟ أنت أيضا كنت مسافرة.

طأطأت رأسها و ردت بصوت تشوبه ذلة : في حالتي... الأمر يختلف.

وعدوك بأن لا يؤذوه إذا قبلت السفر من دون مشاكل، أليس هذا هو ما جرى ؟

لم تنبس ببنت شفة، فقط ارتعاشة خفيفة علت شفتيها، عندها تأكد بأن تخمينه كان في محله و لم يجانب الصواب، واصل كلامه من دون رأفة و هو يعلم مسبقا وقع كلامه على المتلقية، لكن في مثل هذه المواقف لا مكان للعواطف، كل الأسلحة مباحة لتحقيق الغرض المنشود : لقد قاموا البارحة مساء بتصفية شريف خان و التنكيل بجثته.

ماذا تقول... بحق السماء ؟!

أكرر، لقد قاموا بقتل شريف خان البارحة، تمت تصفيته بطريقة بشعة بعد إذاقته ألوانا من العذاب، لقد خدعوك يا صغيرتي و انطلت عليك مكيدتهم...

تحتج بكل ما أوتيت من قوة : لا يمكن، هذا غير صحيح، أنت تكذب لتستدرجني في الكلام و توقع بي، رباه... هل ما أسمعه حقيقة أم حلم ؟

أخرج بهدوء متعمد صورتها و رزمة مفاتيح الشقة من جيبه.

هل تعرفين أشياء من هذه ؟

خطفت الصورة بعنف من يده، فأضاء مصباحه اليدوي كي يمكنها أن ترى جيدا... أرسلت صيحة مخنوقة و سقطت إلى الوراء مغمى عليها و عيناها مغلقتان... أخرج يعقوب قنينة كحول و مررها أمام منخريها فانتفضت فاتحة عينيها، و أعطاها الزجاجة فأخذت منها جرعة كبيرة...

عندما لاحظ يعقوب بأنها استردت وعيها و استفاقت من وطأة الصدمة الأولى واصل حديثه الذي انقطع : كنت على

موعد معه البارحة على العاشرة مساء، عندما لم يحضر توجهت للبحث عنه فوجدته...

قاطعته برجاء : أرجوك... لا تكمل.

سكت هذه المرة تقديرا لحالتها و احتراما لرغبتها و رحمة بها بعد نجاح خطته معها في شطرها الأول، الآن ستبقى هادئة و لن تحاول إثارة أي نوع من المشاكل في المرحلة الراهنة على الأرجح.

سيارة الكاشف المتهرئة تئن تحت وطأة صعود زقاق ضيق و محفور، على طول جانبيه منازل منخفضة تكاد السيارة تلامس نوافذها و أبوابها، عند بلوغ القمة انعطف الكاشف إلى اليمين و أطلق العنان لمركبته، و بعد مائة متر، و بعيدا عن الطريق المعبد، توقف و أطفأ الأنوار و قطع دورة المحرك. المنطقة خالية من أي أثر للحياة، أرض بور لا زراعة فيها و لا عمران، زادها الضباب الكثيف غرابة و رهبة... لم ينطق أي منهم بحرف واحد للحظات كأن على رؤوسهم الطير، و مع تأقلم عيني غوندليزا بالأجواء المحيطة بها توجست خيفة و انتفضت فجأة تصرخ : لماذا أتيتما بي إلى هذا المكان المقفر غير المأهول ؟ ماذا تنويان فعله بي ؟ لماذا نبقى هنا ؟... بحة صوتها توحي بالقلق و التوتر الشديدين...

يعقوب محشور في ركنه يتأملها، بينما أشعل الكاشف سيجارة من دون اهتمام كأن الأمر لا يهمه. غوندليزا... بلون حبة الليمون و صوتها المرتعش... انفجرت تقول مرتعبة جراء صمت خاطفيها و قد رابها الأمر : بالله عليكما هلا أخبرتماني بما تنويان فعله ؟ لم أعد أحتمل هذه المسرحية التراجيدية... مستبقة ردهما، حاولت يائسة فتح باب السيارة و الفرار،

لكن محاولتها باءت بالفشل لأن يعقوب كان لها بالمرصاد و أجهضها قبل أن تشرع فيها إذ مد ذراعه و جذبها بعنف آلمها قبل أن تتمكن من وضع قدمها خارج السيارة.

أنصحك بأن لا تكرري فعلتك هذه و إلا كانت نهايتك مؤسفة، أنا بطبعي أكره استعمال العنف خصوصا مع النساء، لو حاولت مرة أخرى سأضعك بين يدي صديقي و لست ضامنا أن تتعرفي على نفسك لو نظرت في المرآة بعد ذلك، أكرر لك مرة أخرى أننا لا نريد بك شرا، نريد فقط أن نتكلم معك لا أكثر.

في واقع الأمر، كان يعقوب متذمرا لاضطراره إلى استجوابها في حضور المصري، لكن ما باليد حيلة و الظروف تجبره على القيام بذلك بسرعة، و ليس من السهل التخلص منه أو إبعاده، و لن تجدي المناورة و الخداع لكليهما لأن الأمر جلل و معقد، إما أن يحصلا معا على الشيفرة أو تضيع منهما للأبد، و كلاهما يحتاج إلى الآخر خصوصا هو في هذه المرحلة بالذات.

لقد عرفت شريف في إيطاليا بعد استسلامها مع نهاية الحرب العالمية الثانية، تعاملت معه و عرفته عن كثب و وثق بي، هذا هو السر في عرضه القضية و اقتراحها علي شخصيا...

قاطعته تستفسر : عن أي قضية تتكلم ؟

بدا صوتها و قد استعاد بعض هدوئه عكس المرات السابقة، لكن مناورتها لم تفت يعقوب و هي تحاول ادعاء جهلها عما يتحدث بشأنه، فاستمر يقول متجاهلا مقاطعتها : أنت تعرفين جيدا عما أتكلم في شأنه، و مع ذلك سأجاريك و أضع لك النقاط على الحروف، الأمر يتعلق بشيفرة الاتصالات الخاصة بالجيش المصري، لقد أوضحت لك الأمر و جعلتك في

الصورة التي تملكين بالتأكيد خلفية عنها و معطيات لا يرقى إليها الشك، عكس ما تدعينه و ترومين واهمة خداعي و عبثا تضليلي، أليس كذلك يا صغيرتي ؟

أنا لا أفهم عما تتحدث، أنت أكيد قد أخطأت الشخص الذي تريد.

فتح زجاج النافذة قليلا كي يطرد دخان سيجارة الكاشف المحلق في سماء السيارة، و الذي ضايقهم و كبس على أنفاسهم ؛ و في اللحظة ذاتها اخترقت أسماعهم صفارة الباخرة و هي تشق طريقها إلى عرض البحر.

أظنها باخرتك المغادرة، لقد نجوت بأعجوبة من الفخ المنصوب لك و فلتت بجلدك في اللحظة المناسبة و إلا...

لم ترد، لكن ملامحها انقبضت و شفتيها تقلصت.

شريف خان، و قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، أخبرني في كلمات متقطعة « عند غوندليزا »، يستحيل أن يتعلق الأمر بشيء آخر سوى الشيفرة، و قد زرت شقتك هذا الصباح و لم أعثر على شيء...

التزمت الصمت، في حين كان المصري في الأمام يدخن سيجارته ساكنا كأنه غير موجود.

استأنف يعقوب يقول بصوت ناعم : لقد اتفقت مع شريف على أمر، أعطيه مبلغ ثلاثة ملايين دولار أمريكي و يسلمني الشيفرة... أنت تعرفين ذلك و لا شك ؟

هزت كتفيها و لم تعقب مباشرة كأنها تفكر في أمر ما، ثم قالت : فلتستمر في هذه الأسطوانة المشروخة إذا كانت

تستهويك إلى هذا الحد، إنما أنا لم أفهم شيئا مما تجهد نفسك في سرده، و قد أوضحت لك منذ برهة أنك أخطأت العنوان.

ظهرت جلية هذه المرة مقاومتها، تنأى بنفسها و تبعد عن شخصها الشكوك، لكن يعقوب متأكد من أنها تكذب و تراوغ، بل أكثر من ذلك، هي تملك ما يساعده على وضع يده على الشيفرة و سريعا قبل خروج الأمر إلى دائرة أوسع فتتفاقم تعقيدات الموضوع و يبرز منافسون جدد من آفاق أخرى يلعبون نفس لعبته، لعبة القط و الفأر المأثورة.

مد يده و نزع على حين غفلة منها حقيبة صغيرة كانت تمسكها بقوة و تشدها في تشنج، حاولت أن تستردها منه لكنه دفعها بلطف و سحب مصباحه الصغير من جيبه، و طلب من الكاشف مراقبة حركات المرأة و الاحتراز منها. لم يفوت الكاشف الفرصة فاستدار و مسدس أوتوماتيكي يلمع في يده، تراجعت عند رؤيته إلى الخلف و تكورت حول نفسها و جحظت عيناها جراء الرعب الذي أثارته رؤية المسدس في نفسها كما يبدو للعيان، إن لم تكن تمثل و تتظاهر... وضع يعقوب الحقيبة التي تشبه كيسا جلديا بين رجليه و فتحها مسلطا أشعة مصباحه داخلها، عثر على جواز سفر يحمل اسم غوندليزا كافلو من مواليد 1937 في براصوف برومانيا، المهنة : موظفة في شركة بحرية، الجنسية : إيطالية، وضعه في جيبه و استمر يفتش، تذكرة سفر بحرية و وصل إيجار وضعهما في جيبه و الباقي لا يتعدى حاجيات شخصية مما تستعمله النساء لا أهمية له.

جواز سفري لو سمحت ؟ طلبت و هي تمد يدها.

سأعيده إليك لاحقا عندما تتعاونين في المطلوب منك... أضاف بعد عشوره على مبلغ زهيد لا يتجاوز ألف دينار : يظهر أنك تعانين ماديا ، إما أن مستخدميك معدمون أو بخلاء جدا .

هزت كتفيها استهانة و حولت بصرها متعمدة تنظر في الجانب الآخر.

واصل يعقوب : مليون دولار مع جواز بأي اسم أردت و تأشيرة حيث ترغبين... عرض مغرٍ و لا شك لا يمكن رفضه بسهولة... ردد ساخرا.

لم ترد عليه و خندقت في صمتها ، عكس ما كان يتوقعه، فوجد بأنه هو من وقع ضحية تسرب القلق إلى نفسه و على وشك فقدان صبره و انهيار أعصابه بسبب عنادها و مماطلتها في المرور إلى التعاون معه بعد أن عاملها بكل لطف و أريحية، لم يتوقع أن تجري الأمور على هذا النحو و تصل إلى المأزق الذي يتخبط فيه بينما الوقت يمر بسرعة و كل دقيقة الآن لها وزنها و أهميتها في حلحلة الموضوع و الدفع به قدما إلى الأمام. أي خطأ ارتكبه حتى وصل إلى هذه النهاية مع المتعنتة الجالسة إلى جواره ؟! غيّر تكتيك الاقتراب من الموضوع بعد أن ساورته فكرة قرر تطبيقها على الفور.

حسنا ، لم يبق الآن أمامنا إلا أن نأخذك إلى الوكالة التي تشتغلين بها ، سيكونون سعداء برؤيتك... قال هذا و هو ينظر إليها ، فلم تتحرك من مكانها و لم يصدر عنها أي رد فعل. ثم قال و هو يلمس كتف الكاشف : ميدان موريس أودان... نقابل المدير، أليس مسكنه يقع فوق الوكالة كما أخبرتني سابقا ؟

هز الكاشف رأسه إيجابا و انطلق بسرعة يشق الطريق في اتجاه وسط المدينة، لم تغب عنه مناورة يعقوب و ما يهدف إليه، فخفض فجأة من سرعته إلى أدنى حد متظاهرا بأن السيارة تعاني من مشكل ميكانيكي يحول دونه و الإسراع و إلا تعطلت و بقوا في الطريق. طيلة المسافة لم تغب المرأة لحظة عن أعين يعقوب، ملامح وجهها الجانبية لم تكن تمنحه أكثر من قناع حديدي لوجه مستعار.

فرمل الكاشف بسرعة عندما حاول الانعطاف إلى اليمين عند مفترق طرق بسبب الظهور المفاجئ لدراجة ميكانيكية مرت من أمامه كأنها مارد خرج للتو من قمقمه فاصطدم بها مكرها رغم أنه كان يسير ببطء، لأن الآخر لم يحترم إشارة الوقوف أمامه. أسرع الشرطي الرابض عند المنعطف بينما ممتطي الدراجة يقوم بسلام، أصيبت آليته ببعض الأضرار فقط لكن الشرطي أصر على تسجيل محضر ضبط، ما اضطر المصري إلى النزول و تقديم أوراقه و وثائق السيارة.

انتهزت غوندليزا الفرصة الثمينة الممنوحة لها من السماء و فتحت الباب و نزلت بكل هدوء تسأل الشرطي الذي لا يبعد عنها كثيرا و ابتسامة مجانية تلوح من وجهها : لو سمحت، هل يمكنك أن تدلني على كاتدرائية القديس أوغستين ؟

طبعا سيدتي، إنها قريبة من هنا في الجهة الأخرى من مفترق الطرق، مسافة دقيقتين على الأقدام.

أوه شكرا سيدي الشرطي، إذا فقد وصلت، تسبب الضباب السميك في اختلاط الأمور بذهني، و أرى أنه لا داعي لإزعاج أصدقائي أكثر و سأذهب راجلة.

لا يمكن ليعقوب أو الكاشف أن يفعلا شيئا و الشرطي يقف معهما و إلا انفضح أمرهما و تطور الأمر في غير صالحهما.

لطف منكما أن رافقتماني، أشكركما كثيرا... ثم وجهت كلامها إلى يعقوب : لا تنس أن تطلبني بالتليفون غدا.

حاضر عزيزتي، (رد يعقوب مسايرا لها راكبا نفس موجتها) وعد مني أن أفعل، إلى لقاء قريب عزيزتي.

ثوان من بعد، اختفت في الضباب و تلاشت تاركة حقيبتها اليدوية و كل أغراضها عند مختطفيها.

انتهى الشرطي من تحرير المحضر، فأخذ الكاشف المقود و انطلقا في صمت قبل أن ينفجر المصري يقول في مرارة : لقد تمكنت هذه الملعونة من هد ما بنيناه هذه الليلة بلعبتها المحكمة.

نعم، (رد يعقوب موافقا) قد رأيت ما جرى بأم عينك، لم يكن في وسعنا أن نستبقيها بالقوة أمام الشرطي، ذهبت لكن من دون وثائقها و مالها.

هل تركت حقيبتها ؟ سأل الكاشف.

نعم، إمّا سهوا منها أو أن خطتها المرتجلة للفرار بسرعة لم تترك لها الوقت الكافي كي تأخذها، و الآن هل تملك فكرة معينة عن المكان المحتمل أن تلجأ إليه في مثل ظروفها الحالية أو الشخص الذي يمكنه مساعدتها ؟

شحذ الكاشف ذهنه برهة يفكر ثم نطق قائلا : سأتكفل بالأمر، لكن لا يمكنك مرافقتي إلى من سأذهب إليهم.

لا مانع عندي، (رد يعقوب من دون انتظار) اتركني حيث تريد و كلمني في المساء بالفندق بعد العاشرة.

و هو كذلك.

نزل يعقوب عند زاوية ميدان الحرية و توقف يتأمل السيارة العجوز المتهرئة و هي تبتعد تاركة وراءها سحابة ملوثة تمنطق بوشاح أسود الضباب الكثيف حاضن المكان و خانقه في آن واحد.

كان قد وضع حقيبة غوندليزا في أحد جيوب معطفه الرحبة، و في مخيلته بدأت تنضج خطة وردت على ذهنه الساعة، توقف تحت ضوء عمود كهربائي يتفحص الوصل الذي وجده في حاجيات المرأة، تسلمته من صاحبة المنزل الذي تقيم به، السيدة تدعى ماريكا موريتشي و عنوانها لا يبعد حيث يتواجد على مسافة قصيرة ؛ إنه ابن المدينة، فيها ولد و قضى شبابه الأول و لا يمكن أن ينسى الشوارع و الأحياء و الميادين المحفورة في ذاكرته إلى الأبد، مع ذلك و خوفا من أن يخطئ العنوان سأل رجلا صادفه في طريقه و تأكد من أنه في المكان الصحيح.

الشقة تقع في الطابق الأول، دق الباب الذي فتح على الفور مبرزا شابة رائعة الجمال تنتصب أمامه.

السيدة ماريكا موريتشي لو سمحت ؟ سألها متحريا.

إنها هنا سيدي، هل تريد مقابلتها ؟

نعم آنستي لو تكرمت و بسرعة.

من دون انتظار أشارت له بالدخول فاجتاز عتبة الباب و شق طريقه من بين مجموعة من الأطفال بينما الشابة منهمكة في غلق الباب، ثم دخلت غرفة طعام ضيقة و هو يتبعها مثل ظلها، لمح عجوزا طاعنة في السن شعرها أبيض، تجاعيد وجهها العميقة التي حفرتها تصاريف الزمن بآلامه و مسحة

الحزن الدفين التي تغشاها تعطي الرهبة منها و توحي بالاحترام لها، لباسها أسود، تضع نظارة عيون صغيرة على طرف أنفها، قطع دخوله المفاجئ عنها إتمام قراءة كتاب تمسك به في يدها.

مساء الخير سيدتي، (حياها و قد تقدمته ابتسامته التي يحسن استعمالها حين يريد التأثير و أسر من يجلس إليه أو يقف أمامه كما الحال مع السيدة العجوز) أنا جد آسف لإزعاج خلوتك مع كتابك، لكن الظروف المناخية هذه الأيام تصعب من الحركة و التنقل كما لا يخفى عليكم.

العجوز تنظر إليه تتأمله من دون أن تنبس ببنت شفة كأنها تتعجب من جرأته على المجيء في تلك الساعة المتأخرة في مثل ذلك الجو يزعج راحتها دون سابق معرفة بينهما أو موعد مسبق كما جرت به العادة بين الناس المتمسكة بالأعراف الحميدة والمراسيم الأخلاقية، أدرك ذلك منها بحدسه فتابع يوضح : سيدتي، لقد أتيت من أجل الشقة... غوندليزا، قصدي صديقتي الآنسة كافلو، رأيتها قبل أن تسافر و طلبت مني...

قاطعته العجوز بحدة : قل لها عندما تراها بأني لست راضية عنها و عن تصرفها ! ألم يكن في مقدورها أن تأتي بنفسها لتصفية الحساب المتأخر بيننا عوض أن ترسل رجلا كريها متعجرفا و مثيرا للاشمئزاز ؟!

و هذا بالضبط ما حملتني إياه بأن أعتذر لكم نيابة عنها، و أنها ستزوركم حين تعود في أقرب فرصة.

همست العجوز متذمرة بكلمات غير مفهومة، لكنه استمر بأريحية مبتسما : أرجو أن لا تكون الشقة قد أجرت ؟

نظرت إليه متعجبة في شك و ارتياب من هذا الدخيل الذي يحشر نفسه في خصوصياتها، ثم قالت : و ما شأنك أنت ؟ هل يهمك أمرها ؟

أظن ذلك سيدتي، أنا بالجزائر لعدة شهور و أفضل شقة على الفندق كي أكون على طبيعتي و سجيتي.

دقائق من بعد و حسمت القضية، تم دفع مبلغ خمسة آلاف دينار نقدا بما فيها التأمين و خرج من عند السيدة ماريكا يحمل في جيبه عقد إيجار قانوني صالح لشهور عديدة و قابل للتجديد.

التحق بالفندق بعد غيابه الطويل عن فرنشيسكا التي ظلت تلازم غرفتها و لم تبرحها أو تتحرك منها كما يبدو طيلة النهار.

لقد استأجرتُ شقة، سنترك الفندق، أبلغ فرنشيسكا باقتضاب.

الليلة ؟ ردت مندهشة.

نعم الليلة و في الحال، رد عليها بهدوء.

في أي مكان تتواجد هذه الشقة ؟

في شارع ميشلي، منطقة هادئة و رائعة غير بعيدة عن الكاتدرائية، غرف كثيرة، مطبخ، حمام... إلخ.

في الغد، عليك بشراء حاجيات نسائية خاصة أنا في أمس الحاجة إليها، قالت ذلك و مرت مباشرة تساعده في حزم حقائبه.

بعد قيامه بتسديد مستحقات الفندق ترك تعليمات مكتوبة في رسالة تسلم للكاشف في حالة قدومه يسأل عنه، ثم انطلق و فرنشيسكا في سيارته المستأجَرة إلى وجهتهما الجديدة و رؤى

لذيذة ترتسم في مخيلته تعد بالكثير، بقضاء أوقات تشق أنفاسه و تهد حيله و هو بين أحضانها الرائعة يروي عطشه المتنامي من نبع وصالها المرتقب، هي الآن بين يديه لا يفصل أو يحول بينهما حائل أو عائق ؛ لما تخيل المنظر شعر برعشة و قشعريرة تسري في جميع أعضائه و دمائه تغلي في عروقه غليان الماء في المرجل و هو يضمها إلى صدره و يلصق فمه بفمها يوسعها لثما و تقبيلا فتمنحه من نفسها ما يمنحها من نفسه يتنقلان مثلما يريدان يعزفان على أنغام و أهازيج موجة الشهوة المحمومة و اللذة العارمة التي حطمت أقفاصها و خرجت من سجنها طائرة بأجنحتها تحلق في أجواء عوالم اللذة الكاسحة و الأحاسيس الجارفة الجياشة هاتفة و معربدة بكل أشكالها و شتى أوضاعها متحررة من القيود على فطرتها الغرائزية.

طافت فرنشيسكا بكل أنحاء الشقة تتعرف على خباياها و أسرارها، كان يعقوب يتأملها في البداية منبهرا و مأخوذا بمفاتنها و سحر جسدها الذي يرسل ذبذبات تستقبلها حواسه المتحفزة و نيران شهوته الموقدة في انتظار ساعة الصفر، ساعة المرور إلى التنفيذ و تجسيد الأهداف المرجوة في ساحة النطاح و البطاح، الكر و الفر، تنتهي بالإشباع و الارتواء الجنسي لكليهما ؛ لكن تصرفها و سلوكها و هي تنقب و تفتش داخل الغرف أثار استغرابه و حيرته حيث لم يفهم كنهه و ما ترمي إليه من وراء ذلك، ربما قال في نفسه أن المعاناة من أحداث الأيام السابقة جعلتها متحفزة و خائفة من كل شيء. هو يعلم أنها بذكائها الأنثوي لا تجهل ما يختزنه بداخله تجاهها، بل هو متأكد من أنها تدرك ذلك و إن أبدت تجاهلها، و أكثر

من ذلك هي نفسها تحترق بنفس النار التي تلهب نيرانها النمرودية كيانه و إن تظاهرت بالعكس، فقدان الإحساس باللذة و الرغبة في ممارسة الجنس مطبقة المثل الرائج عند العرب في مثل هذا المقام :"يتمنعن و هن الراغبات" ؛ الهبات الجسدية التي منحتها إياها الأقدار من جمال، قوام رائع، جسد بديع و مثير يخرج الناسك الزاهد من عبادته و يلهيه عن طقوسه، من تملك كل هذه الملكات الجسدية يستحيل أن تغفل و لا تبالي برغبات الجسد و متطلباته إلا أن تكون قد ترهبت و نذرت العفة و عندها يكون مكانها في دير أو في صومعة في أعالي الجبال أو أقاصي الصحاري بعيدا عن المدنية و كل مثيرات الرغبة و الغريزة الفطرية، قطعا هذا لا ينطبق على فرنشيسكا التي شرعت – بعد الانتهاء من الغداء البسيط الذي تناولاه – في تهيئة غرفتي النوم المنفصلتين عن بعضهما البعض، اختار يعقوب عن عمد غرفة غوندليزا سابقا، يريد أن يبحث هذه المرة و هو مرتاح غير متوجس أن يباغت في أي لحظة من شخص غير مرغوب فيه كما حدث في السابق. شبه متأكد هو من وجود مخبأ سري على شكل كوة خفية أو حفرة أوجدت بعناية لا يستطيع زائر متسرع و غريب عن المكان أن يتفطن لها، لأن شريف خان و هو يودع الحياة ليست له مطلقا مصلحة في الكذب عليه أو خداعه، « عند غوندليزا » قال قبل أن تسعفه القدرة فيضيف قائلا : « في صندوق »، ربما هو من فهم خطأ شريف بنطقه الكلمات متقطعة بالكاد التقطتها أذناه، ربما...

عند انتصاف الليل و لدى انشغاله بجس أرضية الغرفة و فحصها شبرا شبرا، شعر بوقع خطوات خارج الغرفة جعلته

ينتفض و يهب منتصبا بسرعة مرتديا منامته، ممسكا بمسدس "الماغنوم"، تقدم على أطراف أصابعه حرصا منه على أخذ خصمه على غفلة منه، تقدم من الباب و التصق به كلية مع ما في ذلك من خطورة لو أطلقت رصاصة من الخارج، لكنه يجازف كي يتحقق مما يجري في الخلف، وصل سمعه أنفاس شخص يقف ملتصقا بالباب يتصنت فتجمدت مفاصله و بدأ قلبه يخفق بشدة مخافة أن تكون فرنشيسكا قد أصابها مكروه ما و هي مستغرقة في نومها، لكنه تفطن فجأة إلى أن الأنفاس التي وصلت سمعه كان يرافقها شذى عطر قوي داعب منخريه ذكره بنفس نوعية العطر الذي كانت تضعه الليلة فرنشيسكا، هل هي نفسها من وراء الباب ؟ إن كانت هي فعلا ما الذي يمنعها من أن تدق الباب أو تنادي عليه ؟ أم هي امرأة تضع نفس عطرها ؟ ربما هي غوندليزا نفسها عادت إلى شقتها لأخذ الشيفرة و الاستحواذ عليها بعد أن عرفت بمصرع عشيقها شريف ؟ إن كان الأمر على هذا النحو فأغلب الظن أنها لا تجرؤ على العودة بمفردها. التجربة و المراس علمتاه أن يكون دائما هو المبادر في مثل هذه المواقف، فتح فجأة الباب و يده الممدودة تمسك بالمسدس.

ارفع يديك و لا تتحرك خطوة ! ردد يعقوب بصوت مرعب، قبل أن تلتقط أذناه صرخة أنثوية عرف من نبراتها أنها فرنشيسكا كانت تمسك بغلاف أبيض كبير، قهقه يعقوب ضاحكا في صخب بعد زوال دهشته و عيناه ترتكزان في نقاط معينة من خريطة جسدها، و هي ترتدي مثل البارحة سترة المنامة التي أقرضها و منظرها مع فزعها يعطي انطباعا إيحائيا مبهما يحمل شتى التوقعات.

لا بأس عليك، ماذا كنت تفعلين خلف باب غرفتي ؟

أخذت نفسا عميقا بينما نهداها المستديران مثل رمانتين يتقدمانها في عنفوان استطلاعي للمكان الوحيد من المنامة الذي استطاعت أن تحتله و تهبط عليه.

وقفتُ أمام الباب للتأكد من أنك لست نائما، قالت ذلك و هي تسلمه الغلاف الضخم.

ما هذا ؟ تساءل يعقوب.

رمقته بنظرات غريبة ثم ردت : عرفت الآن فقط لماذا أجرت هذه الشقة، خذ الغلاف، لقد عثرت عليه في غرفتي داخل إطار الصورة المعلقة في الجدار المقابل للسرير.

الغلاف عادي جدا و مفتوح !

ادخلي، لماذا تقفين هكذا بالخارج ؟ طلب منها يعقوب.

أذعنت و ذهبت مباشرة تجلس على حافة السرير فجلس إلى جوارها و أفرغ محتويات الغلاف فوق البطانية : تذكرتا سفر على متن باخرة فرنسية انطلاقا من الجزائر العاصمة إلى جنوة بإيطاليا ثم "بابيتي" في بولينيزيا الفرنسية على الهادي و السفر بعد شهر، جواز سفر إيطالي صادر باسم السيدة خان و المفارقة أن الصورة تعود إلى غوندليزا كافلو عوض فرنشيسكا.

غريب جدا ! ردد يعقوب و هو يضع الكل على الطاولة الصغيرة جنب السرير مع المسدس.

ما تعليقك على ما ترين ؟ سألها يعقوب و هو ينظر إليها.

دست يديها المتشابكتين بين فخذيها الشهيتين و ردت بمرارة تنم عن استفاقتها المتأخرة من أوهام راودتها و خيالات داعبتها : تأكدت الآن أني كنت مخدوعة طيلة الوقت من طرف أقرب الناس، و ممن... من زوجي الذي أخلصت له و تحملت من أجله الحلو و المر حيا و ميتا.

أشاطرك الرأي أنا أيضا، لم يكن في نية شريف أبدا أن يصطحبك معه إلى بابيتي، كان سيرحل مع المرأة الأخرى.

شريف كان زوجي لكنه كان أيضا خسيسا و نذلا و انتهازيا إلى أقصى درجة. ردت غاضبة لكبريائها المطعونة و كرامتها المهضومة.

نظر إليها يعقوب و قد ازدادت رغبته فيها و هي على تلك الحالة من الغضب و الحسرة.

هذا رأيي أيضا، لو كنت مكانه ما خامر ذهني لحظة أن أبحث عن امرأة أخرى و عندي زوجة بمثل هذا الجمال البديع و الجسم الرائع !

أنت رجل لطيف و كلك نظر، تعرف كيف تميز بين الغث و السمين، ردت في زهو ممتنة بقناعة تامة.

آه فعلا ! قال و هو يقترب منها، أنت تجهلين أم تتجاهلين قيمة ما حبتك به الطبيعة من مزايا نادرة ؟ و طوق خصرها بذراعه لتنتقل إليه حرارة جسمها من خلال محرار راحة يده.

أمسكت يده بلطف بين راحتيها و قالت : عما تبحث هنا ؟! عن الشيفرة ؟؟؟

رد بامتعاض لقطعها الجو الحميمي الذي دشنه منذ لحظة : نعم هو ذاك.

ظنك أنك ستجدها هكذا و بكل بساطة و سهولة ؟

وقف فجأة و رد عليها في حزم : إذا عودي إلى غرفتك و اتركيني أعمل في هدوء، وجودك يشتت قدرتي على التركيز.

كست وجنتيها حمرة و مررت لسانها تبلل شفتيها النهمتين دلالة على توترها و حيرتها.

أنا خائفة جدا و ترتفع كمية الأدرينالين عندي عندما أكون وحدي في الغرفة.

إذا اندسي في هذا السرير بينما أنا أستمر في البحث، بالمناسبة كنت سأعرض عليك ما خضت بشأنه الحين لكني ترددت خوفا من أن تفهمي قصدي خطأ و تحمليه على غير نيته، و ما حدث منذ قليل لما تأكدت من وجود حركة وراء باب غرفتي جعل الدماء تغلي و تتجمد في عروقي خوفا من أن يكون قد أصابك مكروه و أنت نائمة وحيدة في غرفتك، و حسنا فعلت أن طلبت مني ذلك من تلقاء نفسك.

لم تكن في سريرتها تنتظر أكثر من تلك الفرصة لتندس تحت اللحاف و أعين يعقوب تتابعها باهتمام، هل يمكنه الاستمرار في البحث بعد إثارتها كل هذه الزوابع و الوساوس بداخله ؟ الأفضل له أن يتحرر من النيران الزاحفة على كيانه. لاحظت فرنشيسكا تردده فانبرت تستفسر : لماذا توقفت عن العمل ؟

هناك ما يعيقني، رد عليها باقتضاب.

إمعانا منها في خلخلته و قد أدركت بذكائها الأنثوي رغبته الحارقة فيها و كل ما يدور في خلده، ردت مؤكدة :

حقا ؟ يمكنك أن تجعلني مستودعا لأسرارك.

حاضر عزيزتي و بدل المرة ألف ! رد عليها في عجالة و قد طفح به كيل شهوته و لم يعد في الإمكان السيطرة عليها ؛ أطفأ نور الغرفة و نزع منامته و اندس بسرعة إلى جانبها.

ماذا تفعل أيها المجنون؟ أهكذا تعمل ؟

جذبها إليه و يده تبحث مستكشفة تحت سترها، كان محقا في كل ما تخيله، نهداها مثل تفاحتين نضوجا و طراوة و مثل رمانتين صلابة و قسوة.

ألا تستحي مما تفعله ؟ قالت بصوت أجش و أنفاس متهدجة.

على الإطلاق عزيزتي، رد عليها في عجالة.

توقفت عن الممانعة المصطنعة و أعطته شفتيها في حماس يعتصر رحيقهما الأخاذ ينقله إلى عوالم السحر و الجمال بعيدا عن دنيا الواقع و الحقيقة بكل منغصاتهما...

استيقظ يعقوب و جسد فرنشيسكا الملتهب ملتصق بجسده، الظلام يلف الغرفة، كانت الساعة تشير إلى الثالثة و نصف صباحا، ازدادت رغبته في تدخين سيجارة و احتساء كأس خمرة فانسحب بهدوء كي لا يوقظ المرأة، و وضع رأسها على الوسادة بتأنٍّ و رفق، بينما نهدها و فخذها و كل ما كان من أجزاء جسدها مندسا فوقه و في أحضانه يواجهه في استعراض رائع يدعوه لاستكمال و استعادة نشوة ساعات الليلة الماضية بكل

ما تحمله من معاني كلمتي متعة و لذة... ثم استدارت مستلقية على ظهرها و هي تتأوه مبتهجة في أحلامها و ذكريات ليلتها العسلية.

من دون إحداث ضجة، أخذ مصباحه اليدوي و غادر الغرفة متوجها إلى المطبخ، و قبل نصف متر من الباب تسمر فجأة في مكانه يشد أنفاسه يساوره إحساس طاغ ينذره بوجود خطر داهم يترصده.

لا تتحرك، (أمره صوت خافت من خلفه) أي محاولة منك سأسكن رصاصة في رأسك !

تجمد مكانه و يداه فوق رأسه قبل أن يقول : مساء الخير غوندليزا، ألم أقل لك بأننا سنلتقي ثانية، و ها قد حدث. تذكر فجأة بأنه عار من كل لباس يستره فراح يضيف : أرجو المعذرة من هيئتي، كان عليك أن تقرعي الجرس أو تطلبي موعدا مسبقا، كنت على الأقل لبست ما يستر عورتي أمام آنسة جميلة كي لا أخدش حياءها.

تخلَّ عن مصباحك، أمرته غوندليزا.

سينكسر عزيزتي و تضطرين لشراء مصباح آخر، رد ساخرا.

أمرتك أن تسقط المصباح، افعل و إلا...

صوتها يرتعش من شدة العصبية و الانفعال، و فكر بأنه لا يجب دفع السدادة أكثر من اللازم لأن التوتر يمكن أن يدفع بها إلى ارتكاب حماقة يدفع ثمنها غاليا، فأطاع مسقطا المصباح على البساط دون إحداث ضجة و بقي مشتعلا.

تقدم، (أكمل الصوت) توجه إلى الغرفة الأخرى و لا تنس بأن خلفك مسدسا يترصد كل حركة مريبة تصدر عنك.

حاضر، (رد عليها ساخرا) أي حركة تصدر عني حتى لو تعلق الأمر بطرد ذبابة ستطلقين الرصاص، حسنا قد فهمت.

أخفض صوتك و تقدم على مهل !

سار نحو الغرفة الثانية مارا في أشعة مصباحها و هو يقول ضاحكا : أغلقي عينيك، قد أنذرتك و أنت الجانية على نفسك !

دفع الباب برجله و خطا خطوات داخل الغرفة ثم توقف في نقطة معينة تجعله يرى ما يجري خلفه من خلال زجاج النافذة المغلقة مثل مرآة عاكسة، رأى المرأة تدخل بدورها و لم تدرك أهمية أن تلتقط المصباح الساقط على الأرض أو إطفائه، غلطة فادحة من جانبها لأن خلفيتها كانت مضاءة بالأشعة القوية التي تخترقها، أصبحت مكشوفة تماما له و لم يفته أن يسجل بكل ارتياح أن ما تمسك بيدها اليمنى ليس مسدسا و إنما رزمة مفاتيح أما يدها اليسرى فهي خالية، علاوة على ذلك من أين تحصل على مسدس و هي طريدة شريدة لا يمكنها اللجوء إلى أحد تطلب المساعدة منه ؟ سلاح أوتوماتيكي في بلد مثل الجزائر لا يباع أو يشترى على قارعة الطريق مثلما تشترى علبة سجائر.

قرر التريث و عدم المرور مباشرة للعمل، و ينتظر ليرى ما قدمت تبحث عنه.

ستخبرني و بسرعة إن كنت تحرص على حياتك، أين أخذت الغلاف الذي كان خلف الإطار هنا عن يمينك ؟

توضحت الأمور الآن و أدرك سبب نزولها من السيارة بتلك الطريقة من دون أدنى اهتمام باسترجاع أوراقها و حقيبتها، ظنها أن تعود إلى شقتها فتأخذ الجواز المزيف و تذكرة السفر إلى "بابيتي"، فرصتها الأخيرة للنجاة و النفاذ بجلدها قبل أن تدور عليها الدوائر، ما يفسر توترها و عصبيتها لما خاب ظنها و لم تعثر على مبتغاها.

أهذا فقط كل ما تريدين ؟

نعم، إذا سلمتني الغلاف أعدك بأن أخرج من دون أن أوذيك، فإن ركبت رأسك و أبيت سأكون عندها مضطرة لقتلك حتى أفتش على راحتي.

سأقترح عليك صفقة ترضي الطرفين و...

لست هنا لعقد صفقات إنما لأخذ ما يعود لي.

استمر يقول كأنه لم يسمع مقاطعتها : تعطينني الشيفرة و أعطيك وثائقك و مائة ألف دولار مكافأة لم تحلمي بها في حياتك !...

ردت ساخرة من العرض : لكنك قبل ساعات كنت تعرض الملايين، ما الذي غيرك ؟

نعم... لكن عروضي تنخفض بمرور الوقت، و إذا انتظرت أكثر من ذلك ستضطرين إلى تسليمي الشيفرة من دون مقابل.

أنا أيضا أعطيك عشر ثوانٍ تقرر فيها و تختار... حياتك مقابل تسليمي الملف و المال الذي سرقته.

أنا ؟ لم أسرق منك شيئا يا صغيرتي، أنت تركته و هربت، و هذا يفرق كثيرا !

بدأت تعد كأنها لم تسمعه، و يعقوب يعد معها،،،

استدار ناحيتها و ابتسامة قاسية ترتسم على وجهه من خلال بروز أسنانه مثل قط وحشي.

أخبريني أيتها الرضيعة، هل تظنين حقيقة بأنك ستتمكنين مني بهذه الطريقة الساذجة ؟

لما رأته يسير نحوها حاولت الفرار فأمسك بها من ذراعها بعنف و ضوء الغرفة يتدفق فجأة، كانت ترتعد و قد غشت ملامحها صفرة الليمون، أحاطها بذراعيه و جذبها نحوه و هو يقول مطمئنا : اهدئي الآن، لا خوف عليك.

نظرات رعب تشع من عينيها ممزوجة ببصيص أمل ماكر تولد في أعماق عينيها الصافيتين و تخيل ما هو آت ؛ إنها إحدى بنات حواء لا تختلف عن مثيلاتها في حقيقتهن في شيء، يختلف المظهر لكن الجوهر لا يتغير و لا يتبدل، لتحقيق غاياتهن لا يرتدعن أو يتوانين غالبا في ارتكاب ما لا يمكن أن يخطر على بال الرجال و هذا ديدنهن في الحياة، يتسربلن بالصبر متظاهرات بالضعف و الخنوع، و في اللحظة المناسبة يتحولن إلى وحوش كاسرة، و إلا من أخرج آدم من الجنة و طرد منها شر طردة غير وسوسة الشيطان و غواية المرأة و إغرائها، لست أدري لماذا لم يحاول العلماء و الباحثون اكتشاف مصل يعطي الرجال مناعة من النساء و يقيهم من الوقوع في شباك إغرائهن و مصايد غواياتهن.

نعم، لم أعد أحتمل هذه الضغوطات... ردت بصوت طفلة صغيرة و هي تذوب فيه كلية، خدها ملتصق بصدره العريض و ذراعاها تحيطان به بشدة لم يكن يتخيل وجودها في مخلوق

رقيق مثلها ، إنه السلاح الأقوى و الفتاك تلجأ إليه المرأة عندما تريد تحقيق رغبة أو الحصول على شيء معين عند الرجل فتأخذه حيث يدري أو لا يدري، وسيلتها جمالها و سحرها توقع به في حبائلها كما تقع الفريسة في شباك الصياد ، و عندما تعوزهن السبل يلجأن إلى سلاحهن الأسطوري، سلاح الفتنة و الإغراء و تخدير العقل الذي لا يبقي و لا يذر ، سلاح أثبت نجاعته على مر العصور و الأزمان، يخترق دروع حماية الكيان و يزعزعه، يهده من أساسه ليبقى أطلالا بالية أثرا بعد عين مثل شارب السم في العسل أو الموت الرحيم.

أنا جد خائفة، أرجوك احمني، أنت رجل قوي و ذكي... همست و هي تمرر يدها تلمس أعلى صدره و أسفل بطنه صعودا و نزولا ، تلامس عضو رجولته و تعصره عصرا ، و في نفس الوقت ترفع وجهها و شفتاها المحمومتان مفتوحتان تنتظران الانقضاض عليهما و إلصاق شفتيه بهما. سرت رعدة انسابت في جميع أعضائه، خيل إليه معها أن قلبه ينحدر في هوة عميقة لا قرار لها قبل أن يفاجئه صوت من خلفه :

قليل من الحشمة و الحياء يا هذا ! أخالني على شاطئ للعراة أو إحدى علب الليل الرخيصة. أعقبها سيل من الضحكات و القهقهة.

عندما استدار يعقوب رفع يديه على الفور، كان هناك ثلاثة، ثلاثة مسدسات موجهة إليه و ثلاثة رجال في الخلف. لقد تركت غوندليزا الباب مفتوحا و نسيت لتسرعها و شدة توترها أن تغلقه.

هذه ليست شقة، فقد تحولت إلى مكان عام يدخله كل من هب و دب، ألم يعلموكم في المدرسة أن للبيوت حرمة و أن تستأذنوا قبل دخولها ؟ علق يعقوب متذمرا.

وجوه الدخلاء كانت بدرجات متفاوتة تبدو عليها آثار و ندوب، يتطاير الشرر منها. تمكن من التعرف عليهم دون إعمال فكر، إنهم من حاول سابقا اختطاف فرنشيسكا عشية انطلاق أول فصول هذه القصة التراجيدية.

يظهر أنك كنت على وشك الرحيل غوندليزا ؟ (تساءل الذي يبدو عليه أنه مقدم القوم بسخرية متعمدة) لقد وصلنا إذا في الوقت المناسب.

هل وصل إلى سمعهم ما سبق من حديثه مع غوندليزا ؟ سأل يعقوب نفسه و قد قرر أن يخلط عمدا و ربحا للوقت كل الأوراق حتى يتمكن من إيجاد وسيلة ناجعة للخروج من هذه الورطة التي أوقعته فيها غوندليزا بطيشها ؛ أنزل مجددا ذراعه يضم المرأة و يحضنها في تحدٍّ لهم.

لن أترككم تمسوها بسوء و فيّ عرق ينبض !

انخرط ثلاثتهم مرة أخرى في نوبة من الضحك.

صحيح ؟ في أي شريط رأيت ذلك ؟ في أفلام شابلن الهزلية و لا شك أو إحدى مسرحيات شكسبير، هيا بنا فقد أطلنا الوقت معك، اتبعنا من دون مشاكل، ستأتي معنا و غوندليزا أيضا، و لا تخف سنترككما تتمان ما شرعتما فيه عندما فاجأناكما في الغرفة، أظن السيارة مكانا ملائما يليق بالغراميات و ممارسة الجنس.

يعقوب يضم بشدة المرأة إلى صدره و هي ترتعش من شدة الخوف و التأثر.

تقدم الرجل المرتدي معطفا جلديا أسود خطوة منه و قال مهددا : ألم تفهم بعد أم تريد أن أسكن رصاصة في رأسك ؟

حسنا ، (رد عليه) أنا لم أقم بما يغضبكم إلى حد الآن.

ضحكات الرجال الثلاثة تجلجل من جديد في أركان المكان.

هل تغضبنا بهذا ؟ رد عليه ساخرا و هو يلمس بأنبوبة مسدسه قضيب يعقوب المرتخي، ثم وجّه كلامه إلى غوندليزا : كنت تقضين معه أوقاتا طيبة و لا شك قتلا للملل و دفعا للضجر الذي ينتاب المرء في مثل هذه الأجواء اللعينة، هيا تقدم أمامي (مشيرا إلى يعقوب).

سأله يعقوب و هو يومئ برأسه إلى رفيقيه : هل زميلاك أبكمان ؟

أغلق فمك و إلا قطعت لسانك ! هيا تقدم أمامي.

لا يمكنني أن أخرج و أنا على هذه الحالة، اتركني على الأقل أرتدي ملابسي.

إن كنت تحاول المكر بنا و اللعب علينا فالعب غيرها ، و إن كنت تشعر بالبرد خذ معطف صديقتك.

ترك يعقوب المرأة و هو يقول لها : لا مناص من ذلك، الظرف يفرض ذلك حبيبتي !

من دون أن تتفوه بكلمة، نزعت معطفها و سلمته إياه فارتداه مباشرة لكن الكتفين كانتا جد ضيقتين و كان منظره سخيفا للغاية يثير الضحك و السخرية، لكن الحرب هي الحرب و هو

الآن في قلبها، تمكن مع ذلك و بصعوبة من غلق الأزرار تحت خصره ثم سأل بكل وقار و احترام : هل يمكنني أيها السادة أن أعرف صفتكم لو سمحتم ؟

و تنطلق ضحكات مجلجلة من جديد.

أنت رجل ممتع فعلا و ظلك خفيف ! لآخر مرة تقدم و إلا...

أذعن يعقوب، هو يدرك الحدود التي يجب أن لا يتعداها. وسع له الآخران و تركاه يمر بينهما، بينما ألصق أحدهما مسدسه في منطقته القطنية.

هم الآن ينزلون من الشقة بنفس الطريقة التي دخلت بها غوندليزا، هذه البلهاء التي تركت الباب مفتوحا و لولاها ما تمكن منه خصومه و ما وجد نفسه في هذه الوضعية الحرجة و أسوأ من ذلك مرتديا معطفا نسائيا يدك ضلوعه و يخنق أنفاسه في كل خطوة يخطوها، و يعيق حركته حائلا بينه و بين القيام بأي مناورة يراها في الوقت المناسب.

الشارع خال من أي حركة و قد ازداد الضباب كثافة و سمكا، ارتعدت فرائص يعقوب و اخترقت جسمه قشعريرة من شدة البرد، فاحتج بشدة :

سأصاب بالتأكيد بنزلة برد بسببكم.

سيارة كبيرة سوداء من نوع دودج "DODGE LANCER" كانت في الانتظار، صعد يعقوب في المؤخرة رفقة اثنين من مهاجميه بينما استقرت غوندليزا في الأمام إلى جانب السائق. قبل انطلاق السيارة تلقى يعقوب – على غفلة منه – ضربة قوية بقضيب صلب على مؤخرة رأسه صرعته على الفور و أفقدته وعيه. انتفض فجأة و هو يشعر بسيول الماء تجري من حوله

حتى خال نفسه داخل حمام سباحة، ظن في البداية أنهم تركوه مرميا في الشارع في بركة ماء جراء الأمطار المتساقطة طيلة هذه الأيام، ثم لمح مصباحا كهربائيا معلقا فوق رأسه و خيال رجل يقف غير بعيد عنه يمسك دلوا.

كان ثلاثتهم هناك يتكلمون لغة لم يفهمها، رومانية أو بولونية، لغة تشبه لغات أوروبا الشرقية، كما تأكد من وجود غوندليزا معه مقيدة فوق كرسي حديدي. الجو غير مريح البتة، وجد نفسه عاريا لا يستره شيء بعد نزع المعطف النسائي عنه و بدأ يعطس.

ألم أقل لكم بأنني سأصاب بأنفلونزا و نزلة برد شديدة بسببكم و ستضطرون إلى عرضي على طبيب و شراء أدوية و دفع مصاريف باهظة، ردد يعقوب معاتبا و محتجا في آن واحد.

ضحكات متتالية مثل العادة... يضحكون كثيرا، فعلا هم ظرفاء يسري المرح في دمائهم.

لا تنفك عن ملاطفاتك حتى و أنت في هذا الموقف ؟ لاحظ الوحيد الذي ظل يكلمه إلى حد الآن.

تقدم منه الآخران و أوقفاه فتظاهر بالترنح و التمايل، و فجأة أرسل لكمة بيمينه إلى فك الأقرب منه، لكمة حمّلها كل ما تبقى من قوّته و هو لا يزال متأثرا من إغمائه الطويل و قوة الضربة التي تلقاها رأسه، لم تكن النتيجة سيئة فقد أذهلت المفاجأة غير المتوقعة الرجل الذي أصيب بشدة ما جعله يتراجع إلى الخلف فتتعثر رجلاه و تزل قدماه في بساط و يرتطم رأسه بالجدار قبل أن يسقط فاقدا الوعي. لم يضيع يعقوب الوقت فاستغل أجواء المفاجأة المسيطرة على الجميع و بادر بتوجيه

ضربة قوية بمرفقه في المعدة اضطر معها الثاني و جعلته ينثني و يتلوى من شدة الألم، تراجع أثناءها يعقوب خطوة إلى الوراء و أردفه بركلة في بطنه و أخرى بركبته في لثته جعلته ينهار و يسقط على البساط بعد فقدانه الإحساس بالألم و كل ما يدور حوله مثل أعجاز نخل يستقر في أبعاد عالم افتراضي آخر.

نظر إلى الثالث الذي كان يكلمه طيلة الوقت و ابتسامة ماكرة تعلو شفتيه : هل أعجبتك المباراة يا عزيزي ؟

ليست سيئة، أقر الرجل و هو يوجه مسدسه إلى بطن يعقوب الذي مد رقبته يتأمل قطعة الموت السائرة نحوه.

جميل جدا، أي نوعية هو لو سمحت ؟

إنه "بيريطا"، 9 مم، طوله 215 مم، وزنه 970 غرام فارغا، حشوته 15 رصاصة، جنسيته بولونية، هل استرحت الآن و أشبعت فضولك الصبياني ؟ رد عليه بلطف و سخرية.

يا له من سلاح رائع و جميل ! ردد يعقوب مثل صبي يتمنى امتلاك لعبة لمحها عند ابن الجيران.

نعم، هو كذلك لكنه مؤذٍ كثيرا، هل تريد أن تجرب ؟

لا، شكرا، (رد يعقوب متظاهرا بالرعب) مرة أخرى ربما...

نهض الرجلان و هما يمسحان على رأسيهما اللذين يؤلمانهما و هما يحدقان في يعقوب ببلاهة قبل أن يوجها أنظارهما إلى رئيسهما الذي هز رأسه بهدوء و ابتسم بمرارة قائلا :

يا لغبائكما، هل رأيتما أين أوصلتكما الثقة الزائدة بأنفسكما، لطالما حذرتكما من مثل هذه المواقف و قد أخذتما

درسا على الطبيعة، لكن احذرا، في المرة القادمة يمكن أن لا أكون معكما و النهاية المحتومة تعرفانها أيها الأحمقان.

انتهز يعقوب فرصة الحوار الجاري بين الرجال و التفت حوله جيدا منقبا فأدرك أنهم يتواجدون في ما يشبه مرآبا أرضيته إسمنتية و خلفه ستارة حديدية، طاولة خشبية و كرسيان تحتل أحدهما غوندليزا ؛ كانت هذه الأخيرة تغلق عينيها، هي من دون شك مصدومة بالعرض العاري الذي يستمر فيه رفيقها رغم أنفه و يمتع به عينيها ؛ و خلفها مباشرة يوجد باب صغير يعلو درجات سلم.

ضع يديك وراء ظهرك، أمره الرجل الماسك البيريطا.

انصاع يعقوب، لا مناص من ذلك، كان قد قام بعرضه القصير و أدرك أن المبادرة الآن في معسكر الخصم. قيدت رجلاه و قبلهما يداه لتفتتح جلسة المرور إلى انتزاع الاعترافات بكل الوسائل المتاحة كما هو معروف و متداول في جميع الأوساط الاستخباراتية و شبيهاتها في كل أصقاع الأرض و أنحاء الدنيا.

نود التعرف عليك فقط، فمن أنت ؟

أنا... أنا هو المسيح المخلّص، مخلّص البشرية من حثالة المجرمين على شاكلتكم، جئت، رأيت و سمعت، و سأنتصر في الأخير، لماذا لم تعد إجاباتي تثير ضحكاتكم مثل المرات السابقة أيها الأوغاد ؟ هل تسرب الرعب و اليأس إلى قلوبكم ؟!

لا مفر إذا، عليكما به، اطبخاه جيدا حتى يجهز، أمر رأس المجموعة الرجلين بصوت عميق الخطورة.

بدأت اللكمات تنهال على يعقوب مثل حبات البرد و هو مكتوف اليدين و مقيد الرجلين لا يمكنه إلا أن يحاول اتقاء الضربات المصوبة إلى رأسه و وجهه و إن كان يستحيل عليه مراقبة رجلين و أربع قبضات تنهال عليه في نفس الوقت ؛ شعر بالدماء تسيل على وجهه و من فمه، و كلما تصاعدت وتيرة التأديب و العقاب تصاعد الحنق و الغضب الشديدان بالتدرج في داخله، أما الرجلان فلما تعبا و أعيتهما قبضاتهما عادا يستعملان أرجلهما.

يعقوب لحد الساعة يرفض أن يسقط و يقاوم مقاومة شرسة الآلام المبرحة و الجروح البليغة التي أحدثاها في جسده، و كي يصعب عليهما العمل كان يقفز و قدماه مقيدتان من دون توقف ما وسعه الأمر، لم يكن يفعل ذلك من باب التهرب من الضربات الموجعة فحسب، بل لغاية في نفسه، هي طريقة تكتيكية من فنون الحرب و المناورة يستعملها كلما وجد نفسه في ورطة شبيهة بالتي هو فيها الساعة، لا تخلو جعبته من وسيلة مثلى لتحقيق مرامه مثل الحاوي الذي لا يخلو جرابه من حيلة يسحر بها المشاهدين و يبيعهم السراب و الأحلام.

منحته المناورة التي يقوم بها الفرصة التي يبحث عنها و أملها طويلا و ظل ينتظرها على أحر من جمر الغضا، إذ أن أحد معذبيه و أكثرهما قسوة استند فجأة على الحائط يأخذ أنفاسه، ذراعاه متدليتان، رأسه إلى الأعلى و صدره في مواجهة يعقوب الذي لم يضيع الفرصة و قد سكنته مشاعر الغضب القاتل و منحته القوة الضرورية كي يمر للعمل : ضربة من كتفه جعلت الذي يتمادى في ضربه من دون رحمة يبتعد

بضع خطوات، أمهله يعقوب قليلا حتى يسترد المبادرة، ثم باعد ما وسعه المسافة بين رجليه و رمى بكل قوته و رأسه إلى الأمام و عضلات رقبته متصلبة تكاد تنفجر.

كانت الصدمة رائعة و مثيرة و رأسه يصدم قلب خصمه، لقد استمع بوضوح إلى أضلاع صدره و هي تتهشم و تتكسر، لم يصرخ الرجل أو يصدر تأوها إنما ذهب يسقط هامدا دون حراك مثل برج عال حطمته الأعاصير فوق يعقوب الذي تدحرج قبله على الأرض. أسرع الآخران يجذبان زميلهما و يضعانه جانبا يحاولان إنعاشه.

التقت عينا يعقوب بعيني غوندليزا و هي تنظر إليه مذهولة في عجب، نظراتها هذه المرة لا تحمل عدائية بل تضامنا معه و حبا له.

بينما كان الرجلان يحاولان إنعاش زميلهما بشتى الطرق، انتهز يعقوب الفرصة و بدأ يتململ و يتزحزح متمايلا ذات الشمال مرة و ذات اليمين مرة أخرى محنيا ظهره تارة و رافعا هامته تارة أخرى بكل ما أوتي من براعة و دقة ليفك أغلال يديه و قيود رجليه، خصوصا و قد لمح الرجل الثرثار يضع المسدس على الطاولة و يهب مع الآخر لنجدة زميلهما ؛ هذه هي الفرصة التي لا تعوض و لا تقدر بثمن، الرجل لم يستفق بعد و يعقوب متأكد من أنه أرسل به إلى العالم الآخر لأن ضربة بتلك الشدة و التركيز في القلب تؤدي غالبا إلى الإغماء و فقدان الوعي المفاجئ بسبب انقطاع وصول الدم المحمل بالأوكسجين إلى المخ.

انتصب الآخران و ملامحهما تشع بالإحباط و الغضب معا، تبادلا الحديث بلغتهما الأم للحظات كأنهما يبحثان القيام

بأمر ما لم يكن واردا و مقررا من قبل، ثم قاما برفع جسد زميلهما و أخرجاه عبر الباب الخلفي الصغير.

غمز يعقوب غوندليزا مشجعا... هما الآن وحدهما لكن ليس لوقت طويل، و قد بقي "البيريطا" على حاله فوق الطاولة.

قام يعقوب بحركات لولبية تجعل جسمه يثب و يقفز مثل جرادة حتى تمكن من إسناد ظهره إلى الجدار كي يستطيع الوقوف، و تمكن من ذلك بعد تعب و لأي و العرق يتصبب من جبينه المتورم و الدماء تغطي كامل جسمه، كان منظره يثير فعلا الاشمئزاز و التقزز. أخيرا و بعد قفزات متعاقبة من دون هوادة بلغ الطاولة، استدار نحو غوندليزا و سألها : هل يمكنك تحريك يديك ؟

حركت يديها بقوة على طول رجلي الكرسي الخلفيتين المربوط فيهما ساعداها... ثم واصل يعقوب قائلا :

الوقت لا يسمح، اسمعيني جيدا، سآتيك بالمسدس، خذيه في يدك اليمنى و عندما أستدير تطلقين النار بطريقة تقطع الوثاق الذي يشد معصمي، هل فهمت المطلوب ؟

لن أتمكن أبدا، (ردت خائفة) سأجرحك حتما.

تشجعي، هي فرصتنا الأخيرة، لو ضاعت منا... لا داعي أن أذكرك بالنهاية التي تنتظرنا معا، أنت في المقدمة طبعا، رد عليها بإصرار و إلحاح.

لم ترد عليه... أما هو فانحنى على الطاولة و عض جيدا بأسنانه على حامي الزناد لأن الوقت ضيق و عودة خصميه متوقعة في أي لحظة، و المسافة الفاصلة بين الطاولة و غوندليزا

جد شاقة ؛ اضطر إلى القيام في كل قفزة كي يتقدم، و السلاح الثقيل يهدد بالإفلات و السقوط من بين مسكة أسنانه في كل نطة ينطها... و ندم بعد فوات الأوان، فقد كان من الأفضل له جعل ظهره إلى الطاولة و أخذ المسدس بين يديه.

و أخيرا وصل و جلس على ركبتيه قرب المرأة المتحفزة و انحنى بحذر شديد إلى أن تمكن من وضع السلاح في يدها المفتوحة، تسللت المسدس من المقبض و من دون خطأ تسللت سبابتها إلى الزناد.

هل الأمر على ما يرام ؟ سأل يعقوب قلقا.

مدت رقبتها بصعوبة على كتفه الأيمن ثم قالت : التبس علي الأمر، لا أرى بوضوح.

تزحزح قليلا قدر المستطاع يدير لها ظهره و يرفع يديه بالمقلوب كي يسهل عليها ما وسعه ذلك مهمتها، و توتر فظيع يضغط على حلقه لأن ارتداد الرصاصة خصوصا و المسافة الفاصلة عن الهدف شبه منعدمة يشكل خطرا كبيرا، كما يزيد دنوهما من احتمالات إصابة أحدهما أو كليهما بجروح خطيرة و حتى مميتة لأن المسدس قوي جدا، لذا انبرى يوجهها طالبا منها إطلاق النار أفقيا.

ليت الأمر سهل مثل الكلام، ردت بصوت مرتجف.

ماذا يفعل الآن مع هذه المرعوبة التي ابتلته الظروف بها... واضح و جلي أنها لن تتمكن من فعل شيء و هي مضطربة، كان يعقوب يشعر ببرودة الأنبوبة على معصميه... و أخيرا اجتازت ذهنه فكرة جنونية قرر تنفيذها على الفور مهما كان

الثمن، الجنون الحقيقي أن يبقى يتحاور مع هذه المرعوبة إلى أن يعود الخصوم، و عندها...

ابتعد فجأة و هو يقول : أنت مرعوبة و متوترة، لن يمكنك فعل شيء.

لم ترد عليه لكنه كان يستمع إلى صفير أنفاسها المتهالكة بصعوبة.

ردي لي المسدس، أمرها و هو يمد يديه على جانب، استرد منها المسدس بيده اليمنى، ثم نجح في الوقوف مرتكزا عليها بمرفقه. تواجهه الآن معضلة أخرى، عندما يطلق النار على ساعده الأيسر سيصيب فخذه حتما، ماذا يفعل بحق السماء... ماذا يفعل ؟؟؟ قرر بسرعة البقاء على ذلك الوضع، فقط يسحب ما وسعه ذراعه الأيمن إلى أقصى نقطة تمكنه من وضع المسدس على مستوى فخذه الأيمن، وضعية مناسبة تمكنه من إطلاق النار بدقة كافية.

سأقضي عليهما حال عودتهما، أعلن لغوندليزا و هو يبتعد في قفزات قصيرة ينط مثل قرود البابوان ؛ و عاد إلى مكانه الذي غادره و استند على الجدار، من هذا المكان المميز يمكنه القضاء عليهما حالما يضعان أقدامهما داخل المرآب.

بدأ الانتظار و الترقب مع التوتر المصحوب بقلق يخيمان على جو المكان و يلقيان بظلالهما.

مجددا، أغلقت غوندليزا كافلو عينيها و قد غادرت الحيوية لون بشرتها و أصبح صقيعيا كأنها تتهرب من رؤية ما سيحدث بعد لحظات و تأبى في دخيلتها أن تكون شاهدة عليه.

يعقوب الآن في موقعه يتساءل إن كانت فرنشيسكا التي نسيها في خضم الأحداث المتواترة قد تفطنت لغيابه و طريقة اختفائه المريبة أم أنها لا تزال تغط في نومها مستذكرة ما جرى بينهما من أطروحات الجنس و الغرام في أحلامها العسلية... يسري الكاشف... ماذا يفعل المصري الآن ؟ كان عليه أن يفتش عن طريق يقودنا إلى غوندليزا، آه لو يحضر الساعة سيجدها، فكرة ليست بالسيئة و مجيئه و لو متأخرا سيكون له الأثر البالغ و الفعال في تغيير مجريات الأحداث.

ضجيج أصوات و خطوات سريعة... أدرك يعقوب أنهما قادمان، فتنفس بعمق و دفع "البيريطا" إلى جانبه الأيمن في وضعية التأهب للإطلاق في اللحظة المواتية، كل عضلاته اكتست صلابة و قسوة، و حواسه متحفزة حتى أنه لم يتنبه لغوندليزا التي أدخلت رأسها بين كتفيها و تسمرت مرعوبة ترتعد مثل أوراق الشجر في عز هبوب رياح الخريف و عواصفه.

أول من أهل بطلعته و ولج المرآب كان الرجل الثرثار و قد علت ملامحه انفعالات شديدة و غشيه غضب أسود، إنه متوتر إلى أقصى درجة، يتبعه زميله الآخر يضرب قبضتي يديه الضخمتين بحركة آلية تترجم الغل الذي ينوء به قلبه و قد حان له أن يبرزه للسطح و يترجمه إلى أفعال.

لقد قتلت زميلنا أيها الملعون !

صدرت عن يعقوب ضحكة قاسية صفراء...

سبقكما إلى الجحيم السفلي يعد لكما حفل استقبال مرتقب يليق بمكانتكما ! رد يعقوب متهكما يزيد من توترهما كي لا يتفطنا لغياب المسدس و ما يعد له.

ماذا تقول أيها الملعون ؟! رد الآخر و هو يهجم عليه، و في نفس اللحظة مال قليلا و أطلق النار، أحدثت الفرقعة ضجة هائلة و صخبا فظيعا، توقف إثرها الثرثار مكانه و يداه ترتفعان ببطء نحو موضع اختراق الرصاصة صدره، هو الذي كان يتقدم منه بسرعة عقب رده عليه دهشا ؛ رماه يعقوب برصاصة ثانية قرب معدته فانهار الرجل في الوقت المناسب كاشفا زميله الذي كان يحاول يائسا الوصول إلى الباب، لكن فرقعة تسبقه و توقفه عن إتمام مشروعه ؛ رصاصة تسعة مليمتر(9 مم) بين الكتفين توقف غالبا الشخص خصوصا من مسافة قريبة جدا، تجمد الرجل على درجة السلم يصارع الهواء بيديه كمن يحارب طواحين الهواء يحاول دون جدوى – و قد خارت قواه – تسلق السلم قبل أن يسقط بعنف إلى الخلف جثة هامدة دون حراك.

ظنك يوجد آخرون ؟ يسأل غوندليزا التي فتحت عينيها، لأن أذنيها كانتا ترصدان كل ما يدور نيابة عن حواسها الأخرى التي أعطتها إجازة حتمية في انتظار الحسم النهائي.

لا... لا أظن ذلك، رددت بصوت خافت متكسر مثل الهمس.

نط يعقوب مثل قط متمرس باتجاه الباب و انحنى على جثة ضحيته الأخيرة يتفحصها، من دون نقاش ميتة و ارتوت إلى حد الثمالة من ينبوع المنية ؛ بقي الآن أمر واحد يتمثل في التحرر من قيوده التي تعيق حركته كي يتمكن و رفيقته من مغادرة هذا المكان غير المضياف، أمر صعب للغاية، لكن عليه التحرك بسرعة... و بدأ يحث ذاكرته و يعذب مخه لإيجاد مخرج فوري من المأزق.

هل أسنانك صلبة و قوية ؟ سأل غوندليزا التي ردت بالإيجاب، فقفز نحوها و أدار ظهره لها.

هل يمكنك قرض هذا الحبل ؟

علينا أن نحاول و نتأكد، ردت عليه.

إذا مري إلى العمل من دون هوادة.

تراجع إلى الخلف حتى لامسها و رفع معصميه نحو وجهها.

إلى الأعلى قليلا و اسحب نحو اليمين. طلبت منه.

فعل ما طلبته و انهمكت المرأة تقرض الحبل بأسنانها مثل فأرة، أما يعقوب فقد شعر بالخجل و الانزعاج لوجوده على قرب شديد منها و هو على تلك الحالة من العري لا تستر عورته حتى ورقة توت، لكن العفة و الاحتشام لا مكان لهما في مثل هذا الموقف، العبرة بالنتائج، أما منظره الحالي فلا حيلة له فيه و هي تدرك ذلك و لا شك، أكيد أنها قد رأت آخرين قبله في هذه الوضعية ؛ مع كل ذلك فهو وسيم و بنيته الجسدية تغري النساء كما خبره من تجاربه السابقة، قال ذلك في نفسه و هو يبتسم... و فجأة توقفت غوندليزا عن العمل تأخذ أنفاسها.

هل أنت بخير ؟ سألها.

لا بأس، أظن أنني على وشك الوصول. و عاودت العمل بقوة و عنفوان. يعقوب الموجود في وضعية غير مريحة و غير مطمئنة بدأ يشعر بآلام في عموده الفقري ما اضطره إلى الوقوف لحظات ثم عاد إلى سابق عهده.

الدقائق تمر مع توقفات عن العمل بين الحين و الآخر و صبره يكاد ينفد، و عندما أعلنت غوندليزا عن نجاحها و تمكنها من

الحبل تحرر يعقوب على الفور من قيود يديه ثم رجليه و اهتم بعد ذلك بالمرأة، المسكينة لم تتمكن من الوقوف مباشرة لانقطاع دوران الدم و وصوله إلى أعضائها بسبب شدة الحبال و قوة ضغطها، ما جعله يسارع إلى دلك ساقيها، و يا لها من سيقان بلورية جميلة... ثم اضطر أن يتركها و يذهب و البيريطا بيده، يستكشف أسرار و أغوار الجهة الأخرى مما وراء الباب، لكنه حرص أن يطلب منها القيام ببعض الحركات الرياضية لتسريع سريان الدماء إلى كامل جسمها بسرعة و بالخصوص أعضائها السفلية التي تأثرت - بالإضافة إلى رباطها الوثيق - بشدة برد المرآب و صقيعه، و مكوثها الطويل متسمرة مكانها في تلك الوضعية الساكنة.

رواق، مطبخ خال، قاعة كبيرة مزدوجة الاستعمال للأكل و الجلوس، و جثة الرجل الذي قتله بضربة رأس في قلبه مرمية فوق أريكة ؛ شرع يعقوب في تعريته و تجريده من ملابسه، من حسن حظه أن القتيل يماثله قامة و مقاساتهما تقريبا متماثلة و ملابسه غير ملطخة بالدماء و غير مثقوبة بالرصاص، و خلال دقائق معدودة تغير يعقوب مستردا مظهره اللائق و هيئته المحتشمة رغم بعض مضايقات هندامه الجديد التي أزعجته لانعدام التوافق التام مع مقاساته، لكنه كان سعيدا، هذا خير له من أن يبقى كلوحة معروضة في الطبيعة أمام أعين غوندليزا و غيرها.

بلغ مسامعه فجأة صوت محرك سيارة، فالتحق بسرعة بالمرآب و المسدس في قبضته يتقدمه، كانت تنتظره مفاجأة غير سارة : غوندليزا لم تعد موجودة و الستارة الحديدية مرفوعة، خرج بسرعة ليشاهد غوندليزا تهرب على متن سيارة "الدودج لانسر"

بأقصى سرعة مع ولادة أول ومضات ملامح الفجر. بقي مشدوها ينظر إلى ما يجري و قد تسمر مكانه و ركبته عفاريت غضب عارم لوقوعه ضحية خيانة هذه الفاجرة و خداعها، لم يتمالك نفسه و أرسل سيلا من السباب و الشتائم البذيئة بكل اللغات التي يعرفها.

لما هدأ روعه قليلا و استرد بعض هدوئه و سكينته عاد إلى المنزل من خلال فنائه الماثل أمامه، منزل متواضع و عادي، دهانه الخارجي باهت... و لما طاف به و دار حوله اكتشف دراجة نارية تقف تحت حائط ثانوي مسنود إلى الجدار الكبير، غمرته فرحة كبيرة، هذا ما هو في أمس الحاجة إليه في الوقت الراهن كي يغادر هذا المكان الكريه المليء بالجثث قبل طلوع الشمس، و أكثر من ذلك هو يجهل المنطقة المتواجد بها الآن و إن كان لا يزال معه متسع من الوقت، لذا قرر العودة إلى المرآب و تفتيش كل المنزل.

من حسن حظي أن الجثث لم تبرح مكانها... قال هذا في سريرته ساخرا، و زار كل غرف البيت واحدة تلو الأخرى بما فيها الغرف العلوية و لم يعثر على شيء ذي بال، واضح للعيان بأن البيت غير مأهول على الدوام و كل من يحضر كان يلتزم السرية التامة و التكتم الشديد. لم يفته تفتيش الجثث و أخذ كل ما وجده بحوزتها و ملأ جيوبه مؤجلا فحصها لاحقا. امتطى الدراجة النارية و انطلق متبعا نفس خط سير الهاربة غوندليزا، و على مسافة مائتي متر من المكان وجد طريقه مسترشدا بمنارة الميناء التي تبدو عن بعد مثل برج إيفل، و بعد نصف ساعة تخلى عن الدراجة النارية و تركها ليكمل ما تبقى

له من مسافة قصيرة راجلا مع طلوع النهار و تلاشي الضباب المطرود من رياح الجنوب التي تكون غالبا إعلانا مسبقا عن قدوم عاصفة جديدة في الأفق.

مر إلى الشقة عن طريق سلم الخدمة، و وجد باب المطبخ كما تركوه عند خروجهم فأغلقه جيدا و ثبته بكرسي دعامة و حرصا، ثم عاد على رؤوس أصابعه إلى الغرفة ؛ فرنشيسكا لا تزال تغط في نومها في هدوء و سلام، و حينما اطمأن عليها ذهب مباشرة إلى الحمام، نزع ثيابه و اندس في حوض الاستحمام قبل أن يمتلئ فأحس براحة عميقة و رغبة جارفة إلى الاسترخاء و النوم، لكنه قاوم تلك الرغبة و قام بعد لحظات يداوي جروحه و يلطخها بكحول اليود الفعال، عاد بعدها مباشرة مسرعا إلى السرير و نيران غريزته تسبقه مهرولة.

لم يعتدل في رقدته حتى شعر بنصف جسم فرنشيسكا الشهي يقع عليه بكل نفائس حمولته، الرأس الجميل، الفخذ الجسيمة، النهد المتعجرف، عطايا و هبات نزلت عليه مثل رشات المطر على أرض بور تلتقطها تعبّ منها في اشتهاء تروي غليل عطش تربتها الجدبة المتصلبة تعيد لها ليونتها و شبابها فتزهر و تخضر لتصبح آية في البهاء و الجمال.

آه، حبيبي ! همست في أذنه، رائع... بديع، لم أشعر بالنشوة و اللذة منذ أمد طويل إلا معك الليلة حتى كدت أنسى حقي في الإمتاع و التمتع جراء تعويدي على حياة الراهبات مع من تعرف.

أدرك أنها تلمح لزوجها فاستهجن منها ذلك السلوك مستنكرا طريقة كلامها عنه هو المسكين الذي غادر الدنيا بطريقة مؤلمة

و قد يكون لها دخل بطريقة ما في الذي حصل له و في نهايته المأساوية. حاول صدها لكنه فشل إذ تنمرت و صممت على نيل مبتغاها منه رغما عنه، تشبثها من جهة و عنادها المتصلب من جهة أخرى زيادة على أنها مرغوبة و مشتهاة، كلها عوامل جعلته في نهاية المطاف ينصاع و يستسلم لرغباتها المحمومة و غرائزها الجياشة يمارس معها الجنس تطبيقا للحكمة الصينية القديمة القائلة : الجنس أحسن دواء لمعالجة التشنجات العضلية و آلام الظهر الطارئة و المزمنة.

انتفض يعقوب متذمرا و فتح عينيه لإحساسه بموجة برد تجتاح جسمه جعلته يعطس بشدة و هو يصرخ في وجه فرنشيسكا المائلة عليه : ماذا تفعلين أيتها المجنونة، هل تريدين أن أصاب بنزلة برد تقعدني الفراش أياما ؟ مع ذلك هو بديع ! قالها و هو ينظر إلى نهديها الثقيلين المستطيلين بدائرتيهما العريضتين المائلتين إلى السمرة... ثم تأتي البقية... كانت عارية تماما مثل يوم ولدتها أمها.

أرجوك، دعيني أنام و أرتاح، لم آخذ كفايتي من النوم، قالها برجاء مصطنع.

ردت عليه بصوت جاد : إذا أنا هي من فعلت بنفسها هذا ؟

أدار ظهره يقول محتجا : لم أفعل بك شيئا، أعيدي الغطاء لو سمحت. (كانت قد رمت باللحاف و البطانية على الأرض).

حسنا، (أكملت بلطف شديد) لقد أوقعت بنفسك و أريد منك أن تشرح لي ما حدث إن لم يكن هناك ما يمنع...

انتصب جالسا في مكانه يرد في حدة و هو منزعج : و ماذا بعد بحق السماء فعلت لك ؟

على نور مصباح ضعيف قرب السرير لأن الغرفة لا تزال عاتمة و أشعة ضوء النهار المتسربة في احتشام العذارى لم تكن تفي بالغرض، أشارت بأصبعها إلى مناطق جسمها قائلة :

انظر... هل رأيت الآن ؟

جيدها، نهداها، بطنها، فخذاها، سيقانها، جميعها كانت ملطخة و ملونة ؛ فكر يعقوب قليلا قبل أن يهتدي إلى أن هذه البقع المنسوخة على شتى مناطق بدنها هو المتسبب في حدوثها حين استعمل السائل على جراحه و اندس بعدها على الفور في السرير... فقال و هو يحاول إمساك نفسه بصعوبة عن الضحك :

يا إلهي ! يظهر أن كحول اليود لم يجف جيدا، ما يفسر الآثار المرسومة على مناطقك يا عزيزتي حينما استلقيت فوقي رغما عني تراودينني.

حتى فرجي لم يسلم و عبثا حاولت إزالة البقع لكنها تأبى و تتمنع، ردت شاكية.

أنا جد آسف لما سببته لك من ضيق و معاناة... لم يتمالك نفسه و رضخ منصاعا لنوبة ضحك طويلة بينما هي تنظر إليه و قبضتاها على خاصرتها تنتظر متصنعة الغضب نهاية وصلة ضحكاته المجلجلة.

تجد هذا مضحكا ؟ أما أنا فلا، عليك الآن أن تشرح لي بالتفصيل الممل ما حدث و تنورني.

أجلسها على جنب السرير و قص عليها باختصار كل ما مر به من أحداث و خطوب.

إذا... (ردت في قلق فجائي) انطباعي أن الأمور بدأت تتعقد و تبرز مخاطرها، صدقني إن قلت أنهم لن يستسلموا للأمر الواقع و يتركوك و شأنك، الأفضل لنا مغادرة البلد فورا من دون انتظار.

هذا مستحيل، (رد عليها يعقوب في تصميم) سنبقى هنا لأنني متأكد و على قناعة تامة بأن الشيفرة موجودة هنا في مكان ما لم تبرح بعد هذه الشقة، هل تريدين فعلا أن نتركها للآخرين ؟

نهضت بعنف و قد اصفرت ملامحها و تضعضعت.

أنت حر، ابق إن شئت، أما أنا فلا، الأمور ساخنة و أريد الإفلات بجلدي، لست مستعدة أن ألقى مصير شريف خان.

معك كل الحق أن تختاري ما ترينه يصلح لك، لا اعتراض من طرفي، افعلي ما تشائين.

أنا جادة فيما قلته و لست أمزح، ردت في دلال و هي تخرج متوجهة إلى الحمام.

نظر يعقوب إلى الساعة فوجدها تشير إلى العاشرة و هو لا يزال في حاجة ماسة إلى الراحة من معاناة أحداث البارحة، لكنه مضطر إلى القيام قبل أن تتجاوزه الأمور و لا تزال تنتظره أحداث جسام كي يحلحل هذه القضية. تبعها إلى الحمام يفتش في خزانة الصيدلانية عن مرهم مناسب لجروحه، ساعدته فرنشيسكا على وضعه خصوصا في المناطق التي لا تطالها يداه و يجد صعوبة في وضع المرهم عليها، ثم اغتسل و ارتدى

ملابسه و رمى بالملابس التي اقترضها من الميت جانبا في ركن و قد ذكرته بأنه لم يفحص بعد الأشياء التي أحضرها معه من ضحاياه، ففتح مصراعي نافذة الغرفة كي يرى جيدا و بدأ الجرد ؛ الجميع يحمل أسماء إيطالية و أذونات مؤقتة للإقامة بالجزائر، مبالغ مالية لا بأس بها أخذها و وضعها في جيوبه من دون حرج أو حياء معتبرا ذلك غنيمة حرب و تعويضا عما كابده و عاناه، كان هناك أيضا ثلاثة مسدسات 9 مليمتر، بيريطا و رادوم و ماغنوم 357، ثلاثة سكاكين و ثلاثة عصيات مطاطية، مصنع أسلحة صغير متنقل يستجيب لكل الطوارئ، لكن أغرب ما عثر عليه بطاقة تحمل اسم "أيغور ربوكوفسكي" مع رقم هاتف في إيطاليا !

رن فجأة جرس الباب فانتفضت فرنشيسكا مرعوبة و خرجت مسرعة من الحمام و نهداها يهتزان و فخذاها ترتجفان في تناسق تناغمي مثير، أمرها يعقوب بالتوقف و عدم إتيان أي حركة، ثم خبأ كل الحاجيات التي كان يفحصها تحت البطانية، و وضع مسدسه داخل جيبه و انطلق...

الجرس يقرع بشدة هذه المرة، اجتاز يعقوب الرواق في طريقه إلى الباب الخارجي، ثم التصق بالجدار قرب المدخل حرصا منه على تفادي إطلاق رصاص عشوائي من خلف الباب.

من أنت و ماذا تريد ؟

أنا يسري الكاشف، افتح بسرعة.

حسنا.

فتح الباب ليدخل المصري بسرعة و ملامحه توحي بالتوتر و القلق.

صباح الخير، أنا آسف ربما جئت في وقت غير مناسب، قال الكاشف و هو يغمز بعينه ناحية فرنشيسكا.

لم نكن نفعل شيئا سوى تبادل حديث ودي يا عزيزي عكس ما ذهب إليه خيالك، رد عليه و هو يضحك ما جعل الكاشف ينفجر بدوره في الضحك.

دلف الاثنان إلى الصالون و يعقوب يقول : لا تفتح النافذة لأننا لا نعلم شيئا عن السكان قبالتنا نأيا عن أي مشاكل محتملة نحن في غنى عنها.

حسنا فعلت، إذ يمكن لأي مترصد أو قناص أن يصيب هدفه بكل سهولة من مسافة قصيرة مثل هذه، (رد الكاشف مؤيدا) لكن ما هذه الكدمات و الجروح البادية على وجهك ؟

مرر يعقوب أصابعه بسرعة على وجهه و رد مبتسما : لقد راودت فرنشيسكا و حاولت اغتصابها لكنها تمنعت و قاومتني مثل قطة متوحشة مستعملة أظافرها و أسنانها، و الحاصل ما ترى.

أنت تمزح و لا شك ؟ رد الكاشف بنبرة مشككة.

فعلا، أنا أمزح معك. و انبرى يعيد للمرة الثانية القصة التي مهدت لها كدمات وجهه.

استمع إليه الكاشف باهتمام شديد دون مقاطعة أو طرح أسئلة و استفسارات، و ما أن انتهى يعقوب من سرده حتى أعلن الكاشف من دون انتظار : أنا أعرف الآن أين هي غوندليزا، يائسة كما هي لن تجد مكانا يأويها سوى الوكالة، كنت أراقب المكان بعد أن يئست من لقائك فلمحتها تنزل من سيارة "دودج لانسر"، أنت تعلم بأن منزل المدير يقع مباشرة

فوق الوكالة، قبل السابعة من هذا الصباح قدمت إلى هناك وحدها بمحض إرادتها في غياب أي إكراه أو قوة كما لاحظت.

حك يعقوب عنقه بشدة تعبيرا عن غضبه و سخطه و زمجر قائلا : يا للشيطان إن كنت قد فهمت شيئا ! كانت لها فرصة نادرة للإفلات بجلدها و ها هي تعود طواعية و بإرادتها ترتمي في أحضان الوحش المفترس ! غير معقول... شيء لا يصدق و لا يخطر على بال !

هز الكاشف رأسه موافقا و رد قائلا : يبدو أنهم يمسكونها من شيء أقوى و أكبر منها.

تأمله يعقوب برهة ثم قال : لكن لماذا لم تحاول الإمساك بها ؟

هز كتفيه و رد قائلا : كنت بعيدا نوعا ما، و كما أخبرتك كان اهتمامي كله مركزا على الوكالة، كنت منزويا في ركن متوارٍ عن الأنظار عندما نزلت من السيارة، الوقت اللازم كي أتعرفَ عليها، و كانت الملعونة قد دلفت داخل البيت.

كان يعقوب يستمع للكاشف و ذهنه منشغل و فكره يجوب يستقرئ الأحداث و يضع النقاط على بعض الحروف و لو مؤقتا إلى حين تنجلي الحقائق و يقطع الشك باليقين.

هل أنت متأكد يا صديقي بأن مدير وكالة النقل البحري من ضمن فريق خلية الجوسسة ؟

حرك المصري رأسه بقوة قبل أن يرد : كل التأكيد، يدعى "برونو لورنزوتي"، الاسم الإيطالي المستعار الذي يستعمله للتمويه، إنه روماني حارب مع الجيش الأحمر خلال الحرب العالمية الأخيرة و قدم إلى إيطاليا بعد نهاية الحرب كلاجئ بأوراق مزورة

تفيد بأنه هرب من إحدى معسكرات النازية، تمكن بعد عامين من نيل الجنسية الإيطالية و شراء وكالة الشحن البحري هنا من صاحبها الفرنسي، أو بالأحرى ورثته الذين غادروا الجزائر نهائيا، و ظني أن المخابرات الرومانية أو السوفييتية مَن زرعه و تقف خلفه دعما لوجيستيكيا و حماية.

هل يعلم الإيطاليون بنشاطاته ؟

هذا سؤال لا يمكنني الإجابة عنه الآن...

يمكنك أن تبلغهم بذلك... نحن في حرب كما تعلم و كل الوسائل مباحة.

بالتأكيد لا، (رد الكاشف بسرعة) لأنهم سيردون تحيتي و يكشفون تغطيتي.

أتفهّم ذلك، (رد يعقوب مبتسما) يوجد بينكم و بينهم اتفاق ضمني لا يجوز لأحد أن يتخطاه.

هو ذاك يا صديقي، علاقتنا بالمعسكر الشرقي لا تخفى على أحد و أنت بالذات تعرف و تدرك الوشائح الوثيقة التي تربط بيننا.

كيف هو هذا البرونو لورنزوتي ؟

رجل طويل، يميل إلى السمرة، ضخم و قوي جدا، على خده الأيمن ندبة تحتها مباشرة خانة.

ألقى يعقوب نظرة على ساعته ثم قال مستفسرا : في مثل هذه الساعة من المتوقع أن يكون في مكتبه بالوكالة ؟

قطب الكاشف حاجبيه الكثيفين و هو يرد : مهما يكن ليس في نيتك الذهاب لرؤيته ؟

أجبني على سؤالي و لا ترد على تساؤلاتي بأسئلة أخرى.

مبدئيا نعم، يتواجد غالبا بمكتبه في مثل هذه الساعة.

هل توجد وسيلة تواصل مباشرة بين مكتبه و شقته ؟

ظهرت تكشيرة تردد من الكاشف و هو يرخي شفتيه قبل أن يعقب : لا أظن ذلك، عليك أن تجد وسيلة المرور من الخارج.

حسنا، سأذهب لتأديب غوندليزا و تعنيفها، ردد يعقوب ساخرا.

هل حسبت مسبقا مقدار الأخطار المحيطة بك، أنت ترمي بنفسك في أتون جهنم، و إن كنت تتجاهل ذلك فأنت حتما لا تجهله.

الموت قضاء و قدر و أنا رجل مؤمن.

من أجل ذلك أنصحك أن تتريث لأن المؤمن الفطن لا يرمي بنفسه إلى التهلكة.

لا عليك من ذلك يا صديقي و دع الأقدار تجري في أعنتها.

عندما كان يعقوب يتوجه نحو باب الخروج استوقفه الكاشف قائلا :

كدت أنسى أمر فرنشيسكا ماذا أنت فاعل بها ؟

إنها هنا، لكن الرعب يركبها من رأسها إلى أخمص قدميها.

و بينما كان يتكلم، دخلت فرنشيسكا مرتدية ملابسها و في كامل أناقتها، سلمت على يسري الذي حدق في وجهها و هو ينحني من دون أن يرد، لم يستلطفها الكاشف منذ عرفها

عن قرب، معاملته لها تنم عن شكوك دفينة تساوره تجاهها لم تواته الفرصة كي يؤكدها، لكن حدسه يلح عليه بأن ظاهر هذه المرأة خلاف باطنها و عليه يتحتم التوجس منها و أخذ الحيطة و الحذر إلى أن يثبت العكس.

أنا خارج، بلغها يعقوب، لدي عمل مستعجل ينتظرني.

أذهب معكما، لا أستسيغ فكرة البقاء وحيدة، عقبت راجية.

لا يمكن أخذك معنا، إن كنت خائفة من البقاء وحدك سيتطوع يسري بالبقاء صحبتك.

فتحت بسرعة فمها و نيتها الظاهرة الرفض و الاحتجاج، لكن الكاشف سبقها مبديا ترحيبه بالفكرة و حسن استعداده :

بكل تأكيد، يسعدني البقاء رفقة سيدة جميلة نتبادل أطراف الحديث إلى حين عودتك.

ارتاب يعقوب و ساورته الظنون فجأة عندما لمح التعابير الغريبة البادية في عينيه... ربما هو أيضا يرغب فيها، أمر عادي لأن المرأة تثير مكامن الغرائز الغائرة في أعماق النفس البليدة، لكن ما فاقم في شكوكه و استغرابه هو رضوخ المرأة و استسلامها المفاجئ و غير المنتظر، خصوصا و أن ما رآه في السابق كان يوحي بأن التيار لا يمر بينهما و كلاهما غير مرتاح للآخر و يحاول الابتعاد عنه و تحاشيه قدر المستطاع.

كما تريد، سأبقى برفقة زميلك، قالت شبه هامسة.

تركهما يعقوب في الصالون و عاد أدراجه إلى الغرفة، أخذ حقيبة غوندليزا بكل محتوياتها و دسها في إحدى جيوب

معطفه الكبيرة ؛ غنائم البارحة و الغلاف الأبيض جميعها تمثل أدلة دامغة و مربكة على أكثر من صعيد، و من الوارد بعد كل ما جرى أن تتحرك أجهزة الأمن الجزائرية بقوة، إن توصلت إليه و فتشت الشقة سيجد نفسه في مأزق حقيقي تكون نتائجه وخيمة و محصلته كارثية، لم يعد الوقت كافيا كي يتخلص منها بنفسه لذلك عاد إلى الصالون يحمل معطفه على ساعده، وجدهما يجلسان متقابلين وجها لوجه من دون أن يتفوه أحدهما بكلمة.

يظهر أنكما تطبقان الحكمة التي تقول : إن كان الكلام من فضة فالصمت من ذهب. ثم طلب في عجالة من الكاشف أن يتخلص من كل ما ليس فيه فائدة أو أهمية و إيجاد مخبأ سري مناسب للباقي و بالذات الغلاف الأبيض.

ما إن وضع يعقوب رجله في الشارع حتى واجهته رياح عاتية تهب بعنف على المدينة و سحب داكنة من نوع OLUMUC-SUBMIN تجري في أديم السماء تستعرض متبخترة قوتها و جبروتها في زهو و تحدٍّ في إعلان مسبق عن قدوم اضطرابات و عواصف عاتية ببرقها و رعودها، بأمطارها و بردها و صقيعها.

دخل في معطفه بسرعة و وضع قبعته فوق رأسه ثم استوقف سيارة أجرة كانت مرت بالصدفة من أمامه، و في لمح البصر دلف داخلها و هو يطلب من السائق التوجه ناحية ميدان البريد المركزي.

لم تختمر بعد في ذهنه الكيفية المثلى و الوسيلة الناجعة التي توصله إلى غوندليزا لأنها خلطت أوراقه فاختلطت عليه الأمور و التبست أكثر إثر عودتها الإرادية من دون ضغط

أو إكراه من أحد إلى الذين يفترض أنها خانتهم، هل تجرؤ أن ترمي بنفسها في عش الزنابير طوعا ؟ هل عادت علاقتها بخليتها كما كانت في السابق أم أنها منذ البداية كانت على وفاق و وئام معهم و أن كل ما جرى مجرد تمثيلية لتضليله و دفعه عمليا أن يكشف أوراقه ؟ لكن لو فرضنا أن كل ذلك صحيح، لماذا لم تحاول أن تؤذيه حين سلمها المسدس في المرآب و كان من السهولة عليها بمكان القضاء عليه في أقل من ثانية، لكنها اكتفت فقط بالفرار منه من دون لمسة أذى بسيطة، و أكثر من ذلك كان بإمكانها القيام بتحذير الرجلين عند عودتهما إلى المرآب و هو الذي أعلن نيته المبيتة و تصميمه في القضاء عليهما.

لقد حيرتني هذه اللعينة و أربكتني جميع سلوكياتها، فعلا هي جملة كبيرة من المتناقضات الغريبة !

وصل ميدان البريد المركزي فنزل من السيارة و دفع أجرة التاكسي، ثم توجه على الفور إلى مقهى مقابل لإجراء مكالمة تليفونية.

ردّ عليه صوت أنثوي رقيق يخبره بأن السيد برونو لورنزوتي غادر الوكالة في سيارته و يحتمل بأنه لن يعود بعد الظهر.

احتسى مشروبا ساخنا و خرج منزعجا لأن الناس تنظر في فضول إلى كدماته و ملامح وجهه المتورمة، يستحيل التخفي و المرور دون لفت الأنظار إليه لذا قرر تطبيق القاعدة القائلة : « أحسن وسيلة هي الهجوم و مباغتة العدو على حين غرة من حيث لا يتوقع ».

مسافة عشر دقائق و وجد نفسه في ساحة "موريس أودان"، دخل المبنى حيث الطابق الأرضي مخصص لمكاتب الوكالة، ثم مر بثقة و عفوية من أمام حجرة حارس الأمن و صعد مباشرة إلى الطابق الأول.

شقتان متجاورتان لا يفرق بينهما سوى متر، و دون خوف أو تردد، دق جرس الباب الأول لأنه يقع مباشرة فوق الوكالة كما بدا له.

أليس هذا هو بيت السيد برونو لورنزوتي؟ بادر بسؤال امرأة في منتصف العمر يبدو أنها الخادمة و هي تفتح الباب.

لا سيدي، منزل السيد لورنزوتي الباب الثاني. و أغلقت الباب بلطف.

شكرا لك سيدتي.

دق جرس الباب و خطته بسيطة : إن فتح له السيد برونو فسيدعي أنه يبحث عن شخص ما و يختلق قصة مناسبة و يعتذر عن الإزعاج لأنه يفترض بأن مدير الوكالة لا يعرفه شخصيا، زد على ذلك وجهه المتورم الذي يجعله هو نفسه بالكاد يستطيع التعرف عليه. ثواني و يفتح الباب الممسوك بسلسلة و صوت أنثوي يسأل : من هناك ؟

رد يعقوب بنبرة مونولوجية سريعة : رسالة مؤمنة للسيد لورنزوتي، أحتاج إلى إمضائه من فضلك.

نزعت المرأة سلسلة الباب، فلم يفوت الفرصة و قدم رجله يمنع الباب أن ينغلق و هو يدفعه بكتفه.

صاحت المرأة محتجة : إيه... أنت، ماذا دهاك فجأة ؟

لم يرد لكنه أغلق الباب في هدوء و ابتسامة عريضة تزين وجهه، ربت على خدها بلطف ثم نهديها الكبيرين. كانت امرأة ضخمة، وجهها الفظ يوحي احمراره بوجه قروية من القرون الوسطى بعيون بقرية و شعر دهني كثيف، زادتها المفاجأة احمرارا و بشاعة.

هل السيد لورنزوتي هنا ؟

هزت رأسها بقوة سلبا و هي تقول : لا، سيدي ليس هنا، ما هذه التربية و الأسلوب الوقح في دخول بيوت الناس دون إذن منهم ؟

ردا عن تساؤلها الاستهجاني أخرج يعقوب ماغنومه و غرز نهاية الأنبوبة بين نهديها المتدليين، ما جعل لونها يتغير إلى الأخضر من شدة الرعب الذي ركبها و اعتراها.

لا تتحركي من مكانك أيتها البقرة السويسرية و توقفي عن هذه الحشرجة، ألا يمكنك التنفس مثل بقية البشر ؟ ثم مد يده و فتح بابا قريبا منه، إنها غرفة تستعمل في تخزين الأشياء الخاصة بتنظيف البيت و صيانته و الحافظة عليه، إنها بجد أفضل مكان يمكنه استيعاب مثل هذه الجاموسة، قال ذلك في نفسه و هو ينظر إليها و قد زاد امتقاع لونها و ارتعاشها.

كوني حكيمة، (نصحها محذرا) لو جاوز صوتك جدران هذه الغرفة فأنت تدركين النتيجة، قال و هو يلوح أمام ناظريها بالمسدس متوعدا.

أغلق عليها الباب بالمفتاح ثم توجه ناحية باب مزدوج شفاف يقع خلفه الصالون بأرائكه الفخمة تليه قاعة الطعام الفاخرة، كل شيء يدل على البذخ و ينم عن ذوق إيطالي

رفيع... كيف لا و الأثاث كله يعود إلى عهد نهضة إيطاليا "ريسورجيمونتو"، غرفة مرتبة جدا توحي من الوهلة الأولى أن من يحتلها رجل، تجاورها أخرى تسودها عتمة بينما شخص في السرير يغط في نوم عميق.

أضاء يعقوب الغرفة و أغلق الباب، فانتفضت غوندليزا من نومها متذمرة و أذناها تلتقطان صوتا مألوفا لديها.

صباح الخير حبيبتي، كيف هانت عليك العشرة و رحلت من دون أن تودعيني ؟ ردد يعقوب ساخرا.

رفعت اللحافة بعنف إلى الأعلى تستر نصف جسمها الأعلى العاري و هي تحك عينيها بيدها الطليقة. تملك نهدين رائعين تخالهما لأول وهلة تفاحتين من نوع "غولدن". تقدم يعقوب و جلس على حافة السرير و هو يضع المسدس داخل جيبه، الآن فقط عرفته و عادت إليها ذاكرتها بعد أن استفاقت جيدا من نومها، تنفست بعمق يشبه الارتياح و تأثير المفاجأة باد على محياها.

أنت ! ماذا تفعل هنا و كيف توصلت إلى مكان وجودي ؟ رددت و عيناها ترمقان باب الغرفة بتوجس.

أخرج يعقوب حقيبة اليد و وضعها برفق في حجرها، و رد عليها في همس لطيف :

أتيت لأسلمك حقيبتك، خلتها تحتل مكانة خاصة عندك و كي لا تتهميني أيضا بسرقتها منك، يمكنك فتحها و التأكد من محتوياتها بما في ذلك المال بتمامها و كمالها.

نزعت الحقيبة من حجرها و وضعتها إلى جانبها و هي تتحاشى النظر إليه.

أنت مجنون رسمي، (تمتمت) من أين دخلت و كيف تمكنت من دون أن يتنبه إليك أحد ؟

كان يتأمل شعرها الجميل المسدل فوضويا على كتفيها، ثم رد عليها مبتسما :

من الباب دخلت عزيزتي مثل كل الناس، أصلي متمسك بالمدرسة القديمة.

ارحل... أرجوك... أنت تقامر بحياتك !

أكثر أو أقل، هذه هي حياتي منذ أمد طويل.

أستسمحك، أنا مضطرة إلى الصراخ و إلا طالتني الشكوك.

افعلي إن راق لك ذلك، لكن تأكدي مسبقا بأن صراخك سيذهب سدى لأنه لن يسمعك أحد كي يهب لنجدتك، لورنزوتي ذهب في سيارته يتجول في المدينة و الخادمة محبوسة في غرفة التخزين، نحن وحدنا و في أمان.

يبدو أنها اطمأنت، استرخاء ملامحها و زوال توترها أوحيا ليعقوب بذلك الإحساس.

هل أعدت وضع سلسلة الباب ؟ سألت متلهفة.

طبعا أعدتها، عكس ما فعلت أنت عندما تركت باب شقتك السابقة حرا فدخل منه من تعرفين و أخذونا على غفلة منا و نحن في ذلك الوضع الرومانسي.

تبادلت معه النظرات لحظات و هما صامتان قبل أن تستلقي فجأة على ظهرها ممسكة باللحاف تحول دون انحساره أو سقوطه عن صدرها العاري.

لما لا تتركني بسلام بعيدة عن كل هذه المنغصات ؟ قالت في دلال يشوبه عتاب.

لم يسع يعقوب إلا أن يرسل سيلا من الضحكات الساخرة و التهكمية.

أجد نفسي مضطرا لأن أعاقبك بشدة، و هذا ما سيحدث لك إن لم تسرعي و تخبريني عن ماهية سلوكك الغريب و خلفيته المستهجنة.

خفضت عينيها مستغربة تحوّل الحديث اللطيف إلى تهديد و وعيد فجأة، و أرادت هي الأخرى أن تبرز عضلاتها و تتظاهر بالصلابة و الشدة فردت عليه بتحدٍّ :

ما تبحث عنه ليس عندي و لست مجبرة أن أعطيك شروحات أو تفاصيل إلا ما جادت به نفسي عن طيب خاطر، عليك الآن بأخذ بعضك و الخروج فورا من الغرفة و مغادرة الشقة و إلا كنت الجاني على نفسك.

اجتاحته ثورة غضب عارمة جعلته ينتفض و يهب واقفا يصفعها صفعات قوية متتالية أجبرتها على إرسال صرخات قوية و ترك اللحاف يسقط مرغمة لتحمي وجهها. جذبها من ذراعها، فوقفت عارية مثل دودة و قلبها مثل كسرة خبز، خاطبها قائلا بصوت قاس و نظراته في تناغم مع ملامحه التي أخذت صبغة متوحشة و شكل مفترس : سترين التأديب الذي حذرتك منه منذ برهة ! ثم أمسك بها بقوة بيد و أخذ يضربها بالأخرى بكل ما أوتي من قوة.

بدأت غوندليزا تصيح و تصرخ ملء فيها بكل قوة حبالها الصوتية، فغطى رأسها بوسادة في محاولة منه التقليل من شدة

انبعاث صيحاتها المدوية، ثم أعاد الكرة بشدة أكثر لتتحول بسرعة أردافها الممتلئة من الأبيض الناصع إلى الأحمر الفاقع، و هي تتحرك و تتموج في جميع الاتجاهات تحاول الوصول إليه بأقدامها. استمر على ذلك المنوال في تلك الوضعية إلى أن وهنت و كلت يده و أصابها الألم فتوقف و نزع المخدة و أعادها مكانها و صاحبتها إلى وضعهما الأول. كانت مستلقية على ظهرها تبكي بحرقة و ملامحها محتقنة من شدة الآلام المبرحة و المخدة التي كانت تخنق أنفاسها و تعيق تنفسها.

إن كان هذا غير كاف سنجرب شيئا آخر أبلغ تأثيرا و أكثر نجاعة، دمدم مزمجرا.

غطني أرجوك... لا أحتمل و لا أستأهل كل هذا العذاب منك. قالت راجية في تذلل.

لم يظهر يعقوب أي تعاطف معها و رد عليها بحسم : لا...

أخذت الوسادة من جانبها و وضعتها على بطنها تستر بها ما وسعها أسفل بطنها و فرجها و نوبة من البكاء تغشاها، غزارة عبراتها تترجم فوق آلامها إحساسا بالقهر و الإذلال.

ثم بدأ يؤرخ مسار حياتها دفعا لها للتجاوب و التعاون معه فيما ينتظره منها : باختصار، كنت عشيقة شريف خان تقدمين له خدمات خاصة و فجأة قررتما الهروب معا إلى "بابيتي" في بولينيزيا الفرنسية، و لإيجاد المال المطلوب و الضروري لمغامرة وخيمة العواقب و محفوفة بالمخاطر سلّمتِ شيفرة سرية لعشيقك، و هو بدوره عرضها علي لكن لسوء حظه تمت تصفيته قبل إتمام الصفقة، في نفس الوقت تم اكتشاف أمرك و احترقت أوراقك

أمام رؤسائك فقرروا ترحيلك و إعادتك إلى إيطاليا، تمكنت من أن أنزعك من بين براثنهم و تخليصك من مصير أسود ينتظرك، و اعترافا منك بالجميل هربت مني، أنقذتك مرة أخرى من وضعية صعبة لا تحسدين عليها و تعاودين الكرة و تفرين مني، لكن الأدهى من كل هذا عودتك الطواعية مباشرة إلى وكر من كان منطقيا أن لا يمكنك التفكير لحظة في مجرد مصادفته في الشارع... أنتظر منك تفسيرا مقنعا لكل هذه التصرفات المتناقضة و المتضاربة.

كفكفت دموعها و ردت متحسرة : عائلتي كلها موجودة في رومانيا... و الباقي لا يغيب على فطنتك.

أرسل يعقوب صفيرا خافتا من بين أسنانه و قال :

أفهم ذلك و أستوعبه جيدا، هددوك بالقضاء على عائلتك إن لم تتبعي الطريق السوي و تنفذي كل ما يطلب منك القيام به.

نعم، هذا هو الأمر بكل حيثياته.

عادت مرة أخرى إلى البكاء و النحيب و استدارت قليلا على جنب تعدل من قعدتها لأن أردافها تؤلمها أشد الإيلام.

الأمور قبل ذلك ؟ سأل يعقوب.

أخذت نفسا مثل الشخير و لحست شفتيها ثم قالت : قبل ماذا ؟ لم أفهم قصدك.

قصدت عندما كنت سترحلين مع شريف خان إلى "بابيتي"...

هزت كتفيها في استهانة و عدم اكتراث قائلة :

لم أكن أفكر في الأمر، كان شريف خان يأسرني بفتنته و يحيطني بحبه، كنت متعلقة به إلى درجة لم أفكر معها في عواقب الأمور.

هل كنت تعلمين بموت شريف خان و أنت على وشك ركوب الباخرة ؟

ترقرقت الدموع في عينيها و هي ترد : بالقطع لا، لم يخبرني أحد بذلك.

حسب رأيك كيف حدث ذلك ؟

الآن أصبحت ترد و تجيب من دون تردد أو تحفظ، لقد أتى التأديب أكله لأن آخر العلاج الكي كما يقول المثل الشائع.

من المحتمل أن أحدا قد أخبرهم بعلاقتي مع شريف، و المؤكد أنهم على اطلاع بماضيه الاستخباراتي لذا لم يتوانوا في اتهامي بالانحراف و التعامل مع عدو، فحكموا علي و أجبروني بأن أعود إلى إيطاليا و هناك يتقرر مصيري، لو رفضت سيقتلون شريف خان و كافة أسرتي فاضطررت مكرهة إلى القبول و الإذعان.

كانت تتكلم و عيناه تلاحظانها و تتبعان حركات عينيها لأن هذه الأخيرة دائما هي الأصدق من اللسان. يظهر أنها تقول الصدق إلى حد الآن على الأقل...

و مع ذلك (قال بهدوء) فقد عدت إلى شقتك لأخذ الغلاف الأبيض !

للتخلص منه لأنني كنت خائفة جدا أن يسبقوني للتفتيش بسبب منعي من العودة إلى شقتي قبل رحيلي.

كنت تريدين أخذ الشيفرة أيضا أليس كذلك ؟ قال هذا بصوت أراده أن يكون خاليا من أي شعور أو إحساس، حيادي إلى أبعد الحدود.

حدقت في وجهه بعينيها الكبيرتين الممتلئتين دموعا و حسرة قبل أن تقول : هل تظن حقيقة بأن شريف خان يكون قد خبأها في شقتي ؟

بدون تردد و من دون انتظار انهال عليها بصفعة قوية.

إلى متى و أنت تحاولين لعب هذه الأدوار الخداعية و الاستخفاف بعقلي، تظاهرك بالسذاجة و البلاهة لا ينطلي علي، لستِ أنتِ من سينجح في التلاعب بي و إلا كان غيرك أشطر، هل فهمتِ ؟

مدت يدها لا شعوريا تمرر راحتها على وجنتها الملتهبة من شدة الألم، ثم ردت بصوت يرتعش :

أقسم لك بأنني لم أكذب عليك أو أحاول خداعك.

لا أصدق كلمة واحدة مما تقولين.

عندما هم بصفعها من جديد وصل أذنه صوت جرس الباب الإيقاعي يرن من دون توقف فتسمر في مكانه، أما غوندليزا فقد داهم لونها اصفرار و شحوب الأموات، و همست بصوت مختنق : إنه لورنزوتي، سيقتلنا... سيقتلنا، أنت لا تعرفه !

أحس نحوها بتعاطف و شفقة، فرد قائلا : ما عليك إلا أن تخبريه بأنني عذبتك و صرعتك. و أرفق قوله بالفعل فلم يترك لها الفرصة لتعقب و أرسل لها لكمة خاطفة رست في

مقدمة ذقنها، و قبل أن تدرك ما يحدث لها انهارت فاقدة الوعي.

غادر الغرفة و مسدسه في يمينه، بينما وتيرة رنين الجرس تزداد ارتفاعا مصحوبة بقرع هستيري على الباب و هو يقطع الرواق. لقد نفذ صبر السيد برونو لورنزوتي...

أنا آتية ! (همس يعقوب)، ثم سأل مقلدا ما وسعه ذلك صوت الخادمة : من بالباب ؟

صوت قلق نبراته غاضبة يرد : افتحي بسرعة، أين كنت أيتها البقرة الغبية ؟

لم يرد يعقوب لكنه نزع سلسلة الأمان و فتح الباب، و وجه مسدسه يستقبل القادم قائلا : تقدم و ادخل بهدوء.

السيد لورنزوتي رجل وسيم، يماثل يعقوب في قوته و قامته، الندبة و الخانة على خده الأيمن ارتعشتا من هول المفاجأة غير المتوقعة، رفع غريزيا يديه و دخل يسير الهوينى بخطوات جنائزية يتبعه بالتزام ماغنوم يعقوب.

أهلا بك صديقي العزيز، كيف الصحة ؟ ردد يعقوب ذلك بلطف على مسامعه، و على حين غرة و دون انتظار رده انسل إلى الخارج ساحبا بشدة الباب خلفه، أخفى مسدسه في جيبه و نزل يدندن موهما كل من يصادفه أنه كان في جلسة حميمية مع حبيبته أو عشيقته... حيا في بهجة البواب الواقف أمام مقصورته و خرج من دون أن يسأله أو يهتم بأمره.

سار يحث خطاه مدة عشر دقائق مغيّرا عدة مرات خط مساره إلى أن تأكد بالمطلق أنه لا يوجد من يتبعه أو يتعقبه، و مر على كشك في طريقه فاشترى رزمة من الجرائد، ثم ركب

سيارة أجرة و أعطى الوجهة للسائق ؛ و ما إن بدأ يتصفح جريدة "لوموند" الفرنسية حتى وجد عنوانا ببنط عريض يستعرض أحداث احتراق منزل شريف خان، و من بينها خبر محيّر يخص اكتشاف جثة متفحمة تعود إلى دبلوماسي روسي يعمل في سفارة بلاده في روما يدعى "أيغور ربوكوفسكي"، خِرَق الحبال المختلطة مع بقايا الجثة توحي بأن الرجل قضى مقيَّدا مثل قطعة لحم ربطت كي لا تتسرب حشوتها.

أيغور ربوكوفسكي... لقد وجد بطاقته في جيوب مهاجميه البارحة... أعاد قراءة الموضوع بتأنٍّ فوجدهم يتكلمون عن الحريق و الرجل الأجنبي العجيب الذي تبخر في الطبيعة بعد قيامه بصرع شرطي عندما حاول توقيفه، تضيف الجريدة بأن الرجل الغريب هو الآن محل بحث حثيث من طرف أجهزة الأمن المختصة مع إعطاء أوصافه التقريبية حسب شهود عيان و في مقدمتهم الشرطي المعتدى عليه، كما يجري بحث متواصل على أصحاب المنزل السيد (ش خ) و حرمه اللذين اختفيا ليلة الحادث و لم يظهر لهما أثر إلى حد الآن. تصفح بقية الجرائد الجزائرية مثل يوميتي "الشعب" الناطقة بالعربية و "المجاهد" الناطقة بالفرنسية، فتعجب أشد العجب إذ لم تتطرق أي منهما و لو تلميحا بسطر واحد لتلك الحوادث التي هزت عاصمة البلاد يتناقلها الناس و يتحدثون عنها في كل مكان. طوى الصحف في عصبية و قد أيقن بخطورة الحالة التي آلت إليها الأمور بالنظر إلى ما نقلته جريدة لوموند التي يعلم يقينا أن المصادر التي تزودها بالمعلومات و الأخبار الخطيرة تتواجد في أعلى دواليب أجهزة السلطة و صانعي القرار، و بهذا سيجد

كل أجهزة الأمن الجزائرية تتعقبه لإلقاء القبض عليه و هو لم يتمكن بعد من وضع يده على هذه الشيفرة الملعونة.

توقف التاكسي، دفع يعقوب الأجرة و نزل يسرع الخطو... سيصيب فرنشيسكا الذهول و يكسو الاستغراب ملامحها عندما يلقي على مسامعها بآخر المستجدات.

صعد على مهل، و فتح الباب دون أن يقرع الجرس، ثم دخل فوجد الصالون في حالة يرثى لها، فوضى عارمة، الأشياء مرمية في كل مكان و في شتى الأوضاع، خال نفسه في ورشة يتوسطها الكاشف الذي تغير لونه جراء الغبار الأسود الذي علا ملامحه، و ما إن لمح يعقوب حتى انتفض واقفا يقول : إنني أدقق بمنتهى الصبر في كل قطعة و قشة، كي لا يفوتني شيء حتى لو كان في حجم سم إبرة، و ما دمت تؤكد بأن الشيفرة موجودة هنا يتوجب علينا إذا العثور عليها و بأسرع وقت.

بديهي، (رد يعقوب) لكن الأفضل منه أن نبادر إلى التخلص منها و بسرعة بعد الانتهاء من فحصها. ثم رمى له بجريدة لوموند طالبا منه قراءة آخر المستجدات الواردة في الصحيفة.

انهمك الكاشف يتصفح الجريدة بصعوبة فأدرك يعقوب على الفور من طريقة مطالعته أنه لا يحسن جيدا الفرنسية، فأخذها منه بلطف و قال من دون أن يحرجه : ربحا للوقت سأعطيك حوصلة مختصرة لما هو مكتوب و هذا أفضل.

توجه بعدها يعقوب إلى المطبخ يحضر كوب ماء لكنه لم يخطُ خطوات حتى لفتت انتباهه أيقونة تمثل مريم العذراء معلقة

على الجدار المقابل، أيقونة جميلة و موضعها لا يثير الانتباه بدليل أنه لم ينتبه لها إلا الساعة.

أصبحت الأمور تزداد خطورة... قال الكاشف و هو ينظر في عينيه.

لم يجبه لكنه بادر بسؤاله فجأة مغيرا اتجاه الحديث : أين هي فرنشيسكا ؟ هل هي نائمة ؟

بالطبع لا، لقد غادرت المكان...

ماذا تقول ؟! (أذهلته هذه المفاجأة التي لم يكن يتوقعها).

رحلت لأنها كانت خائفة من البقاء هنا بكل بساطة.

لماذا تركتها تذهب و لم تحاول منعها ؟ زمجر يعقوب.

لم تطلب الإذن مني و أنت تعرف تعنتها، (غمغم الكاشف) الملعونة تسللت هاربة مستعملة في فرارها سلم الخدمة.

اللعنة ! (رد يعقوب) لا ينقصنا إلا هروبها المريب و في هذا الوقت بالذات.

لا يهمنا هروبها، سنتجاوزه، و بقاؤها أو ذهابها لا يفيدنا في شيء، و حسنا فعلَت أن خلصتنا بمحض إرادتها من عبء وجودها و حررتنا من الانشغال و الاهتمام الدائمين بتأمينها و الحفاظ على حياتها.

اشتم يعقوب شيئا يجهل كنهه من موقف المصري أثار ارتيابه و استغرابه معا.

هل أنت متأكد من أنها لم تغادر الشقة بسببك مثلا ؟

رمقه الكاشف بتحدٍّ و رد عليه : أنت لست على ما يرام كما يبدو، توقف عن هذا الهراء، أنت لست في موقع من

يستجوبني من أجل هذه العاهرة التي لا تستحق في نظري كل هذا الاهتمام الزائد و المبالغ فيه من طرفك.

أذعن يعقوب للأمر مؤقتا و توقف عن مشاكسة الكاشف و إثارته.

هيا بنا إلى العمل، لم يعد لدينا الوقت الكافي، قال ذلك و هو ينزع معطفه الشمعي قبل أن يضيف : لنقلب هذه الشقة رأسا على عقب و نجعل أعلاها أسفلها.

وقف يعقوب بعد ساعات بصعوبة و هو يضغط على جنبيه، لم يعد قادرا على الاستمرار فارتمى منهكا منهارا في ركن على أريكة مهلهلة ؛ حالة المصري لا تختلف عن حالة يعقوب و إن استمر يعمل بطريقة رديئة ظاهرة للعيان من شدة التعب و الإرهاق... مسح يعقوب براحة يده العرق المتصبب من جبينه يشق طريقه في مسارات حفرها من خلال الأغبرة المتطايرة التي التصقت بوجهه، ثم نظر في ساعته التي كانت تشير إلى التاسعة ليلا و هو لا يزال على لحم بطنه منذ الصباح و قد أرغمه العياء على نسيان جوعه، تأمل ببطء و تأنٍّ المنظر المؤسف حوله و الخراب المتسبب فيه هو و زميله بعد أن فحصا و محصا كل شيء و حطما كل ما أعاقهما، لم تعد هناك من أرضية أو ستائر أو أرائك أو أسرّة، كل الأثاث حل و فك و تحول إلى قطع غيار متفاوتة الأحجام و الأوزان، منظر حزين يوحي و يعطي الانطباع بحلول إعصار مدمر ضيفا ثقيلا على هذه الشقة.

أظن أننا لم نفوّت شيئا إلا و غربلناه، تمتم يعقوب متوجسا.

رفع الكاشف رأسه بصعوبة و العياء باد عليه ليرد :

لا، بقي أمر أخير، علينا بهد الجدران و تدمير أنابيب الصرف الصحي و المواسير. الحقيقة أن هذه الأخيرة لم تفلت منهما فقد سبراها و تحسساها شبرا بشبر.

حك يعقوب عنقه بصعوبة و قال متثائبا في أسى : عندما ترى مالكة البيت ما حل بشقتها سيتوقف قلبها عن الخفقان و تقع مغشيا عليها.

كل هذا التعب من أجل لا شيء في نهاية المطاف، رد الكاشف في شبه احتجاج و هو يبصق على الأرض.

شعر يعقوب بتسرب يأس عميق في أوصاله، و تساءل متأثرا : ماذا بحق السماء يمكننا أن نفعل الآن ؟؟؟

رفع الكاشف يده إلى الأعلى في إشارة إلى عجزه قبل أن ينبري قائلا : يحسن بنا التخلي عن الأمر و نسيانه تماما و الاحتراز من الشرطة في هذه المرحلة المتوترة.

ضغط يعقوب على أسنانه دلالة على توتره و حنقه و رد عليه : أنت لا تدرك كم تؤلمني بمثل هذا الكلام المتخاذل، عمري كله لم أتراجع أو أرفع راية الاستسلام، و عندما أبدأ عملا أتممه حتى النهاية، هذه قاعدتي الأزلية و قناعتي التي لا تتزعزع، و إن كنت ترى غير ذلك فأنت حر في نفسك و من التزامك معي و لن أحملك على ما لا طاقة لك عليه.

و ماذا بعد ؟ قال المصري و هو يباعد ما بين رجليه و يرفع ذراعيه الطويلتين في إشارة منه إلى انتظار تدخل السماء لإنقاذهما من وضعيتهما المحيّرة على أكثر من صعيد.

علينا أن لا نستسلم للأمر الواقع و أن نحاول فعل شيء يخرجنا من ورطتنا هذه... (همس يعقوب بتصميم واضح)، نعم... أي شيء مهم جدا الآن ؟ أن نجبر الآخرين على التحرك و الخروج من أوكارهم !

ألم يخامر ذهنك مثلا بأن غوندليزا تعرف مخبأ الشيفرة و قامت بتدميرها أو بنقلها إلى مكان آخر ؟ ردّ الكاشف.

أنت تدرك أنه في مهنة مثل مهنتنا كل شيء ممكن و اللّامعقول يتحول إلى معقول (رد عليه يعقوب موافقا)، لكنني لا أظن ذلك ممكنا لأن شريف خان ليس بالرجل الساذج، عميل سابق نعم، لكنه ظل يحتفظ بدهائه و مناوراته، أنا خير من عرفه و خبر قدراته و أعترف له بالذكاء و أقر له بالمهنية، كان يعرف كيف يستفيد من تجاربه و يستغل علاقاته السابقة، لذلك فأنا متأكد من أنه برغم علاقته المميزة بغوندليزا لم يطلعها على المكان الذي خبأ فيه الشيفرة، ضمانته الوحيدة كي لا تتحول عنه و ترفض الرحيل معه أو تتلاعب به، هو يعلم بالقطع، و الرجل كما أسلفت لا تنقصه الخبرة و الدراية بعالم النساء، بل هو موسوعة معارف في هذا الميدان لا يجارى و لا يشق له عباب، أقول هو يعلم بأنه في مهنتنا لا يمكن أن نثق أبدا في النساء و لا يجوز أن نطلعهن على أسرارنا و خصوصياتنا، هذه كما تعلم يا صديقي من أهم الدروس التي يتلقاها كل رجل مخابرات أثناء تكوينه، أن يحذر النساء و لو كانت أقرب قريباته بما فيهن أمه و زوجته.

في هذه أوافقك على طول الخط، ردد الكاشف بمرارة لم تفت يعقوب الذي حدق فيه بفضول، هل عانى هو أيضا من تقلب

نزوات الجنس اللطيف ؟ و لِم لا... لا أحد بمنأى مهما أوتي من إرادة و حكمة، قال في سريرته.

أصبحت تراودني اللحظة فكرة مغايرة للأصلية، ربما كان شريف خان لا يقصد الشيفرة لما تمتم : « عند غوندليزا... ».

ألقى عليه الكاشف نظرة باردة و هو يقول : أليست هذه نكتة أخرى ؟ ألم يكن ميتا عندما وجدته و عثرت عليه كما أخبرتني ؟

هل راودتك شكوك فيما قلته و رويته لك ؟

لا مطلقا، ظننت فقط أنك تفعل ذلك من باب التأثير على المرأة.

انقطع بعدها الحديث بينهما لثوان قبل أن ينبري يعقوب قائلا : أول خطواتنا أن نعثر على فرنشيسكا و بسرعة.

اهتز الكاشف و هو يحملق في وجه يعقوب : لن يكون الأمر سهلا هذه المرة، أرجح أنها رحلت إلى مكان بعيد.

ربما، لكنك نسيت أمرا جد هام، إنها لا تملك مالا فكيف يمكنها الرحيل بعيدا ؟ رد يعقوب معترضا.

ضحك الكاشف ملء فيه و هو يرد : أنت مخطئ يا صديقي، عندها كل ما يلزم للحصول على المال و على كل ما تريد متى أرادت، إنها بنك متنقل... (في إشارة واضحة إلى مفاتن جسدها).

هز يعقوب رأسه موافقا لأن الهواة موجودون و على استعداد لدفع الثمن الباهظ مقابل الحصول على المتعة من امرأة مثل فرنشيسكا تمتلك كل أسلحة الإغراء و الفتنة التي تجعل الرجال

يلهثون خلفها و يركعون تحت رجليها... اقشعر بدنه و هو يتذكر أحضانها الدافئة، عناقها الحار و نيران غرائزها الملتهبة، لكنه طرد بسرعة تلك الأفكار و عاد إلى ما يؤرق مضجعه و يشغل باله.

علينا بالعثور عليها و بأقصى سرعة، الآن هي الوحيدة التي يمكنها أن تدلنا على المكان الذي لجأت إليه مع شريف خان بعد تفجير منزلهما، المنزل يقع في نواحي الحراش و يجاور محطة قطار أو تراموي، هذا كل ما أعرفه.

حسنا، (رد الكاشف بسرعة) سأهتم بالأمر.

يتعلق الأمر على ما أظن بشقة صاحبتها الأصلية الغائبة غالبا.

جيّد، رد الكاشف و هو ينهض بصعوبة من شدة وطأة التعب.

خلال ذلك كان يعقوب يفكر أيضا في أمر آخر لم يفصح عنه بعد.

أين وضعت الأشياء التي طلبت منك إخفاءها ؟ سأل يعقوب فجأة.

من فوق منكبه العريض، أشار الكاشف بأصبعه ناحية سلم الخدمة : وجدت بلاطة تتوفر فيها شروط الأمان و السرية، تنزع و توضع بسهولة تامة، مخبأ مثالي، لا يمكن للجن الأزرق أن يصل إليها أو يتفطن لها.

لو سمحت أحضرها الآن، طلب يعقوب.

وافق الكاشف متذمرا و ابتعد يسير بخطى حذرة بين البقايا و الحطام من كل نوع و شكل تغطي أرضية الرواق الذي تحوّل إلى ما يشبه ميدان حرب.

لا تزال كلمات شريف خان و هو يحتضر تلح على يعقوب بشدة : « في صندوق... عند غوندليزا »، الكلمات الأخيرة التي نطق بها شريف خان بالإيطالية لا تريد أن تترك ذهنه أو تبرحه لأنه و هو يودع الدنيا لا يمكنه أن يكذب عليه أو يخدعه، لكن أين هو هذا الصندوق اللعين ؟ الصناديق التي وجدها عند غوندليزا لا يوجد بها شيء من قريب أو من بعيد يمكن أن نسميه شيفرة، صحيح في تلك الأثناء لم يكن شريف يتمتع بكامل قواه الذهنية، لكنه تعرف عليه و هذه حقيقة لا يمكن أن يشوبها الشك أبدا أو القفز فوقها... أخرجه من تفكيره عودة الكاشف و الخيبة تطل من عينيه و يداه خاليتان إلا من بطاقة الرجل الذي وجد محترقا في منزل شريف خان.

لقد اختفى الغلاف الأبيض، أعلن الكاشف و هو يسلم الورقة إلى يعقوب.

هل وضعت كل الأشياء مع بعضها البعض ؟ سأله يعقوب.

نعم وضعتها في نفس المكان و لم أكن أملك الخيار.

هل رأتك فرنشيسكا و أنت تفعل ذلك ؟

و أكثر من ذلك، هي من اقترح فكرة المخبأ و الموضع.

الآن فهمت، تكون هي من سرق الغلاف، لو كان غيرها لأخذ كل شيء.

قطب الكاشف جبينه ثم قال : لكن لماذا ؟

توجد بالغلاف تذكرتا سفر إلى "بابيتي" إحداهما باسم السيدة خان، ستحاول استرداد ثمن التذكرتين و إن استعصى الأمر عليها فستركز على الخاصة بها، مبلغ لا بأس به أليس كذلك ؟

قهقه الكاشف و صدره يهتز مثل راقصة شرقية : هذا لم يعد ممكنا لها يا صديقي، هل نسيت بأنها و زوجها جاري البحث عنهما، لو حاولت السفر أو استعادة ثمن التذكرتين سيتم القبض عليها فورا.

لكن بدورك نسيت أنت أيضا يا صديقي بأنها ليست على علم بأنه مطلوب القبض عليها و زوجها عندما هربت هذا الصباح.

لما حاول الكاشف أن يتكلم رن فجأة جرس الباب بشدة متزامنا مع قرع شديد ؛ تبادلا نظرات قلقة و لم يتفوه أحدهما بكلمة، لكن يعقوب أخذ المبادرة : علينا أن نعرف أولا من القادم.

ثم قام و توجه نحو الباب و هو يبذل قصارى جهده كي لا يتعثر أو يقع فوق أرضية الغرفة المتناثرة في كل شبر.

مَن ؟

شرطة... افتح بسرعة ! رد عليه صوت أجش.

توقفت أنفاسه... لم يعد ينقص إلا الشرطة ليكتمل المشهد الدرامي... ليس لأن الأمر فاته فقد كان متخوفا من وقوعه، لكن حدوثه بأسرع مما تخيله هو ما أثار استغرابه و حفيظته.

لحظة لو سمحت، كنت في الحمام سأرتدي ملابسي. ثم انسحب بسرعة عائدا إلى المصري.

إنها الشرطة، لنهرب من سلم الخدمة إن لم يفت الأوان بعد.

عاد القرع على الباب هذه المرة بشدة أكثر تصم الآذان، تنم الأصوات المصاحبة لها الآمرة بفتح الباب فورا عن نفاد صبر أصحابها.

مر الرجلان بسرعة البرق إلى المطبخ آخذين أثناء مرورهما حاجياتهما. فتحا الباب بتأنٍّ و هما يسترقان السمع، و عندما لم يصلهما ما يريبهما و الهدوء يخيم من هذه الناحية نزلا بحذر يمسكان أنفاسهما خشية الإتيان بحركة بسيطة تفضحهما فتتفطن الشرطة لمناورتهما و هي قريبة من مكانهما. ألقيا نظرات حذرة إلى الشارع فلمحا سيارة شرطة متوقفة عند مدخل البناية الخارجي بداخلها رجل بلباس مدني يجلس أمام المقود يدخن سيجارة.

قرر يعقوب قائلا : هذه هي اللحظة المناسبة للخروج، هيا بنا الآن.

خرجا دفعة واحدة و بهدوء كي لا يلفتا الأنظار و دارا إلى يمينهما... تنفسا الصعداء فقد مر الأمر بسلام، و عندما لم يلحظا ردة فعل سارا متوجهين إلى ميدان الاستقلال.

ربما يكون بعض الجيران من استدعى الشرطة بسبب الضجيج الصادر من الشقة، خمن الكاشف.

يحتمل ذلك، لكن ظني لو أن الأمر يكتسي خطورة لما فاتهم الالتفات إلى سلم الخدمة، رد يعقوب ثم أضاف : لنفترق الآن، تتكفل أنت بالبحث عن فرنشيسكا أما أنا فسأحاول الوصول مرة أخرى إلى غوندليزا و موعدنا العاشرة قرب كنيسة السيدة الإفريقية.

افترقا، و سار يعقوب على أعقابه لأخذ سيارته التي ركنها في موضع غير بعيد عن المكان.

لا تزال سيارة الشرطة موجودة أمام المبنى، ربما هم لا يزالون منهمكين في تحطيم الباب لإتمام ما بدأه مع الكاشف، و بهذا يكون التهديم كاملا و تاما... تخيّل في نفس الوقت حال السيدة ماريكا ! لا بد من إيجاد طريقة ما لتعويضها سريا عما حل بشقتها من دمار و تخريب... قرر يعقوب و هو ينطلق.

توجه إلى ميدان موريس أودان و في ذهنه فكرة وحيدة تتمثل في الوصول إلى غوندليزا لاستجوابها بعمق هذه المرة، لأنه على قناعة بأن المرأة تعرف و تختزن أكثر مما تأبى و تتعنت أن ينطق به لسانها... و قال في نفسه : أرجح أن جذور حل هذه المعضلة توجد عندها، إن لم تتكلم سأقطع لسانها، هي متورطة في الأمر منذ البداية حتى و إن كانت تجهل المكان الذي خبأ فيه عشيقها الشيفرة، لأن الجاسوس الفرانكو- جزائري لم يحصل على الشيفرة إلا من خلالها و بواسطتها.

تمكن من ركن السيارة في مكان مستتر يبعد مسافة محترمة عن وكالة النقل البحري ؛ و خدمه الحظ من حيث لم يكن ينتظره، فبينما هو داخل السيارة يفكر و يبدي و يعيد لإيجاد وسيلة مثلى تمكنه من الوصول إلى غوندليزا دون إحداث ضجة أو لفت نظر، لمح سيارة فورد فارهة تشبه التي سرقها و الكاشف من قبل لاستعمالها في اختطاف غوندليزا ؛ توقفت الفورد أمام الوكالة و نزل منها رجل يقطع الرصيف بسرعة فائقة لينفذ داخل المبنى، إنه برونو لورنزوتي، لا يمكن أن يخطئه... تولدت في الحين فكرة داخل رأس يعقوب، فنزل

من سيارته و سار من دون استعجال نحو الفورد ، كان الرصيف يعج بالمارة و الناس، أغلبهم من المتسكعين مما يجعله مطمئنا لا يخشى من الأخطار بتواجده وسط جمهور غفير، هو يعلم من تجاربه و بخبرته المكتسبة و المتراكمة طيلة السنوات أنه بينهم يواجه أخطارا ضئيلة، و العكس تماما لو أنه يتواجد في مكان خال و مكشوف. أخرج من جيبه البطاقة التي تحمل اسم أيغور ربوكوفسكي الذي وُجدت جثته في حريق فيلا شريف خان، ثم تقدم بعفوية من الفورد ، فتح الباب بخفة و دس البطاقة تحت المقعد الأمامي، أغلق الباب و ابتعد بسرعة البرق و هو يدندن أهزوجة من التراث الشعبي العاصمي استهوته منذ مطلع شبابه و لا تزال راسخة في مخيلته، خصوصا لما أدّاها المطرب "أنريكو ماسياس" يقول مطلعها : « يا بلارج يا طويل القايمة... ».

ذهب إلى المقهى المقابل الذي يعرفه من قبل و طلب وجبة خفيفة و مشروبا غازيا، ثم نزل إلى الطابق الأسفل قاصدا الهاتف، فغيّر من نبرات صوته و طلب محافظة الشرطة يخبرها بوجود سيارة من نوع فورد أمام وكالة النقل البحري في ساحة موريس أودان، و أعطى رقم قيدها كونها نفس السيارة التي كانت متوقفة بقرب فيلا السيد شريف خان المحترقة لحظات قبل حدوث الانفجار، و كي لا يضيعوا وقتهم في التحري عليهم بالبحث في هذا الاتجاه و التوجه فورا إلى ساحة أودان قبل فوات الفرصة. و أغلق الخط بسرعة بينما الصوت الآخر يطلب منه إعطاء هويته و عنوانه ؛ ثم طلب بيت برونو بسرعة، عرف صوت الخادمة فقال بصوت خافت مغيّرا ما استطاع مخارج

ألفاظه كي لا تتفطن له : أريد أن أكلم المدير، هل هو موجود ؟ نعم سيدي، من أنت كي أبلغه ؟

لا تضيعي الوقت، أخبريه بسرعة لأن الأمر مستعجل.

قل لي أولا من أنت سيدي كما هي الأصول.

يا لهذه الجاموسة الغبية التي تتمسك بأعراف بالية لا تقدم و لا تؤخر، لكن خوفا من ضياع الوقت قال : قولي له السيد ماركو بولو يريد أن يكلمه في أمر عاجل.

حسنا سيدي، الآن سأبلغه رسالتك.

استمع إليها و هي تعلن لمستخدمها بأن السيد ماركو بولو يود أن يتحدث مع المدير.

أخذ برونو السماعة و سأل بجفاء : من أنت أيها المتحذلق ؟

قال يعقوب شبه هامس بنبرات سريعة : اسمي لا يهمك في شيء، استمع جيدا إلى ما سأقوله لك، الشرطة في طريقها إليك بعد أن أخذت علما بأنك متورط في قضية تفجير فيلا السيد خان...

ما هذا الهراء و الهذيان ؟ هل أصابك مس ؟ قاطعه صوت برونو في عصبية واضحة.

الأمر جدي و خطير، سيكونون عندك من لحظة إلى أخرى. و قطع الخط فجأة ثم خرج من حجرة الهاتف يصفر، دفع ثمن مكالمته و صعد إلى القاعة فأخذ وجبته مع قارورته و دفع حسابه و توجه نحو طاولة صغيرة قريبة من الواجهة الزجاجية المجاورة لحافة الطريق، مكنه موضعه الاستراتيجي و كفاه

مؤونة المراقبة من الخارج، إذ يكفيه أن يدير رأسه قليلا كي يرى بسهولة السيارة و هي لا تزال رابضة أمام المبنى.

بعد دقائق معدودة لمح غوندليزا تمر من أمام المقهى، هي من دون شك قادمة من منزل برونو لورنزوتي ؛ كانت وحدها، ترتدي معطف سفر صوفي يعرفه جيدا، قبعة فوق رأسها، و تضع نظارات سوداء تخفي بهما عينيها. وقف يعقوب على الفور و انصرف لأنه كان قد دفع مسبقا ثمن ما استهلكه ربحا للوقت و تحسبا لظرف طارئ مثل الحالي، و ليترك أجهزة الأمن تهتم بمدير وكالة النقل البحري، و ليهتم هو بدوره بالجميلة غوندليزا و تحركاتها المريبة، ألم يأت خصيصا من أجلها و نيته إيجاد وسيلة ناجعة توصله مجددا إليها ؟ و ها هي الأقدار تضعها أمامه و في متناول يده من دون بحث أو عناء.

ابتسم له الحظ مرة أخرى إذ وجدها بكل يسر تقف عند محطة تراموي، تبدو منشغلة البال، و تنظر إلى الأسفل غير عابئة أو مكترثة بما يدور حولها.

عاد يعقوب سريعا إلى سيارته غير البعيدة عنه و في الاتجاه المناسب، تقدم قليلا حتى أصبح في إمكانه مراقبتها من خلال مرآة السيارة الخارجية العاكسة حيث لمحها و هي لا تزال تتواجد رفقة مجموعة أناس من منتظري التراموي. ألقى نظرة خاطفة على نوافذ منزل برونو فلمح الأنوار تشع من خلال الستائر، ما يدل على أن المدير لا يزال داخل شقته و لم يبرحها بعد، كذلك سيارة الفورد لا تزال رابضة مكانها.

على رئيس هذه الخلية الإيطالية أو الرومانية – كما يلوح لحد الآن – أن يعطي دليلا قاطعا يثبت به للشرطة بما لا يدع

مجالا للشك عن مكان تواجده وقت الحادث المفزع، طبعا هو يجهل التدبير الماكر الذي دبره يعقوب بدهاء و الذي يمكن أن يؤدي به إلى ما لا تحمد عقباه و إثارة شكوك جدية تجعله يقبع طويلا في دائرة أضواء الشرطة و أجهزة الأمن الجزائرية المختلفة.

وصل تراموي يلهث تصدر عنه أصوات حادة، فركبت غوندليزا إحدى عرباته، العربة التي تحمل رقم (3)، الوجهة هي برج الكيفان في شرق العاصمة، اندفع يعقوب بسرعة تاركا بين سيارته و التراموي مسافة معقولة تجنبا لأن تتعرف عليه غوندليزا و تغير وجهتها فتفوت عليه فرصة لا تعوض لمعرفة خططها و ما تزمع القيام به.

هل أبعد برونو غوندليزا خوفا من مداهمة الشرطة أم لسبب آخر ؟ أي دافع حقيقي من تصرفه هذا ؟

لكن ما زاد في تفاقم حيرته أنه لم يلمس في الجرائد الصادرة مجرد خبر عن اختطاف المرأة بالمحطة البحرية، و لا سطرا عن الحادث ! لأنه من غير المعقول و غير المنطقي أن تمر حادثة بذلك الحجم من دون لفت الانتباه رغم الأجواء الماطرة و الضباب، ضف إليه مرافق المرأة الذي يكون له تفسير معين لما حدث، أم أنه أعطى الربح لرجليه و انسحب خلسة مفضلا الامتناع عن تقديم شكوى للمصالح المختصة ؟ لكن يعقوب يستطيع تفهم موقفهم، فلو كان مكانهم لما ترك الشرطة تحشر أنفها في قضاياهم لأن المحصلة تصب عكس مصالحهم.

توقف التراموي أمام محطة حافلات تقع بالرصيف المقابل، نزلت منه مجموعة من الناس و لا أثر لغوندليزا، ما يعني أنها

لا تنوي أخذ الحافلة. تحركت العربات من جديد فقام يعقوب بنفس المناورة بحذر و احتياط شديدين، إذ ترك سيارتين على الأقل بينه و بين التراموي. ربما الكاشف يتواجد الآن بهذه النواحي تقريبا، يبحث بدوره عن فرنشيسكا و المنزل المحتمل لجوؤها إليه، و إن كان ظنه في احتمالية العثور عليها ضعيفا لأن الرعب الدائم الذي ركبها و سكنها يصعب من مهمة تحديد مكانها، و إن كانت قد اطلعت على الصحف الفرنسية فلن تعدم الوسيلة و تحاول التوجه من دون أدنى شك إلى إيطاليا و منها إلى "بابيتي" في بولينيزيا الفرنسية، خصوصا و هي تمتلك تذكرة سفر و جواز سفر باسمها مع تأشيرة صالحة، يمكنها نزع صورة غوندليزا و وضع صورتها بدلا عنها، أمر سهل للغاية و صعوبته نسبية.

توقفات التراموي تتوالى في محطات مثل "الخروبة"، "الحي الجميل" "الديار الخمس"... يحاول يعقوب من جديد التحكم في سرعته بانتظام و جعل السيارة تبعد مسافة مدروسة مسبقا، نفيا مجرد الشك أن تلحظه غوندليزا التي لم تتكرم و تنزل في أي موقف إلى حد الساعة.

في الحقيقة لم يصدق بتاتا أن تكون قد غادرت منزل برونو للإفلات من الشرطة و مساءلتها، لم تكن تحمل سوى حقيبة يد صغيرة، مظهرها لا يوحي بأنها فارة في حين هيئتها و هي تنتظر التراموي خالية من أي توتر أو قلق، مما يجعله يخمن بأن لورنزوتي لم يخبرها بالمكالمة المجهولة التي تلقاها.

وصل أخيرا التراموي إلى محطته الأخيرة و يتحتم عليها الآن أن تركب حافلة إن كانت تريد الذهاب أبعد من ذلك. توقف

يعقوب في مكان منزوٍ قرب أشجار ضخمة فلمحها تنزل مبتعدة بسرعة على قدميها من دون أن تلقي نظرة و لو خاطفة ناحية محطتي الحافلات و سيارات الأجرة رغم وجود سائق تاكسي ينادي على الزبائن لكنها لم تعره أي اهتمام و استمرت في سيرها، ما أكد ليعقوب أنها على بينة من أمرها تعرف تماما وجهتها و إلى أين هي ذاهبة، و هي ليست بعيدة بدليل أنها لم تفكر بأخذ وسيلة تنقل أخرى ؛ ترك سيارته خوفا من لفت الانتباه إليه إن استمر في ملاحقتها راكبا، مفضلا إتمام العمل راجلا على قدميه ؛ و لم يغب عن ذهنه أنه في الجزائر و ليس في باريس أو في روما، هو يعرف عز المعرفة عقلية أهل البلد الذي ولد و تربى فيه بعاداتهم و تمسكهم الشديد بالفضيلة و أعراف الآباء و الأجداد.

أسرع في سيره ليقلص المسافة المعتبرة بينه و بين المرأة، و بدوره لم يعبأ بنداءات سائقي الأجرة المعترضين طريقه يعرضون خدماتهم، معتذرا لهم بابتسامة و بلهجة عربية جزائرية لم تتغير نبراتها أو تتأثر مخارجها رغم مغادرته الجزائر منذ عقود، يخال كل من يسمعه أنه أحد أبناء أحياء العاصمة العريقة. لم يتوقف لأن غوندليزا تسير بسرعة فائقة كأنها في سباق ماراتون في الجهة المحاذية للبحر على الطريق الساحلي لمدينة برج الكيفان.

أصبحت الآن مصابيح الشوارع تتناقص باطّراد و المنازل أيضا، حط الليل رحاله و عسعس، ليل حالك بسبب الغيوم السوداء الثقيلة التي غطت السماء بينما الرياح تهب بقوة عاتية و شراسة رهيبة متزامنة مع صدمات الأمواج المتكسرة

في عنف ناشرة صخبا هائلا يصم الآذان آتيا من السواحل الرملية مسيطرا سيطرة كاملة و مهيمنا على كل الأصوات الأخرى المنبعثة المنطوية تحت جبروته. أخذ يعقوب موضعا على الرصيف الموازي كي تسهل عليه المراقبة ؛ كانت تمر لحظات يفقد فيها المرأة و تصبح غير مرئية، ثم تعود فتظهر من جديد على بصيص أشعة أضواء خافتة تنبعث من أعمدة إنارة تمر من أمامها بين الحين و الآخر، قدمت فجأة سيارة من الاتجاه المعاكس تكشفه مصابيحها كلية للعيان فاضطر إلى صعود مرتفع جنب الرصيف و التخفي وراء شجرة صنوبر ضخمة، و لولا سرعة حضور بديهته في اللحظة المناسبة لكشفته غوندليزا التي استدارت بسرعة مستغلة أضواء السيارة الماسحة الطريق للتأكد من أنه لا أحد يتعقبها، لكن قدوم شاحنة جعله يعيد ما فعله سابقا بعد قطعه مسافة لا تتجاوز المائة متر، هذه المرة لم يعد يمكنه متابعة رقابته للمرأة و حدث ما كان يخشاه و يتوجس منه، فبمجرد عودته إلى الرصيف كانت هي قد اختفت عن الأنظار و تبخرت في الجو... زاد من سرعته فوصل في لمح البصر إلى آخر نقطة لمحها فيها قبيل اختفائها المفاجئ من دون نتيجة تذكر، لا يوجد شيء في الأفق يوحي بحركة أو وجود أشخاص، تلفت يمنة و شمالا و قطع الطريق لأن الحاجز يمتد على طول الشاطئ دون ثغرات أو فجوات تسمح بالمرور. لم تنزل بالتأكيد إلى الشاطئ الضيق، لو فعلت ذلك لكان قد لمحها من موضعه، من هنا الموقع الأفضل على الإطلاق بالقياس إلى الأمواج الهائجة و ثورة البحر الجنونية.

يحتمل أن تكون قد تركت الطريق و نزلت من الجانب الآخر حيث تتواجد مزارع الكروم و العنب على طول الخط و دخلت

إحداها أين تختفي المنازل و البيوتات مستترة بالأشجار و تصعب رؤيتها من الطريق. عاد إلى الرصيف الثاني و في ذهنه أنه لم تمر أكثر من عشرين دقيقة عن اضطراره للاختفاء بقدوم الشاحنة، المؤكد أن غوندليزا لم تذهب بعيدا بعد... لكن أين هي بحق السماء ؟؟؟ تقدم خطوات إلى الأمام لا تتجاوز الثلاثين عندما عثر على طريق ترابي ضيق بين الأشجار الكثيفة يقود إلى ربوة، أخرج مصباحه اليدوي و أضاء الأرضية يتفحص الآثار، لم يجد صعوبة في التعرف على آثار كعب حذائها مرسومة على وجه الغبار الكثيف الذي يجثو فوق التربة الرطبة، وقف و تسلق شجرة ضخمة يفحص و ينقب عما يمكن أن يدله أو يهديه فلمح فجأة لافتة خشبية مضاءة مكتوب عليها "مزرعة أرو كاريا" تحتها سهم اتجاه. نزل يعقوب بسرعة و أطفأ مصباحه و أخذ يقطع السبيل بهمة و حيوية... أصبح الوقت متأخرا، عقارب ساعته جاوزت العاشرة و الكاشف ينتظره الآن إذ أعطاه موعدا على العاشرة، لكن ما بِيَدِه حيلة... تجري الرياح بما لا تشتهيه السفن و الظرف أقوى منه.

الوقت غير مناسب للزيارة، لكن ربما في نيتها قضاء الليلة هنا رغم أنها لم تكن تحمل معها مثلا حقيبة كبيرة... الطريق أصبح جد صعب بصعوده الشاق و نزوله السريع في منعطفات خطرة للغاية، ذكره بالطريق الذي فر منه ليلة زيارته المشؤومة لمنزل فرنشيسكا ؛ اضطر عدة مرات إلى استعمال مصباحه متوخيا الحذر الشديد، مسلطا أشعة حزمة النور إلى الأسفل واضعا يده تنفذ من خلال أصابعه أشعة قليلة تساعده في تلمس طريقه من دون أن تشي بوجوده أو تلفت الانتباه إليه إن صادف وجود شخص ما في تلك الناحية، الاحتياط هام

و ضروري جدا حتى و إن لم يصله حس إنسان ماعدا أصوات هبوب الرياح و هدير الأمواج البعيدة التي تتراجع على أعقابها لصالح الرياح كلما ارتفع الدرب و علا. و على غير المنتظر وجد طريقه ينفذ إلى طريق آخر واسع قليلا و معتنى به، يبدو أنه يتبع مسايرا جانب التلة موازيا الطريق. استدار و هو يقف في الأعلى عند لافتة أخرى تشير إلى أن طريق المنزل يقع على شماله ليكتشف بأن البحر في الأسفل. أضاء مصباحه الأرضية مرة أخرى لكنه عكس المرة السابقة لم يلاحظ آثار أقدام لأن الأرض هنا حجرية صلبة، و استوقفته أصوات قريبة تصدر من اهتزاز أغصان و تكسرها فأطفأ مصباحه و ابتعد بسرعة من مكانه إلى آخر مندسا في عتمة الظلام محتميا به و قد شعر بقلق فجائي يضغط على صدره لذا أخرج مسدسه من جيبه و نزع زر الأمان تاركا رصاصة تأخذ مكانها في الأنبوبة على أهبة الاستعداد للانطلاق في أية لحظة. لم يعد يسمع الصوت الذي أفزعه، ربما يكون لحيوان مر بالصدفة أو لإحدى الزواحف... قال هذا في سريرته و استمر يسير في الاتجاه المرسوم يتقدم في الظلام متفاديا ما أمكنه إحداث ضجة، متحفزا لمواجهة أي بادرة تنم عن خطورة داهمة، لذلك أبقى على "ماغنومه" في يمينه.

أصبح الطريق الآن مباشرا و مسطحا نسبيا، و بعد مسيرة دقائق وجد يعقوب نفسه أمام ما يشبه حاجزا خشبيا يندس متخفيا في أحضان حِمى شجرة ضخمة بأغصانها المترامية فوضويا في جميع الاتجاهات، و لمح صفيحة حديدية تمكن بالكاد – من شدة الظلام و زوال بعض حروفها نهائيا – من قراءة المنقوش عليها بالفرنسية : "أرو كاريا".

الظلام يخيم في أرجاء المكان ناشرا جنوده السرية المتحالفة مع الأجواء المكفهرة برياحها العاصفة و أمواجها المزمجرة، تهتز لها بعنف و قسوة جذوع الشجرة المتفرعة عن الجذع الأصلي العملاق و أغصانها الفارعة المتدلية مثل الأقواس المتداخلة بأصوات حفيف أوراقها المسطحة الضخمة، منظر يلقي الرعب و الهلع في القلوب، إذ يخيل للمرء أنها أشباح متسربلة بالسواد تتقدم نحوه أو تنتظره في جوف ذلك الليل ترقص مترنحة و تدمدم بأصوات شنيعة و مريعة فتسري رعشة الخوف و الرهبة في الجسم و القلب، لكن يعقوب رجل جلد لا تؤثر فيه مثل هذه الظواهر الطبيعية التي جربها كثيرا و خبر ما هو أقسى و ألعن منها.

لا بصيص ضوء يظهر و لا حس صوت يُسمع، فاجتاز الساتر الخشبي و تقدم من المنزل في حذر، تحسس الباب فوجده مغلقا بإحكام و مكبلا بسلسلة كبيرة يتدلى منها قفل ضخم يستحيل عليه فتحه أو كسره في غياب آلة مناسبة حادة و قوية. لا وجود لأي ردة فعل من أشخاص محتملين أو كلاب حراسة و هذا أمر جيّد، لأن حبه لهذه المخلوقات يجعله يتمنى أن لا تواجهه، ليس لأنه يخافها فهو خبير في طرق التخلص منها و جعلها تنأى بنفسها عنه، لكن نفسه تأبى عليه أن يضطر للتخلص منها بإيذائها و قتلها. تقدم متخفيا تحت مجموعة من أشجار "الأكاسيا" و "الميموزا الشائكة" الناشرة روائح رائعة و أريجا ساحرا. طاف حول المنزل مستكشفا فلم يلحظ ما يريبه سوى أشجار في الخلفية تغطي ظهر المنزل و تستره من أعين الرقباء و المتطفلين و غير المرغوب فيهم.

الشتاء هنا بارد جدا و المساكين يعانون دون شك من تبعاته و تقلبات مزاجية مناخه الفجائية.

المنزل كبير، شكله يوحي بنمط المعمار الفرنسي الكولونيالي، طويل و ارتفاعاته منخفضة، مداخله أبواب- نوافذ في نفس الوقت بما فيها المدخل الرئيسي ؛ تأمل المنظر جيدا من مكانه محاولا تلمس شعاع نور يتسرب من خلال مصراعي النافذة الخشبية الوحيدة المغلقة، و لكن خاب ظنه لأن الظلمة دامسة و البيت يعطي الانطباع بانعدام وجود أي نوع من الحياة بداخله.

تنهد يعقوب مغتاظا من نفسه : إذا كانت غوندليزا قد قدمت إلى هنا، لن يكون قد مر عليها وقت طويل، ساعة بالكثير، حتى لو استسغت فكرة أنها تتواجد وحدها بالبيت، هل يعقل أن تكون قد خلدت للنوم بهذه العجالة و أطفأت كل الأنوار ؟! غير معقول البتة و في الأمر إنّ !

طاف من جديد حول البيت في محاولة يائسة منه لعل و عسى أن يجد منفذا سهلا يغنيه عن كسر الباب، و عندما باءت محاولته بالفشل عاد إلى باب الدخول و هو متأكد من أنه لا يوجد أحد داخله، و كي يقطع الشك باليقين قرع الباب بشدة عدة مرات و لا حياة لمن تنادي... و لاستحالة ولوج البيت من خلال الباب بسبب القفل المحكم، مر فورا يجس مصراع النافذة فوجده متآكلا و خشبه منخر مما يسهل عليه مهمته، لم يبد أي مقاومة و انهار من أول ضربة وجهت له، هشم بأنبوبة "الماغنوم" الزجاج و أدخل ذراعه بسهولة يفتح النافذة من الداخل.

دلف بسرعة تتقدمه أشعة مصباحه القوية تفتتح أمامه الطريق ؛ لا يمكن أن يكون شخص هنا و إن وجد فهو يتمتع بخاصية نوم عجيبة ترقى إلى مرتبة السبات و فقدان الوعي بلا منازع. وجد نفسه في غرفة ريفية خالية لكنه استمر في زيارته التفقدية من دون تلكؤ : خمسة غرف، قاعة جلوس، مطبخ، حمام، غرفة تستعمل للغسيل و تزويد المنزل بالطاقة الحرارية، و لا وجود لأحد سوى الغبار المتراكم فوق الأثاث يؤرخ إلى غياب البشر عن البيت منذ أمد طويل.

كان ساخطا و متذمرا لتضييعه أثر غوندليزا بطريقة غبية و سخيفة للغاية لا تليق بمبتدئ في عالم الاستخبارات، فكيف به هو الذي يمتلك رصيدا هائلا من الخبرة و التجارب و تُدرّس في كليات أمريكا العسكرية العديد من عملياته للنخبة من رجال العمليات الخارجية في مختلف الأجهزة الأمنية و في مقدمتها الـ "سي أي أيه"، عيب و عار عليه أن ينخدع و يؤخذ بمثل هذه السذاجة هو الموسوعة و دائرة المعارف المكتسبة طيلة حياته المضطربة التي قضاها في حل و تفكيك أعتى القضايا و أصعبها في أماكن مختلفة من العالم، فإذا به يقع ضحية سهلة و لقمة سائغة في يد فتاة ما كان يخطر بباله يوما أن تكون هي من يلاعبه أو من يجره ببلاهة إلى حد الينبوع ليكتشف في نهاية الأمر بمرارة أنه لا وجود لمياه أو ينبوع أصلا، نعم هناك فعلا آثار أقدامها في أسفل السبيل على الطريق، لكن فاته أنه لا يوجد دليل بأن الآثار التي عثر عليها تعود قطعيا إلى حذاء غوندليزا. الآن جرى ما جرى و لا يجدي التباكي و النواح نفعا... غادر المكان و هو يتساءل إلى أين تكون وجهته الآن، و قد اختلط عليه الأمر و أصابه إحباط شديد.

وصل الآن إلى نقطة يتقاطع فيها الطريق مع قمة الدرب الملتوي، تردد هنيهة و هو يتلفت يمينا و شمالا، ربما تكون طريدته قد أخذت الاتجاه الآخر... في جميع الأحوال لم يعد هناك ما يخسره فاستمر في تقدمه ؛ مائة متر من بعد بدأ الدرب في النزول و الانحدار يزداد بوتيرة متصاعدة، أبصر فجأة البحر و منفذا متعرجا ينتهي عند الطريق، أصبحت الأمور مبهمة و غامضة أكثر من اللازم و تنطوي على أخطار مفاجئة، قد تكون غوندليزا - و الاحتمال وارد - تفطنت إلى الملاحقة التي تستهدفها فاستغلت فرصة مرور الشاحنة لتختبئ و تجهض المناورة، و يكون ربما مر بالقرب منها دون أن ينتبه لها بينما هي تكون قد عرفته و أدركت مراده...

غاية في الغفلة و السخافة ! (وصم شخصه).

أخذ الطريق راجلا من دون توقف، وجهته إلى حيث ترك سيارته و قد أسقط في يده مستسلما للأمر الواقع، أصبح كمن يبحث عن إبرة في حزمة من تبن...

منع نفسه من الحركة فجأة و التصق بصخرة كبيرة قبيل خروجه من المنعطف، هناك سيارة متوقفة على بعد ثلاثين مترا و أضواؤها القوية تحوّل ديجور و حلكة المكان إلى قطعة من نور، تنبعث منها أصوات متقطعة لأشخاص لم يتمكن من رؤيتهم.

تقدم يعقوب بحذر يسحب نفسه منزلقا على جنب و فضوله المتوتر يقود خطاه... لمح أخيرا من موضعه المميز ظلال شخصين تنحني على الرصيف على طول الحاجز أمام السيارة المشتعلة الأضواء، يبدو على الرجلين أنهما يتبادلان الحديث بحدة

و عنف، حال صفير الرياح مع هدير الأمواج دونه و سماع ما يدور بينهما.

عاد يعقوب أدراجه إلى المنعطف و قطع الرصيف في غفلة عن أعين المجهولين، تخطى الحاجز و ترك نفسه يقع على الشاطئ، الأمواج العاتية و هي تتكسر تقذف برزم زبدها و رغوتها إلى غاية السور... أسرع الخطى و عجل في سيره آخذا حذره أن يصطدم جسمه أو يرتطم رأسه بالصخور الهائلة المهيمنة على المكان مثل حراس القلاع في القرون الخوالي، ساعدته أضواء السيارة على تحديد موقعها فألصق صدره بالحائط الصخري و مد أذنيه يسترق السمع.

بلغ أذنه صوت محرك يزمجر تلاه زئير مكابح التصقت ببعضها و هي تتوقف، أعقبها صوت يصرخ بقوة : هل هو حادث سير ؟

حال مرة أخرى بينه و بين سماع الرد صخب الأمواج و باب سيارة يصفق بقوة، لكنه استطاع أن يربط و يستشف من خلال الحوار بين الرجلين الذين رآهما سابقا و القادمين الجدد بأن الأمر يتعلق بامرأة وجدت مقتولة على حافة الطريق بخنجر مغروس في قلبها و وجوب إبلاغ الشرطة، ثم سمع صوتا حادا لمحرك سيارة انطلقت مجددا، و أدرك أن رجلين على الأقل لا يزالان في عين المكان. كان يود أن يعرف هوية الضحية حتى و إن كانت شكوكه قد ذهبت رأسا إلى غوندليزا، لكنه لا يستطيع أن يظهر و يكشف عن وجوده راجلا بالقرب من مسرح وقوع الجريمة مما قد يجلب له الظنون و الشكوك و هو في أمسّ ما يكون أن يبعد طريقه عن كل ما له علاقة بالشرطة و يجعله يصادفها

أو يصطدم بها، و ما دامت هذه الأخيرة على وشك الحضور سيتمكن بقليل من الصبر من معرفة شخصية المرأة القتيلة، و عليه فلا فائدة ترجى من البقاء في هذه النواحي التي أقل ما يقال عنها أنها غير مضيافة و مرحبة بالغرباء أمثاله. غادر المكان خلسة يسير إلى جانب الحاجز و قطع مسافة قصيرة قبل أن يعثر على سلم حجري مكنه من العودة مجددا إلى الطريق.

أخذ مساره بلا هوادة، و بالخطو السريع كأنه في سباق أولمبي إلى أن لمح سيارته، و هو يهم بالتوجه ناحيتها فاجأته في لحظة حرجة سيارتان تسيران بسرعة رهيبة، إحداهما تعود للشرطة و الأخرى للإسعاف، و لحسن حظه أنه تمكن من الاختفاء في الوقت المناسب، ثم أسرع يندس داخل سيارته في ارتياح، شغل المحرك و انطلق بسرعة مباشرة وجهته المدينة لعله يتمكن من الوصول إلى المكان الذي ضرب فيه موعدا للكاشف لتقييم الوضع و معرفة آخر ما يحمله في جعبته من أخبار و على رأسها الأخبار الخاصة بالجميلة فرنشيسكا.

في طريقه إلى ميدان كاتدرائية السيدة الإفريقية لاحظ خلو الطريق من الناس و المركبات بسبب الرياح العاتية و شدة البرودة، حتى القطط و الكلاب اختفت بحثا عن مأوى يقيها من نزوات الطبيعة الثائرة مؤثرة السلامة على ملء بطونها الخاوية. هذه الأمكنة على مر الطريق هي مرتع للهاربين من صخب المدينة و للعشاق، يتردد إليها الناس لساعات متأخرة من الليل، و قد بدت الساعة كأنها صحراء و قفار.

ساعة السيارة تشير إلى قرب منتصف الليل و لا أثر للكاشف، ساور يعقوب الندم على إعطائه موعدا هنا بدلا من اختيار حانة أو مطعم حيث كان يمكنه الانتظار بعيدا عن مثل هذه الأجواء و من دون لفت الانتباه، كما يمكنه الاتصال بالكاشف لوجود الهاتف... على كل فات الحال و لم يعد في وسعه إلا الانتظار على أمل أن يتفطن هو و يعود ثانية إلى مكان الموعد، احتمال ضعيف في مثل هذا الجو لكنه يبقى قائما، سينتظره طيلة الليل إذا تحتم الأمر... الكاشف سيتعرف على السيارة إن عاود المرور من هنا. ثم استلقى قليلا على المقعد و أغلق عينيه، لحظات استرخاء لا تضره إن لم تنفعه.

كانت قد أخذته غفوة قصيرة عندما انتبه على صوت باب السيارة يفتح، فانتفض و يده تتسلل بسرعة إلى مقبض المسدس في جيبه.

إنه الكاشف... جاء أخيرا...

صعد السيارة و هو يشعل سيجارة، لم يتركه يعقوب يعتدل في جلسته حتى بادره : هات ما عندك، أنا متشوق لمعرفة ما تحمل من أخبار و مستجدات، هل وجدت شيئا ؟

أنزل الكاشف قليلا زجاج باب السيارة المجاور له قبل أن يرد : تماما مثل من يبحث عن إبرة في كومة تبن، سألت كل من يمكنه إفادتي من أشخاص يقطنون بجوار محطات و مواقف القطارات، الحافلات، التراموي و غيرها... و ما من أحد أمكنه إنارة مصباحي، بالإضافة إلى كوني على قناعة شبه تامة بأن اللعينة قد غادرت الجزائر، و ربما علمنا في الغد من مصادرنا الخاصة بأنه قد تم القبض عليها في إيطاليا، في جنوة مثلا

مسقط رأسها، و منها كانت تنوي التوجه بحرا إلى "بابيتي"، و سترى...

ممتَن جدا، (رد يعقوب و هو يشغل المحرك) و الآن إلى أين سنذهب ؟ هل عندك فكرة معينة ؟

نعم، (رد الكاشف) لقد رتبت الأمور سنقضي الليلة عند أحد الأصدقاء.

انطلق يعقوب و هو يسأل : عنوان صديقك لو سمحت ؟

في حي باب الواد الشعبي، خلف مستشفى "مايو" العسكري.

وضعية حسنة، رد ضاحكا و انطلق... حركة المرور شبه منعدمة.

انبرى الكاشف يسأله فجأة : و أنت هل وجدت شيئا ؟

نعم و لا، لاحقت غوندليزا منذ خروجها من منزل برونو... (و قص عليه كل ما جرى).

استشاط الكاشف غضبا و ظهر التذمر على وجهه و علق قائلا : غريب أمرها، ما الذي جعلها تذهب إلى هذا المكان البعيد ؟!

من الجانب الآخر، أذكر بأن فرنشيسكا كانت قد أخبرتني عن موقف تراموي أمام البيت. (أوضح يعقوب).

لكن ما الذي تفعله و دفع بها للذهاب إلى هذا المكان ؟

هذا ما ليس بوسعي الإجابة عنه، و أظن بأننا لن نعرفه أبدا...

بعد صمت وجيز صاح الكاشف : قضي الأمر و لن نتمكن من العثور على الشيفرة أبدا...

أما أنا يا صديقي فلم أفقد بعد الأمل، و علينا أن لا نستقيل قبل الأوان و نرمي بالمنشفة.

لم يرد الكاشف، صمته كان أكثر فصاحة و بلاغة عما يدور في خلده.

عندما مرا بميدان "الساعات الثلاث" طلب يعقوب من رفيقه أن يوجهه في دروب و زنقات الحي الشعبي كي لا يضيع في الممرات الضيقة و المتداخلة بعضها ببعض.

الكاشف بتوجس : هل أنت واثق من عدم ملاحظتهم سيارتك ؟

فكر يعقوب لحظة كمن ينبش في ذاكرته عن أمر قديم ثم قال : لا أظن ذلك، لو أن الشرطة نجحت في التعرف على شخصيتي لاهتمت بالسيارة، أقصد أننا أصبحنا وجهين لعملة واحدة.

ساد بعدها صمت ثقيل بينما هو يدور في زنق و طرقات ضيقة تعود الكثير منها للحقبة العثمانية بمهارة يصاحبها حذر شديد إلى أن طلب منه الكاشف التوقف فجأة.

توقفت السيارة على طول الرصيف المتهرئ، قطع يعقوب وصلة تشغيل المحرك و أطفأ الأنوار، ترك زميله ينزل أولا ثم وضع بدوره قدمه على الأرض و هو يغلق الباب. تقدم الكاشف يعقوب الذي بقي يتبعه في جو خارجي ازدادت عدوانيته و بطشه... قطرات أمطار تتساقط تجلدها رياح عنيفة يهز صفيرها الوجدان و شدتها في تصاعد مستمر.

جو لعين... غمغم يعقوب بينما الكاشف صامت يبدو كئيبا و معنوياته منهارة.

سأل يعقوب نفسه فجأة عن سر اختفاء سيارة الكاشف، و عندما هم بسؤاله أعلن هذا الأخير و هو يقف أمام بيت متواضع أن هذا هو البيت المقصود.

قرع الباب قرعا خاصا، أكيد متفق عليه مسبقا. مرت ثوانٍ قليلة قبل أن يفتح الباب الحديدي و صوت يسأل : من ؟

الكاشف، رد زميل يعقوب بصوت عال كي يسمعه من وراء الباب.

انفتح عندها الباب كاملا فدخلا مباشرة. تأمل يعقوب صديق الكاشف فوجده رجلا ربع القامة، ملابسه بسيطة، تغطي رأسه قبعة صوفية صغيرة، ملامحه غريبة و متنافرة، شفتاه غليظتان، شاربه كثيف و عيناه تشع منهما البهجة و الصفاء ؛ ارتاح له يعقوب و استلطفه.

سعيد بمعرفتك سيدي، بادره يعقوب و الكاشف يقوم بتقديمه إلى صديقه، و في ركن قاعة الجلوس بأثاثها العتيق المتهالك مذياع خشبي قديم يبث بصوت خافت موسيقى كلاسيكية. جلسا فوق أريكة جلدية تعلوها مسحة من الغبار رفقة ثقوب عديدة متناثرة هنا و هناك كأنها عيون تراقب و تتلصص على الجلوس حولها و عليها.

وضع زرياب (هو اسم الصديق) على الطاولة أمامهم كأسين و قنينة خمر محلية الصنع و قال ضاحكا : الجو بالخارج سيء كثيرا لا يسمح بالسير و التجول.

التفت عندها الكاشف إلى يعقوب يخبره بأنهما سيقضيان الليلة في منزل صديقه الذي ضحك مقهقها : لا توجد لحافات، بطانيات فقط، على كل النوم هنا مريح خصوصا في مثل

هذا المناخ العدواني... ردد زرياب هذا في نغمة آسفة، ليقوم الكاشف بعدها على حين غرة لأن المذيع أعلن عن نشرة الأخبار الأخيرة قبل نهاية الإرسال كما جرت عليه العادة ؛ رفع الكاشف من حجم الصوت فاستمعوا بداية إلى جولة عامة في آفاق السياسة الداخلية و أخبار متفرقة لمثيلتها الخارجية قبل أن يعود مقدم النشرة مرة ثانية إلى الأخبار المحلية :

« وردنا اليوم من مصدر أمني البلاغ التالي : تم القبض و التحفظ على السيد برونو لورنزوتي صاحب وكالة الشحن البحري هذا المساء في منزله الكائن في ميدان موريس أودان، و حسب التحقيق الأولي فإن شكوكا جدية تحوم حول دوره المميز الذي يكون قد لعبه في قضية تفجير الفيلا التي عثر في حطامها على جثة الدبلوماسي الروسي العامل بسفارة بلده في روما أيغور ربوكوفسكي متفحمة، و قد عثر رجال الأمن على بطاقة هوية القتيل داخل سيارة المتهم الذي يحمل الجنسية الإيطالية. في خبر آخر أبلغ جيران يقطنون في حي "ميشلي" الشرطة عن ضجة كبيرة تصدر من داخل شقة مجاورة أزعجتهم و عكرت راحتهم و حرمتهم من النوم و الراحة، و عند وصول الشرطة فاجأهم منظر الشقة المزري إذ كانت شبه محطمة ؛ الشقة تعود ملكيتها لسيدة إيطالية تدعى ماريكا موريتشي، كانت هذه الأخيرة قد أجرتها بعقد قانوني مدة ثلاثة شهور إلى مواطن أمريكي يجري حاليا بحث حثيث عنه بعد تمكنه من الهرب عند وصول الشرطة. الخبر الأخير : على الناصية البحرية، و على طريق مدينة برج الكيفان، في مكان مزارع الكرم و العنب، عثر سائقان على جثة امرأة بخنجر مدسوس في قلبها ، المرأة فارقت الحياة و قد تم التعرف على هويتها من

خلال أوراقها الثبوتية التي عثرت عليها الشرطة في حقيبتها اليدوية، الأمر يتعلق بالسيدة فرنشيسكا براندیزي زوجة السيد شريف خان صاحب الفيلا المحترقة مع الروسي أيغور المحتجز بين جدرانها، و حسب التحقيق دائما فإن احتمال وجود دافع السرقة للوهلة الأولى يبدو أمرا مستبعدا مما جعل الشرطة تبلغ مصالح الاستخبارات بعد أن أمسكت بأدلة و قرائن أوحت لها بوجود قضية كبيرة متورطة فيها جهة استخباراتية أو أكثر مما يتجاوز الشرطة و صلاحياتها، و أصبح الأمر الآن بين أيدي المخابرات الجزائرية و تحت إشرافها المباشر » و أنهى المذيع نشرة الأخبار بإعطاء أخبار عن توقعات الطقس متمنيا ليلة سعيدة لمستمعيه.

أغلق الكاشف المذياع و عاد يكمل شرب كأسه و قد علته أمارات التوتر فأشعل سيجارة و يده ترتجف قليلا و كانت قطرات من العرق البارد تلمع فوق جبينه المقطب، أما يعقوب فقد كان يصدر صفيرا خفيفا مقلدا لحن أغنية شهيرة للشيخ "العفريت".

لم يعد ينقصنا إلا المخابرات التي دخلت اللعبة ليكتمل المشهد... انفجر الكاشف بصوت أجش ينم عن حنقه.

أنا معك في قلقك من المستجدات التي سمعناها اللحظة، لكن هدئ من روعك كي نستطيع التفكير و إيجاد الحلول الناجعة.

قطعا تكون غوندليزا هي من قام بتصفية فرنشيسكا، ردد الكاشف مؤكدا.

هز يعقوب كتفيه في إشارة واضحة إلى عدم قناعته برأي رفيقه : ممكن جدا لكن في جميع الحالات لن يكون برونو هو من فعل ذلك لأنه في هذا المساء يملك الدليل القطعي و من الدرجة الأولى التي لا يرقى إليها الشك بأنه كان بعيدا عن مسرح الجريمة في ضيافة الشرطة...

ثم صب دفعة واحدة كأس الخمر في جوفه في غيظ و وقف قائلا : بعد كل هذه التطورات المثيرة فقدت الرغبة في النوم، برونو يتواجد عند الشرطة و هي الفرصة التي لن تتكرر لزيارة شقته من دون أخطار حيث لا ينتظرنا أحد أو يتوقع مجيئنا، ليلة سعيدة و إلى اللقاء.

لم يعقب الكاشف بكلمة و قد رآه ينصرف يتبعه زرياب إلى الباب ليغلقه خلفه، توجه مباشرة إلى سيارته و ساعته تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل ؛ في تلك الساعة و الأمطار تنهمر بغزارة، كان ميدان موريس أودان خاليا من الحركة تماما تلفه كآبة ثقيلة... تردد يعقوب قبل أن يغادر سيارته لأنه يجهل إن كانت غوندليزا قد عادت إلى منزل برونو، و إن كان يرجح عدم رجوعها. زيارته الأخيرة للمنزل تؤكد بأن الخادمة تغادر المنزل كل مساء، و يكون لورنزوتي قد اتخذ احتياطات خاصة و ترك منزله في عهدة أحد رجاله يؤمنه و يحرسه. هو لا يريد الصدام مع رجال برونو، هدفه الوحيد و المستعجل يتمثل في وضع اليد على غوندليزا و الإمساك بها كي يستنطقها و بجدية هذه المرة تختلف عن المرات السابقة، حتى و إن كانت زيارة شقة لورنزوتي يمكنها أن تسفر عن مفاجآت مهمة و غير متوقعة تخدم توجهه الحالي على المديين القريب و البعيد... طبعا إن لم تكن الشرطة أو المخابرات قد سبقتاه

إلى ذلك. أخيرا قرر يعقوب النزول و هو يعدل من وضعية عنق معطفه.

الأضواء غائبة من نوافذ الشقة، لكن هذا لا يدل قطعا عن خلوها من وجود غير مرغوب فيه، و الآخر يتمناه من أعماق قلبه. ولج بسهولة إلى داخل المبنى و صعد السلم بهدوء يلفه السكون ممسكا بمصباحه اليدوي ليلتقي المفاجأة التي كانت في انتظاره : كان باب الشقة محطما، قطعا هي الشرطة أو جهاز أمني آخر من قام بالعمل لأن أختام الشمع الأحمر وضعت بعد ذلك ؛ و من دون تردد هشم يعقوب الأختام و دخل ممسكا بـ"ماغنومه" و بدأ في زيارة الغرف أولا كي يطمئن من خلو المكان من متربص يفاجأ به على حين غرة. كل شيء على ما يرام و الأهم من ذلك ترك الشرطة مقتنيات الشقة على حالها، ربما تكون قد أجلت القيام بعملية التفتيش و التنقيب إلى الغد أو لأمر آخر لم يدرك كنهه الآن، وجه اهتمامه بداية إلى الغرفة التي كانت تشغلها غوندليزا حيث لا تزال أمتعتها تقبع بها. فتشها بتأنٍّ و صبر على أمل العثور على شيء يساعده لكن خاب ظنه و النتيجة كانت سلبية... استكشاف متقدم و عميق للغرفة لم يسفر في نهاية المطاف على نتيجة، لكنه لم ييأس و انتقل يفتش في غرفة لورنزوتي مدير وكر التجسس، و على غرار أقرانه من الجواسيس كان عليه التفرغ لحل معضلات كثيرة مما يستوجب وجود جهاز إرسال و استقبال في حوزته رفقة وثائق، شيفرة و غيرها... من أجلها يكون مجبرا على توفير مخابئ آمنة لها لا تصل إليها أيدي الفضوليين و العابثين. فحص يعقوب الجدران بدقة ثم الأثاث و أخيرا الأرضية مركزا عنايته الفائقة في تصفح كل الأوراق التي عثر عليها داخل

دولاب حائطي صغير من دون جدوى، و لم يغفل باقي الشقة فقد أخضع بدوره إلى نفس العناية قبل أن يعيد وضع الأشياء بنفس الطريقة التي وجدها عليها و زاد من عنده كي يلفت انتباه مصالح الأمن و يزيد من شكوك المحققين في نشاطات لورنزوتي السرية. كان يهم بالخروج من المطبخ عندما جعله صوت غريب يتسمر مكانه، و قبل أن يأتي بأي حركة استمع إلى صوت خطير يأمره برفع يديه و عدم التحرك. رفع يديه الخاليتين من "ماغنومه" و مصباحه الموجودين في تلك اللحظة في جيوبه و قد أذهلته المفاجأة غير المتوقعة و جعلته يعجز عن إبداء أي محاولة للمقاومة و الدفاع عن نفسه، و إن استدار رغم المنع و لم يعترضه الآخر.

إنه برونو لورنزوتي. ابتسم يعقوب ابتسامة عريضة و هو ينحني قليلا : أستسمحك، لم أكن أظن بأنهم سيطلقون سراحك مبكرا.

الآخر كان يمسك في يده بمسدس أوتوماتيكي ضخم، لا بد من أنه مر بأحد شركائه قبل العودة إلى شقته لأن الشرطة كانت قد فتشت سيارته و تحفظت على كل ما وجدته في حوزته، هو نفسه لم يعثر على أي قطعة سلاح عند تفتيش غرفته منذ لحظات خلت.

مرر برونو أنبوبة مسدسه فوق خانة وجهه و ابتسامة ماكرة و شريرة ترتسم فوق شفتيه الرقيقتين و همس قائلا :

أنت عنيد جدا، و هذا سيؤدي بك إلى نهاية لا تحمد عقباها.

رد يعقوب متظاهرا بالدهشة و الاستغراب : لماذا نهاية غير محمودة ؟ ليس في نيتك إثارة مشاكل هنا في بيتك بعد كل ما حصل لك، إذ حالفك الحظ و أطلق سراحك بسرعة غير متوقعة...

بدأ برونو يضحك لكن ضحكه لا ينطوي عن أي بهجة بل ينم عن عدوانية شرسة، ثم قال : كان عندي دليل إثبات جامد للغاية مع كون الفخ الذي نصبته لي بوضعك بطاقة الروسي القتيل في سيارتي كان جيدا، لكن الطعم أكبر من أن يبتلع، ألست أنت من خطط لكل هذا أيها الماكر ؟

عفوا سيدي، لم أفهم و لم أستوعب ما تلمح إليه، هلا أوضحت لي الأمر ؟ رد يعقوب.

استمر الآخر يقول : على كل حال، سأتخلص منك الآن لأنك بدأت تثير المتاعب و هذا لا يعجبني، و بعدها مباشرة أكلم الشرطة أبلغها بأنني فاجأت لصا متلبسا و أنا داخل شقتي و اضطررت إلى قتله دفاعا عن نفسي، و سيرون بأم أعينهم و يتأكدون من أنني لست أنا من فعل هذه الخربطة و الفوضى في الشقة في وقت ضيق و قصير.

رد يعقوب معترضا بهدوء : أنت تعلم بأنك لم تأت مباشرة إلى الشقة و لن تتمكن من خداع الشرطة بمثل هذه الحجة الواهية التي لن تصمد كثيرا، و عندها أترك لك تخيل البقية...

انخدع برونو و صدق مناورة يعقوب، فرد و الحيرة تبدو على وجهه : و ماذا بعد ؟

التقت نظراتهما لحظات في مواجهة صريحة و تحدٍّ سافر نيابة عن لسانيهما، لكن يعقوب متأكد مسبقا بأن غريمه لن

يطلق النار عليه و هو في شقته، بل سيطلب من بعض شركائه أن يأخذوه مجددا في جولة خارجية.

عمَّ جئت تبحث في شقتي ؟ سأله برونو فجأة.

جئت أتفقد أحوال غوندليزا لأنني لم أستسغ و لم أهضم ماهية خنوعها و قبولها البقاء عند نذل خسيس على شاكلتك، رد عليه يعقوب بعدوانية متعمدا.

اهتز برونو و احمرت وجنتاه فجأة و ضم أسنانه في عصبية ظاهرة.

هل أصابك مس أم تحاول عبثا التلاعب بأعصابي ؟ رد عليه برونو غاضبا في استهجان.

إطلاقا، هل ساءك أن وصفتك بالنذل الخسيس ؟ ماذا في هذا، ألا ينطبق عليك هذا النعت بحذافيره ؟

لم يجبه برونو بل انقض عليه و هو يصيح : ستدفع الثمن غاليا لكل ما تفوهت به في حقي أيها الفأر الحقير، عليك أن تبرهن لي على ذلك أيها الخنزير القذر.

وجد يعقوب برونو يواجهه و نيته توجيه ضربة إلى رأسه بمقدمة مسدسه الثقيل، فانحنى بمرونة في الوقت المناسب متفاديا الضربة العنيفة تجاهه، و في نفس اللحظة سدد ضربة قوية برأسه في معدة خصمه الذي لم يتمكن من تفاديها، ضربة جعلته يطرد في ضجة كل الهواء المكدس في رئتيه، ثم طرحه أرضا فصارا يتدحرجان على البلاط مصطدمَين بكل ما تصادف وجوده في طريقهما.

سيشتكي الجيران مرة أخرى و ربما حضرت الشرطة (فكر يعقوب و هو يحاول أن يجرد برونو من مسدسه)، سأنتهي يوما

إلى المحكمة تعاقبني على الجلبة الليلية التي أصبحت تلازمني كظلي. مر مقبض المسدس مليمترات قليلة منه و كاد يصيبه في وجهه فاصطدم بشدة ببلاطة مما ولد شرارات متلألئة سطعت مثل البرق، استغل يعقوب الفرصة السانحة التي قدمها له برونو على صفيحة من ذهب بفقدانه توازنه، و أمسك بمعصمه الممسك بقوة على المسدس و أرسل في لمح البصر بقبضة يده المتحررة إلى وجه خصمه فتدفقت الدماء بغزارة من أنفه و فمه، حصل منها يعقوب على نصيبه. الألم جعل برونو يترك المسدس يسقط منه ليرسله يعقوب براحة يده يختفي تحت خزانة كبيرة، الآن أضحيا متعادلين و حظوظهما متساوية.

برونو يعرف كيف يتعارك، يملك فنيات معتبرة و أكيدة لا يمكنه أن ينكرها و عليه أن يحذره و إلا أوقعه، فهو يتمتع تقريبا بنفس بنية و قوة يعقوب. استمر العراك بينهما ردها من الزمن و ما من أحد منهما استطاع أن يميل الكفة لصالحه لأن القوة وحدها لا تكفي، الذكاء وحده يكون حاسما في عراك تتساوى فيه قوة بطش المتخاصمين و تعود إليه الكلمة الأخيرة و القول الفصل في حسم الصراع لصالح من يحسن استخدام إمكاناته و استغلال هفوات نده للإطاحة به و القضاء عليه. تمكن يعقوب بمناورة دقيقة عندما تعثر برونو أن ينجح في تطويق عنقه و خنقه بذراعه القوية و شلّ حركته مستردا حرية المبادرة و التأثير المباشر و الفعال على خصمه الذي زاده الضغط الشديد المسلط على شرايين رقبته ترنحا و استسلاما للأمر الواقع، إذ تغير لون بشرته و تحول إلى لون بنفسجي بينما أخذ لسانه طريقه خارج حلقه مثل ثور جريح ؛ لم يكن في نية يعقوب قتله و إلا ما كان أمهله كل هذه المدة و لتخلص منه

و أنهى أمره للأبد، توقف فجأة عن خنقه و أوقفه. الرجل يلهث، العرق يتصبب منه ممتزجا بالدماء، يتنفس بصعوبة بالغة و هو يترنح يمينا و شمالا كأنه سكران، الأمر الذي يمكّن يعقوب من مغادرة المكان دون صعوبة أو أخطار، وكي يطمئن كلية بدأت مجددا الصفعات تنهمر كالمطر على لورنزوتي، لكمات دقيقة أدمت ملامحه و حولته إلى مسخ بعد تورم وجهه و ظهور بقع متباينة بين الأحمر الفاقع و البنفسجي الناعم تغشاه قبل أن ينهار أخيرا مثل كتلة جليد قطبي من دون حراك.

استند يعقوب إلى الحائط يأخذ أنفاسه جراء الإعياء الذي أصابه و أنهك قواه، ثم توجه إلى صنبور الماء يفتحه عن آخره و يضع رأسه تحته آملا أن ينعشه الماء البارد... و فوجئ للمرة الثانية في تلك الليلة و هو ينفض الماء العالق بشعره بأمر صارم يصدر إليه جعله يستدير رافعا يديه، التبس عليه الأمر إذ لم يتمكن من استيعاب المفاجأة الجديدة إلا بصعوبة، حيث حال الماء الذي غمر وجهه و تسرب إلى عينيه دونه و الإبصار الجيد أو تمييز ما يحدث حوله بسهولة، و تمكن بصعوبة من رؤية خيالين متداخلين يتحركان.

القادمان الجديدان يتكلمان، لكنه لم يفهم كلمة واحدة مما يقولانه، مسح عينيه بظهر كمه، و ناله مباشرة بعد تلك الحركة تهديد واضح. تمكن الآن من تمييز الدخلاء و إن لم يتبين جيدا بعد ملامحهما، لكنه متيقن من أنه لم يسبق له و أن تصادف معهما و لو مرة.

رجلان متوسطا القامة، ثيابهما متواضعة، يضعان قبعات غليظة فوق رأسيهما، أحدهما يضع على عينيه نظارات

إطاراتها حديدية و كلاهما مسلحان، طلب صاحب النظارات من يعقوب أن يستدير ناحية الجدار و تقدم منه الآخر يجرده من سلاحه، انزعج يعقوب من دون أن يبصر ماغنومه و هو يختفي في جيب خصمه.

سحباه إلى الجانب الآخر من المطبخ ثم تقدم صاحب النظارات من برونو يساعده على القيام و هو يئن و يتأوه، يأخذه بدوره يضع رأسه تحت حنفية الماء البارد. دقائق من هذا العلاج المجرب يستعيد بعدها برونو وعيه و ينتفض قائما رغم سيقانه المرتعشة، يمد يده يتسلم خرقة سلمها له أحدهما يمسح رأسه و وجهه منتبها أخيرا لوجود يعقوب، أرسل ناحيته نظرات نارية محملة بشتى و أقسى أنواع الوعيد الذي ينتظره بعد قليل، نظرات تلقي بالفزع و البرودة في الجسم. أدرك يعقوب بفطنته أنه سيقضي أوقاتا حرجة و يكرم بأصناف متعددة من العذاب النفسي و البدني في ضيافة برونو المتحفز و رجاله، ربع ساعة قاس و شاق كما جرت العادة بتسميته.

بداية تقدم لورنزوتي من يعقوب و صفعه بكل ما أوتي من قوة صفعة قوية حملها كل ما يختلج في نفسه من حنق و حقد تجاه غريمه متبوعة بصفعات سريعة و هو يزمجر مثل وحش كاسر أصيب و كل بدنه يرتعش من الغضب و الحنق : ستدفع الثمن غاليا لكل ما فعلته أيها الحقير...

تمسك يعقوب برباطة جأشه و لم يَرد ، ليس من اللائق استفزاز شخص على حافة أعصابه يمكنه فقدان توازنه و برودة أعصابه و الإقدام في أي لحظة على إطلاق النار، ما يجعله يغامر بحياته على الطريقة الروسية و هو في غنى عن ذلك.

أخذ برونو الرجلين جانبا و بدأ يحاورهما، شرب على إثرها كأس ماء كبيرة أتبعها بأخرى من الكحول دفعة واحدة. و أعلن أخيرا ليعقوب : ستأتي معنا أيها الحقير، هنا المكان لا يناسبنا لعمل ما نريد، و أنصحك باتباعنا من دون إثارة مشاكل إن كنت تحرص فعلا على حياتك.

حسنا، أنا أهيم بالتجوال ليلا، رد عليه يعقوب.

أخرج من الشقة محاطا جيّدا بالرجال، و أنزل السلم و ذراعاه ممسكة بإحكام من لدن مرافقيه للحيلولة دونه و محاولة مجرد التفكير في الفرار، أدلف بقوة داخل سيارة الفورد المتوقفة أمام الباب، و جلس إلى جواره صاحب النظارات و مسدسه يضغط على خاصرته و الآخران في الأمام، لم يجلس برونو لقيادة السيارة بل تركها للآخر لأنه مازال يعاني من دوخة و دوار. انطلقت السيارة كالإعصار، و بعد مرور لحظات تعجب يعقوب من عدم صرعه كما جرت عليه العادة أو جعل عصابة حول عينيه لمنعه من معرفة الطريق المتبع، الأمر غير مطمئن البتة مما حمله على التوجس و الشعور بالخطر الداهم الذي يتربص به، الدليل واضح للعيان، لم يعيروا أدنى اهتمام و لم يعبؤوا بأخذ أي إجراء احترازي من باب الاحتياط كي لا يتعرف و يخزن في ذاكرته الطريق المؤدي إلى المكان الذي ينوون أخذه إليه، ما يؤكد نيتهم المبيتة بالقضاء عليه و التخلص منه، و أدرك بما لا يدع مجالا للشك و التأويل أن حظوظه في الإفلات و البقاء حيا أصبحت شبه منعدمة إن لم تكن مستحيلة، هذه المرة غير المرات السابقة و لن يتمكن من الإيقاع بهم بسهولة، سيرتابون و يحترسون منه و لن

يتركوا له فرصة للنجاة و الإفلات بجلده، و ساوره الندم إذ لم يصطحب الكاشف في رحلته الاستكشافية على خطورتها التي لم تكن غائبة عن ذهنه.

إنهم يأخذون نفس الطريق المؤدي إلى المنزل الذي احتجز فيه سابقا مع غوندليزا و تمكن من النجاة بعد القضاء على الرجال الثلاثة، و أثناء قطعهم الطريق لمح يعقوب من بعيد الدرب الذي يقود إلى المكان الذي تخلص فيه الكاشف من جثة شريف خان و التي لم يتم العثور عليها إلى حد الآن.

دقائق من بعد و تأكدت ظنون يعقوب في المكان الذي يقاد إليه. تركت السيارة في الخارج و تم اقتياده و ثلاثة مسدسات مصوبة نحوه ليكون له شرف أول من يدخل إلى المرآب الذي قام بفتحه صاحب النظارات. لم يتغير أثاثه و بقي على حاله كما تركه آخر مرة بما في ذلك بقع رمادية لا تزال عالقة بالأماكن التي سقط فيها الرجلان و التي ناب فيها يعقوب عن هازم اللذات و مفرق الجماعات في إنهاء حياتهما.

أغلق الرجل الآخر الستارة الحديدية التي أرسلت أنينا حادا متأوهة من شدة القر و الرطوبة.

هكذا نكون في اطمئنان تام، قهقه لورنزوتي باستهزاء باطنه وعيد و قد بدا للعيان أنه استرد كامل وعيه و لياقته البدنية.

في هذه اللحظة شعر يعقوب بانزعاج و ضيق، و بدأت الأدرينالين في الارتفاع، و نبضات قلبه و دقاته تتسارع و نسبة سكر دمه في التزايد...، كيف لا و قد استشف بغريزته المتحفزة وقوعه الوشيك الذي بدأ يتجسد في أفق الملموس في براثن من لا يرحم بالتصميم الراسخ على تعذيبه و النيل منه

على غرار نفس المعالجة التي خضع لها و لم يمضِ على ذلك أكثر من أربعٍ و عشرين ساعة، ما جعله يتذمر و يشمئز في سره من مثل هذه المهنة و شبيهاتها.

منذ لحظات و سؤال يلح عليه و يحيّره : ما من أحد منهم لامه أو عنفه عن مسؤوليته في قتل ثلاثة رجال في نفس هذا البيت، هل يجهلون ذلك ؟ لا بد أن تكون غوندليزا قد أخبرتهم و إلا من غيرهم يكون قد أخذ الجثث و تخلص منها ؟؟؟

شكلوا فجأة حوله ما يشبه نصف دائرة، لم يعد يدري ما سيُفعل به و إلى من يوجه نظراته و اهتمامه، للنظرات الجليدية القاسية أم للمسدسات الأوتوماتيكية المصوبة نحوه.

لماذا كل هذا الحزن يا عزيزي ؟ علق برونو بصوت مرتعش ثم قال محذرا الرجلين : حذار، لا تأمنا جانبه، إنه ثعلب ماكر عكس ما يوحي به مظهره المخادع.

ارتخت عندها ملامح يعقوب قليلا و زال توتره لأنهم لا يزالون يخشونه و هذا عامل جيد يصب في صالحه لرفع معنوياته و شد أزره أكثر منهم، و كي يقطع الشك باليقين فليجرب ذلك ؛ ضرب فجأة الأرض بقدمه و أصدر صوتا يشبه زئير الأسد جعلهم يتراجعون إلى الخلف فزعا تصاحبهم ضحكات يعقوب المجلجلة في حيز المكان.

جرح كبرياءهم و أحاسيسهم جعل وجه برونو يحمر مثل حبة البندورة. الآن كلهم متحفزون و أمارات الشرر تتطاير من ملامحهم، و توترهم باد للعيان يظهر من ضمهم لقبضاتهم في تصميم ردا لاعتبارهم و عزة نفسهم التي تم المساس بهما منذ حين من طرف سجينهم.

أدرك بحدسه أنه قد حان وقت دفع الفاتورة، لكنه يدرك أيضا أنه في وضعه الحالي لا يمكنه أن يدافع عن نفسه من ثلاث جهات في آن واحد مهما أوتي من قوة و دهاء و عزيمة، و رغم ذلك حاول المناورة فتزحزح ناحية اليمين كي يحصل على ركن تمنحه زاويته حماية أفضل، قفز لحظتها صاحب النظارات المتواجد في الركن الأيسر كي يسد عليه الطريق و يعيقه عن تنفيذ خطته، لكن يعقوب هجم بقوة في الفتحة الممنوحة له، أدرك برونو ماهية تلك المناورة و ما تخفيه فتدارك ذلك و حالفه الحظ بأن كان أسرع منه فانطلق مثل رصاصة تتقدمه رجله في اندفاعه كي يضع حدا لمغامرة يعقوب الذي اصطدم بعنف بالساتر الحديدي الذي أصدر رنينا شبيها بأجراس الكنائس.

تحامل يعقوب على نفسه و وقف بصعوبة بالغة بينما استدار الآخران في حركة سريعة يتقدمان نحوه، و مر بذهنه أن منفذ النجاة الوحيد المتبقي له هو الوصول إلى الباب الذي يعطي إلى داخل البيت كي يتمكن من النجاة و الإفلات، هو يعرف جيدا المكان بتفاصيله المملة... إنه أمله الوحيد الذي يمكن أن يساعده و يخرجه من هذه الوضعية العويصة و الخطرة.

قام بمناورة ذكية موهما خصومه بالهجوم من اليسار، ثم راوغهم بحركة سريعة معتمدا على لياقته و توجه يمينا تاركا إياهم يندفعون يسارا إلى الجهة الخطأ، كاد ينجح في مسعاه لو لم يعترض مساره – لسوء حظه – كرسي لم يتمكن من تفاديه فاصطدم به، و عندما هم بالوقوف وجد برونو يقف منتصبا أمامه مثل المارد :

اهدأ الآن و اترك ألاعيبك إلى يوم آخر، و اشكر الله أننا لم نطلق عليك النار و أنت مندمج في محاولتك الصبيانية.

كما تريد، رد يعقوب و هو يرفع يديه فوق كتفيه بينما أنبوبة المسدس تضغط بشدة على فقرات صدره...

عليك أن لا تعيدها مرة أخرى، أنت لا تجهل هذا بالطبع... دمدم برونو مرفقا قوله بالفعل على سجيته تعبيرا عن مدى حنقه الدفين الذي طفا فوق السطح، إذ دار بعنف و هو في مكانه و أنزل ذراعه اليسرى فانطلقت فجأة طلقة بعيدا عنه بما يكفي، لكنه بالمقابل كاد أن يصيب في ثورة غضبه الحامية صاحب النظارات لولا أنه تدارك الأمر و تحرك من موقعه في اللحظة المناسبة.

استمر يعقوب يقول بلطف و هو يبتسم : هل رأيت كم هي خطيرة الأسلحة عندما يحوزها من لا يعرف كيفية استخدامها و التحكم فيها.

ازداد حنق برونو و غضبه تفاقما، يبدو ذلك من انتفاخ أوداجه و اضطرابه، و كي يداري حرجه أمام رجاله و غريمه بدأ يسب و يشتم بلغته الأم رجله الذي كاد يورده حتفه و يرسله إلى خوارزم (على حد تعبير أبي مسلم الخراساني كناية عن القتل) بينما يعقوب يلحس شفتيه في ارتياح إذ نجح في زعزعة ثقة خصمه المفرطة بنفسه و جعله يتوتر و يفقد التحكم في أعصابه و السيطرة على نفسه، عامل نفسي جد هام في مثل هذه المواضع العصيبة المنذرة بشتى الأخطار يضعضع الخصم و يبلبل أفكاره و يشتتها، و النتيجة الحتمية لكل ذلك فقدان الخصم

الثقة و الاعتداد بنفسه و بإمكانياته، و المحصلة تكون ارتدادا عكسيا لصالحه و لو مؤقتا إلى حين...

يعقوب : يجب عليك تعييني مدربا ، هذان الصغيران يملكان مواهب لكن تنقصهما التقنية، و إن استمرا على هذه الحال سيقتلان قبل أن يفطما...

صاح به لورنزوتي و هو يبدو الآن في أوج غضبه و عنفوان توتره : أمسك عنك لسانك و نصائحك أيها الجرذ الحقير... ضع يديك وراء ظهرك و دعهما يقيدانك و إلا كسرت ساقيك بهذا (و هو يلوح بمسدسه الضخم في الهواء).

حاضر، أنا جاهز، افعلوا ما تريدون.

تقدم منه صاحب النظارات و قيده بإحكام.

لم يفته أن ينفخ قبضتيه و يسحبهما إلى أقصى ما أمكنه للاحتفاظ بأمل و فرصة محتملة إن منحته إياها الأقدار لتحرير نفسه.

اجلس على هذا، أمره برونو و هو يشير له إلى الكرسي الحديدي أمامه.

جلس يعقوب و هو يقول في سريرته : لقد بدأت جلسات المحبة و المَوَدّة.

بدأت تنهال عليه اللكمات و الركلات من كل حدب و صوب، و كان أشدهم قسوة و سادية لورنزوتي المتوتر.

أغلق يعقوب عينيه و خريطة جسده الطبوغرافية تستقبل شتى الإشعاعات المحملة بإسقاطات العنف الوحشي و الشرس المعبرة عن الحقد الدفين المتغلغل في أغوار تعاريج نفسياتهم

المريضة، يفرغونه في مثل هذه المناسبات كأنهم في جلسات تفريغ نفسي عند نطاسي.

تحول جسمه في لحظات إلى بؤرة للآلام و الأوجاع، فهؤلاء الملاعين يريدون تفجير رأسه الكبير مثل كوكب الأرض و تهشيم كل ما يتواجد داخله.

لا عليك، كل ما تراه ليس سوى مقبلات و تسخين عضلات قبل الوجبة الرئيسية الدسمة، محفزات للشهية ليس إلا... أوضح له برونو بصوت حانق.

جميل جدا... ردد يعقوب في دخيلته.

توقفوا أخيرا... ليس رحمة و رأفة به لكن الإعياء أخذ منهم نصيبه.

نصف ساعة ! أعلن صاحب النظارات متبجحا بالرقم القياسي الزمني المستغرق الذي حطموه في طبخه.

تحول يعقوب إلى خرقة بالية و أسمال رثة فاقدا الوعي جزئيا، وصل سمعه صوت برونو يشرح له فوائد المقبلات التي تدخل في باب تليين عناده و فت عزيمته و هي مدخل للعمل الكبير المنتظر، و انطلاقا من هذه اللحظة هو وحده من يطرح عليه الأسئلة و يستفسره عما عسر عليه فهمه.

بداية، أخبرنا لمصلحة من تعمل ؟

اذهب إلى الجحيم... تمتم يعقوب.

لقد جانبت الصواب، سنقطعك إربا كي تعرف فضيلة التواضع و التأدب...

أخرج صاحب النظارات شيئا ما من جيبه و شرع يفتحه بتأنٍّ تحت نظر يعقوب الضبابي و إن ظل يحتفظ قليلا بقوة بصره و حصافة بصيرته ليتعرف على شفرة حادة لمع نصلها مثل لمعان البرق.

هل تعرف ما أمسكه بيدي الآن ؟

اقشعر بدن يعقوب و أدرك بأن الوقت قد حان فعلا للقيام بما في حوزته و استطاعته من مناورات و حيل، و خير له الساعة التظاهر بالانصياع و إلا ساءت عاقبته...

يا إلهي ! هل فقدتم عقولكم ؟! احتج يصيح بصوت متفرق.

امنعنا إن استطعت أيها المتحذلق، رد عليه برونو ضاحكا ملء فيه.

في ما يشبه الهلوسة السادية، مرر صاحب النظارات الشفرة الحادة على راحة يده في حركات سريعة تصدر خشخشة تزيد من رهبة الموقف و ترتعد لها الأوصال.

توقفوا أرجوكم، (تضرع يعقوب متوسلا) أفضل الكلام و التعاون معكم من دون عنف.

ساد صمت قصير خاله يعقوب دهرا كأنهم مترددون أن تضيع منهم فرصة شفاء غليلهم منه و إذلاله بشتى أصناف التعذيب التي لا تخطر على باله كي يعرف إمكانياتهم و يتعرف على مواهبهم و تقنياتهم التي كان يسخر منها منذ دقائق خلت.

نحن في الاستماع إليك، بداية من هي الجهة التي تستخدمك ؟

أعمل مع المصالح الكوبية، رد يعقوب على الفور و من دون تردد.

آه ! (رد برونو دون اندهاش) كيف هذا... و أنت أمريكي ؟ أم أنا مخطئ ؟

نعم، لكنني تعرضت إلى مشاكل كبيرة داخل بلدي... و يجب أن أعيش مثل كل الناس أليس كذلك ؟

حسنا... حسنا... أي نوع من المشاكل حدثت لك في بلدك كما تزعم ؟

تظاهر يعقوب بالتردد و لم يصر برونو، لكنه واصل مهددا : هل تريد أن نعود إلى ما كنا عليه منذ لحظات ؟ و تحركت الشفرة المفتوحة بقوة تلاعب الهواء.

كنت ضابطا في مكتب التحقيقات الفيدرالي الـ "أف بي أي" (FBI) في مدينة ميامي بفلوريدا، عزلت من منصبي و أنهيت مهامي بسبب استغلال المنصب و استعمال مركزي و نفوذي للحصول على امتيازات غير قانونية... اهتمام بعض السياسيين بأمري بسبب علاقاتي المتشعبة مع حركات و تنظيمات تقدمية عربية و أمريكو- لاتينية عجل بالنهاية المحتومة، لكن أيضا بالمقابل نظير الخدمات التي قدمتها لهؤلاء السياسيين تمكنت من الهروب و السفر إلى "ناصو" عاصمة الباهماس و منها إلى "هافانا" في كوبا حيث أمتلك علاقات و اتصالات جيدة في منطقة "الأنتيل" و أمريكا الوسطى.

سنتأكد من كل ذلك، رد عليه برونو متبرما في حزم.

أمسك يعقوب نفسه من الضحك بصعوبة بالغة، إن أرادوا فعلا التحقق بدقة من مزاعمه يتطلب منهم الأمر وقتا ليس

بالقليل، و هو يأمل طبعا أن يتمكن قبل ذلك الحين من الإفلات من بين أيديهم، و لِم لا... التخلص منهم و نيلهم نفس المصير على غرار زملائهم السابقين.

استأنف لورنزوتي استجوابه : حدثنا قليلا عن نشاطاتك الحالية ؛ كم مضى عليك و أنت هنا بالجزائر ؟

أنا جزائري المولد و إن كنت أحمل الجنسية الأمريكية، أحب دائما زيارة مسقط رأسي و لا شيء يشغلني عن حنيني إليه و شغفي به، أنا هنا منذ أسبوع.

ما طبيعة المهمة التي أوكلت إليك و كلفت بإنجازها ؟

مهمتي تتمثل و تنحصر فيك و في رجالك، أي التحري و التنقيب عن كل ما يخصك، عن نشاطاتك و طبيعتها، مجالاتها و أهدافها بما في ذلك - كما أسلفت - الحصول على قائمة أعضاء شبكتك و كل المتعاملين معك في شتى المستويات.

من الشخص الذي كلفك خصيصا بهذه المهمة ؟

تنهد يعقوب و أبدى ترددا جليا على محياه موحيا لمستجوبه أنه يخشى على حياته إن هو باح بالسر.

أنا عطشان، اسقوني من فضلكم.

عندما تفرغ كيسك ستشرب إلى حد الثمالة، رد عليه صاحب النظارات في حزم.

أغرق يعقوب في الضحك مما أيقظ آلامه، و واصل قائلا : أنتم مختلون عقليا و لا شك، الشفرة الحادة وحدها تكفي

لردعي كي أفرغ كل ما بدلوي مما تريدونه مني أيها السادة الأفاضل.

تدخل لورنزوتي و طلب من صاحب النظارات أن يأتيه بالماء.

ابتعد صاحب النظارات و هو يدمدم و يلعنه.

استغل يعقوب الفسحة ليضع بعض الترتيب في أفكاره، إذ يتحتم عليه أن يجعلهم يصدقون قصته و يجدونها معقولة، أمر هام و إلا انهار كل تخطيطه لو خامرتهم أدنى شكوك في روايته، و الأهم من ذلك أنهم سينخدعون و يصبحون أحرص ما يكون على حياته و يؤجلون تصفيته تكتيكيا إلى حين التأكد من صدق روايته و ثبوت مزاعمه.

أفرغ يعقوب بتلذذ و استمتاع كوب الماء البارد الذي أنعشه و أثلج صدره، و تركه برونو ثوان قبل أن يستأنف استجوابه بصوت هادئ خال من كل تسرع أو انفعال :

هي قل، من الذي كلفك بهذه المهمة ؟

هو... هو العقيد "ماكسيمو فيلازكاز" في هافانا.

فيلازكاز... فيلازكاز ؟ هل أنت متأكد مما تقول ؟ ردد برونو بسرعة.

رد يعقوب سريعا : على كل أنا أعرفه بهذا الاسم، لكن حتى أكون أمينا معك لا يمكنني أن أجزم بأن هذا هو اسمه الحقيقي و أنت تعرف هذا جيدا.

أعطني أوصافه.

اختلق يعقوب أوصافا من مخيلته تنطبق على عديد الأشخاص و ليس على شخص محدد بعينه.

أين التقيت به آخر مرة ؟

زارني في غرفتي بالفندق عند قدومي إلى الجزائر.

كيف أمكنه ذلك ؟

كأنك تجهل أو تتجاهل العلاقات الوطيدة التي تجمع بين كوبا و الجزائر حتى من قبل استقلال هذه الأخيرة نظرا لمواقف الدعم و المساندة التي قدمتها هافانا لثورة تحرير الجزائر من نير الاستعمار الفرنسي.

هز برونو رأسه موافقا و لم يعقب، إنما واصل بطرح سؤال آخر :

حلقة الاتصال هنا بالجزائر ؟

أطرق يعقوب متظاهرا بالخوف و هو يتمتم : لا أستطيع تحت أي ظرف إعطاءك اسمه.

هو متأكد جدا من أن علاقته بالكاشف ليست بخافية على لورنزوتي، و انطلاقا من هذه اليقينية لفق بإتقان و دهاء أركان قصته الكوبية إدراكا منه عمق العلاقات التي تربط بين الجزائر و مصر من جهة و السوفييت و كوبا من جهة أخرى و التوجهات المشتركة بين الجميع كونهم ينتمون إلى نفس المعسكر الاشتراكي تحت مظلة روسيا المعادية للغرب و زعيمته أمريكا الأمبريالية.

لورنزوتي يضحك بينما صاحب النظارات المقيت يدفع مجددا بالشفرة الحادة نحو وجه يعقوب المتورم الذي تراجع

بسرعة إلى الوراء، كان هذه المرة فزعا و مرعوبا بصدق، رؤية الشفرة كانت تثير عنده دائما ذكريات العذابات النفسية التي لا تحتمل و لا تطاق.

يس..ري الـ..كاشف. أطلقها يعقوب مقطعة بصعوبة متظاهرا بالتردد و الخوف.

كنت على علم بذلك، (رد لورنزوتي بثقة) هات عنوانه.

إلى هنا ينتهي اللعب، هل يتهكم عليه و يسخر منه ؟ أيعقل بأنه يعرف علاقته بالكاشف و في نفس الوقت يجهل عنوانه و مقامه و هو من وضع جثة شريف خان في شقته ؟ لكنه قرر إعطاءه ما يريده منه، سجل برونو المعلومات بكل اهتمام و الجدية بادية على وجهه، و هذا ما أثار استغرابا و تساؤلات عديدة في نفس يعقوب.

ماذا تقول ؟ لم أسمعك جيدا... سأله برونو عندما رآه يتمتم بكلام مثل الهمس.

لا شيء، قلت فقط بأنك لن تجده لأنه لا يرجع إلى البيت منذ مدة، منذ تشريف الشرطة مسكنه.

لم يصدق برونو كلامه و رد عليه ببساطة : ستأخذنا إليه بإرادتك أو رغما عنك.

لا تعتمدوا علي في ذلك، رد عليه يعقوب بسرعة.

ارتسمت ابتسامة قاسية على شفتي برونو الرقيقتين مثل شفاه غادة فاتنة و هو يكلم يعقوب : لا تعاند، أنا أتكل و أعول عليك كثيرا، إلا إن كنت ترغب في تزيين وجهك بالشفرة المتشوقة إلى ملاطفتك.

اقتربت الشفرة الحادة من وجهه مرة أخرى في لمح البصر و أقرب من السابق ما جعل لونه يتغير و جلده يتشوك.

ثم سمع صاحب النظارات يخاطبه بصوت خال من كل إحساس : لعلمك أيها الحقير، أنا اختصاصي في بتر و تقطيع أدق أجزاء الجسم البشري و الرسم على جلود الأنذال المتعجرفين من أمثالك و على شاكلتك، الطرز الذي يروقك و يخطر ببالك أحققه لك على الفور، لن تشعر بالألم فقط بل سيجافي الكرى عينيك و يهجرهما دون رجعة طيلة حياتك... بالطبع، فلن تتمكن بعد ذلك مطلقا من غلقهما لأنني أكون قد اقتلعت جفونك ! و أرسل ضحكات رنانة زادت منظره نفورا و بشاعة.

ابتلع يعقوب ريقه بصعوبة لحرج موقفه و لا يسعه إلا أن يستسلم للأمر الواقع في انتظار المستجد من التطورات في المدى المنظور... فرد متململا :

حسنا، موعدي معه عند الساعة التاسعة في حانة.

هز برونو رأسه ببطء و قال : نريده الآن و ليس غدا، هل تفهم و تستوعب صعوبة الموقف الذي وضعت نفسك فيه ؟

أرسل له يعقوب نظرات وجل و رد سريعا : لا أدري حقيقة كيفية الاتصال به و التواصل معه إذ رأينا أنه من باب سلامتنا أن نفترق بسبب الشرطة.

عاودت الشفرة الحادة الاقتراب منه مرة أخرى، و بحركة آلية ألقى يعقوب برأسه إلى الخلف و العرق يتصبب من جبينه على وجهه و وخز لا يحتمل يثير هيجان ثورة جراحه.

قال برونو مغيّرا النغمة : إن تركنا الآن هذا الأمر جانبا، هلا فسرت لي سر اهتمامك المبالغ بغوندليزا ؟

لم يظهر يعقوب أي ممانعة و أجاب قائلا :

لأنها كانت تمثل بالنسبة لنا الحلقة الأضعف و الغنيمة السهلة نستعملها كورقة ضغط و تهديد في اللحظة المناسبة.

من أجل أي هدف بالضبط ؟

السبب يعود إلى علاقتها بالسيد شريف خان.

يعقوب يتمنى من أعماق قلبه أن لا تكون غوندليزا قد فتحت فمها بخصوص الشيفرة ما دام لم يذكرها برونو في سياق أسئلته و يبقى الأمل مسموحا ، فسحة منه على الأقل...

هل وافقتكم و سارت معكم ؟

بالطبع لا ، وصولنا المتأخر قوض تخطيطنا ، ثم علمت أنت بالأمر ، أما تهديدنا لها بإبلاغك فإنها لم تعره أدنى اهتمام و ذهبت جهودنا أدراج الرياح كمن يحرث في الماء أو يصارع طواحين الهواء.

كيف علمت بأنها ستسافر في ذلك اليوم بحرا ؟

لا علم لي بذلك، الكاشف هو من علم بسفرها عن طريق أحد مخبريه على ما أظن، أنا هنا منذ أيام قليلة فقط كما تعلم، و لم يسمح الوقت و الأحداث المتسارعة للكاشف أن يعرّفني بأشخاص خلافه.

كلام موزون و معقول، حذر و حيطة لا غبار عليهما ، الشيء الذي جعل برونو يقتنع و لا يبدي أي اعتراض أو عودة للتهديد باستعمال الشفرة من جديد.

أخبرني عن فرنشيسكا ، لماذا تساعدكما ؟

نحن من تقرب منها، و انساقت بعد إقناعها بأن الفرصة مواتية للانتقام من زوجها الذي يخونها مع غوندليزا، إضافة إلى إغرائها بالمال الذي ستحصل عليه بقبولها التعاون معنا و مساعدتنا في ما نطلبه منها.

و شريف خان، أين هو الآن ؟

حدق يعقوب في وجهه فتبين له بأن الرجل جاد فعلا، لا يمزح أو يسخر منه.

هل تحاول خداعي ؟ أمر عجيب أن تكون تجهل ما حدث لشريف خان !

لم يتمكن من رؤية ردة فعل لورنزوتي لأن النور انقطع في تلك اللحظة فجأة، تلاه مباشرة سيل من السباب و الشتائم تدفقت من أفواه الثلاثة كأنهم فرقة كورال كنسي تؤدي ترانيم دينية.

تحسر يعقوب من عدم تمكنه استغلال الظرف المواتي لوجوده مكبلا بإحكام، و تمنى في قرارة نفسه لو أن العطل حدث قبل نصف ساعة لكانت الأمور قد تغيرت كلية لصالحه، لا حيلة له الآن، عليه أن يجاري التيار إلى حين تواتيه فرصة و يتدارك الوضع.

أشعل الرجلان بسرعة مصباحي جيب في نفس الوقت الذي أصدر فيه برونو أمرا إلى صاحب النظارات الذي أسرع الوطء و خرج مسرعا من الباب المؤدي إلى داخل المنزل و اختفى.

الوقت يمر ثقيلا و لا جديد في الأفق و التيار الكهربائي يعاند و يستمر في الانقطاع، طالت غيبته على غرار صاحب النظارات. يظهر بأن برونو فقد صبره و لم يعد يمكنه الانتظار أكثر فأرسل خلفه الرجل الآخر في نفس وجهة زميله.

أتمنى أن تعترف بجميلي أن سلمتك الكاشف على طبق من ذهب.

ظهرت أمارات الدهشة و التبرم معا على وجه برونو : امتنان و اعتراف بالجميل... ما شاء الله، و لماذا حسب رأيك أيها المتفلسف ؟

وضح الأمر إذن ! بعد كل ما قدمته لكم ستتخلصون مني، علي أن أهرب... إلى أبعد ما أستطيع.

سنرى هذا في ما بعد، رد عليه الآخر سريعا من دون تفسير أو إيضاح تاركا إياه على عطشه، التزم يعقوب الصمت عقبها بعد أن رمى بالطعم لبرونو موحيا له أنه على أتم الاستعداد للتعاون معه.

عليه الآن بالصبر و الانتظار، إما أن ينجح قارب مكيدته و يمر بسلام إلى شاطئ الأمان، أو تتعثر و تتكسر مجاديفه على صخور تعنت و دهاء برونو و عندها عليه بانتظار تدخل الأقدار لإخراجه من الموقف الحرج الذي يقبع فيه، حياته أو مماته معلقتان بخيط أوهى من خيوط نسيج العنكبوت.

و هما على تلك الحال و كل واحد منهما في شأن يغنيه عما هو فيه الآخر من تفكير و تخطيط، وصل أسماعهما لغط و أصوات قوية و غريبة حادة و صماء لم يدركا كنهها و ماهيتها متبوعة بطرطقة باب...

تساءل يعقوب إن كان برونو يشعر مثله بحدوث شيء غريب مثير للريبة و التوجس و التوتر ؛ و قبل أن يجد جوابا شافيا لتساؤلاته عاد النور فجأة متزامنا مع صوت جهوري متسلط يصدر أمرا : ارفع يديك و لا تتحرك برونو !

لم يتمكن يعقوب من تبيّن القادم الجديد لأنه كان يجلس مديرا ظهره للباب، لكنه استلطفه و أعجب به.

يسمع من جديد وقع خطوات ثقيلة تحط الرحال بالموقع.

من أنتم ؟ سأل برونو الذي استعاد برودة أعصابه بعد أن أخرسته المفاجأة.

أنا محافظ الشرطة شاكر.

اللعنة... (ردد يعقوب في سريرته) ينطبق علي المثل الجزائري القائل : « حاول الهروب من السجن فسقط متعثرا عند البوابة ».

تقدم رجلان من برونو و ألبساه صفاد اليدين.

اختطاف و احتجاز، اعتداء جسماني و جروح... رصيدك ممتاز سيد لورنزوتي، (ردد المحافظ في سعادة بالغة) ظننتك أذكى من هذا و قد خيبت ظني فيك، لم نطلق سراحك إلا لنتتبع خطواتك عن بعد كي نتمكن من القبض عليك متلبسا.

رمى برونو برأسه المتورم إلى الخلف و رد قائلا : ليس عندي ما أقوله.

في هذه اللحظة تظاهر المحافظ بأنه اكتشف يعقوب فجأة :

من أنت و ماذا تفعل هنا ؟

لا علم لي بذلك، (رد يعقوب) السيد أمامك كان بالضبط يحاول معي، اسأله، أكيد ستجد الجواب عنده.

ها... ها ! فهمت مرادك، رد الشرطي و لسان حاله متعاطف و ممتن ليعقوب.

بأمر من المحافظ، نزعت قيود يعقوب الذي أعد سلفا خطة جاهزة تتمثل في ربح الوقت ما أمكنه ذلك و الامتناع عن الذهاب إلى مقر الشرطة مهما كلفه الأمر.

حاول القيام على رجليه لكنه انهار و سقط كجلمود صخر حطه السيل من عل متظاهرا بالإغماء و الدوار.

المسكين يعاني الأمرين كما يبدو عليه، سنأخذه على الفور إلى أقرب مستشفى يتلقى العلاج المناسب، أكد المحافظ شاكر في شفقة و تعاطف مع حالته السيئة.

حسنا... قال يعقوب في دخيلته و هو يكاد يطير من شدة الفرح.

وجد يعقوب المحافظ شاكر يشبه كثيرا الكاتب "صمويل جوزيف" مع فارق الذكاء طبعا، نوعية عنيدة مع قليل من المكر و الدهاء جعلا منه شخصا مسالما غير عدواني إلى أبعد الحدود.

يعقوب الآن يرزح تحت كومة من الضمادات الطبية جعلت رأسه يختفي مع ملامحه، لا توجد أفضل من هذه الوسيلة كي يمكنه التهرب من الأسئلة المحرجة بدلا من لعب دور الأبله الأحمق، لكن رغم حالته المزرية لم يفلت من ثقل إلحاح المحافظ...

مع ذلك، يمكنك عزيزي أن تخبرنا باسمك على الأقل ؟

لا، حقيقة لا أذكر أي شيء يتعلق بشخصي بما في ذلك اسمي، أرجوك صدقني فأنا لست أكذب عليك، أنا ممتن لك و لرجالك بحياتي فلولا حضوركم في الوقت المناسب لكنت في خبر كان، ستعود إلي ذاكرتي حتما بعد أخذ قسط من الراحة

و زوال التوتر، قليلا من الصبر سيدي المحافظ و ستحصل على كل ما تريده مني.

هز تقلص تشنجي خفيف الزاوية اليسرى من فم الشرطي، هي العلامة الوحيدة الدالة على قلق الشرطي و توتره رغم جهده الشاق للتحكم في أعصابه و إعطاء صورة هدوء أولمبي مؤثرة أمام الجميع. وقف فجأة و فتح الباب و انصرف في صمت.

تقدمي من فضلك سيدتي.

إنها السيدة "ماريكا موريتشي" بجلالة قدرها تشرف المكان، أحس يعقوب بحرج أخلاقي...

كان المحافظ على الطريق الصحيح ما يجعل موقفه يتعقد و يزداد سوءا.

هل تعرفت عليه سيدتي ؟ سأل المحافظ المرأة العجوز بصوت رقيق خافت.

حدقت فيه العجوز مليا بتأنٍّ و هي تعدل في كل مرة من وضعية نظاراتها قبل أن تنفجر شبه غاضبة : كيف تريدني أن أتعرف عليه و كل هذه الأغطية تخفي وجهه و ملامحه ؟ هل أنت تسخر مني ؟! تزعج عجوزا مسكينة من سن جدتك من أجل لا شيء... عيب و عار عليك ما تفعله يا بني.

كانت العجوز في قمة غضبها.

ابتسم المحافظ و هو يقول بلطف : معذرة سيدتي إن أزعجناك، أنت تخدمين العدالة و شهادتك جد هامة لنا، أسألك فقط إن كنت قد سمعت صوته سابقا ؟

كيف تريدني أن أعرف صوته و هو لم يتفوه بكلمة، اجعله يتكلم و سنرى... ردت في حنق على سؤال الشرطي الغبي.

استعد يعقوب و هو يستمع إلى الحوار الدائر حوله كي يندمج في اللعبة و يساير الخطة أو بالأحرى الشراك المنصوب له، و هو لن يجابه عناء كبيرا لأن فمه المتورم جراء الضرب المبرح الذي تلقاه شوه نطقه و تغيرت مخارج نبرات صوته. و نطق أخيرا :

أهلا بك سيدتي، أنا بدوري أتساءل بفضول كبير و اندهاش محيّر عن سبب إزعاجك، بل أستنكر ذلك من السيد المحافظ الرجل الشهم، و مع ذلك أنا سعيد جدا بمعرفتك.

ابتسمت العجوز برقة، دليل واضح أنه تمكن من جلبها إلى صفه و جعلها تتعاطف معه.

شكرا بني، أتمنى لك الشفاء العاجل و العافية. ثم استدارت ناحية المحافظ الذي ظل يتابع المشهد بكل اهتمام، يحدق فيها مركزا نظره على حركة شفتيها مثل متهم ينتظر صدور منطوق الحكم من فم القاضي، ثم أكملت تقول : كل ما يسعني قوله أنه إنسان مؤدب و لطيف.

و الرجل الآخر ؟ استفسر المحافظ.

الآخر أيضا كان رجلا لطيفا و لا يمكنني أن أقول العكس.

شهادتها لا تفي بالغرض، لا تقدم و لا تؤخر و لا تسمن و لا تغني من جوع، و يبقى الأمر معلقا راكدا يراوح مكانه سجين نفس النقطة.

لم يلح الشرطي عليها أكثر، لكنه فتح خزانة حائطية و ناداها : سيدتي، تعالي و ألقي نظرة فاحصة على ملابسه،

خذي وقتك و تمعني فيها جيدا قبل أن تقرري إن كنت تعرفينها أم لا.

ضحك يعقوب في سره لأنه كان قد غير ملابسه جملة بعد زيارته السيدة في بيتها و ثيابه الحالية توجد في حالة يرثى لها، أسمال بالية و حتى لو كانت هي نفس الثياب التي رأته فيها السيدة العجوز فلن توفق و تتعرف عليها جراء الحالة التي هي عليها، و هو بالضبط ما عبرت عنه السيدة بعبارات حادة ألقتها في وجه الشرطي المسكين الذي أصابه الخرس.

حيته العجوز مباشرة بعد ذلك بكثير من العطف و اللطف المعروف عن الإيطاليين منكرة بصراحة وجوده تحت رحمة شخص يعرضه لمثل هذه المواقف و هو مريض يعاني، ثم انصرفت بكل جلالها و وقارها متجاهلة طلب المحافظ منها الانتظار كي يرافقها أحد رجاله يوصلها إلى بيتها.

أغلق بعدها المحافظ شاكر الباب بشدة و عنف و قد ركبته عفاريت غضب جامح أخذ بمجامع كيانه.

حل صمت ثقيل بالغرفة، طال أمده و لم يكسر حاجزه و يهتك أستاره أي طارئ مستجد... انبرى بعدها المحافظ فجأة يسأله بحنق و تهديد : أنت ترفض أن تتكلم ! تحايلك و ادعاؤك فقدان الذاكرة حيلة لا يمكنها أن تنطلي علي، و خير لك أن تصارحني و تبوح بالحقيقة، خير لك أن تمر إلى كرسي الاعتراف بإرادتك و إلا أخذت منك ما أريد بطرق لا أحبذها أنا شخصيا و بالتأكيد أنت... أرجوك لا تدفعني أن أوذيك، هل وعيت قولي ؟

لم يفت يعقوب التحول الذي طرأ فجأة على الشرطي و لهجة التهديد و الوعيد المستشفة من كلامه، لكنه تظاهر بالعياء و رد عليه بلطف : أقسم لك بأنني لا أتذكر شيئا، سأكون سعيدا لو تمكنت من مساعدتك، لقد استلطفتك فلولاك لكنت قد فقدت حياتي، و قد وجدتني محتجزا و مقيدا... أكيد الضربات الشديدة و العنيفة التي تلقيتها على أم رأسي أتت أكلها و جعلتني أفقد ذاكرتي مؤقتا، أتمنى ذلك و أن لا يصيبني ارتجاج في المخ، و قد طمأنني الطبيب بأن جمجمتي سليمة لم تصب برضوض أو نزيف مما يؤشر على عودة ذاكرتي مجددا، متى سيحدث هذا ؟ الله وحده يعلم بالأمر، اصبر قليلا كما قلت لك سابقا و أعدك أنه بمجرد حدوثه ستكون أول من يعلم به و أجيبك عن كل ما تبتغيه مني و أساعدك بكل ما أملك من معلومات في حوزتي إن وجدت دون تأخير أو مناورة من أي نوع.

أشعل المحافظ سيجارة بيد مرتعشة ثم أخذ نفسا طويلا و هو يرمق يعقوب الذي طلب منه سيجارة.

أنا آسف، التدخين ممنوع عليك أم نسيت بأنك في مستشفى ؟ ثم رمى هو نفسه بالسيجارة على الأرض و داس عليها بكعب حذائه.

في محاولة منه إظهار امتنانه للمحافظ كي يطمئن له و يكسبه إلى جانبه، تظاهر بمده يد العون إذ اقترح عليه الإسراع بسؤال المقبوض عليهم الذين اختطفوه و احتجزوه عن هويته لأنهم بالتأكيد يعلمون من هو و من يكون.

لم يغب ذلك عني و قد فعلت، لكنهم يدّعون عدم معرفتهم من تكون و هو نفس السبب الذي دفع بهم و أجبرهم على تعذيبك.

رد يعقوب من دون إظهار سخرية : إذا يمكن أن تقول بأنهم نجحوا و كسبوا الرهان حاليا على الأقل...

هز المحافظ رأسه هزا خفيفا، ثم ارتدى معطفه الشمعي الذي وضعه بعناية على كرسي عندما دخل، و أعلن ليعقوب : سأنصرف الآن و في الغد سنرى ما يكون.

شكرا سيدي المحافظ، حقيقة أنا آسف، رد يعقوب بنبرات أرادها حزينة مؤثرة إمعانا منه في إعطاء صورة الضحية الطيبة المفعول بها.

خرج الآخر، و انصرف صامتا من دون أن يضيف شيئا.

توقف يعقوب في الحين عن مسرحيته و قد أدرك بأنه في ورطة حقيقية و عويصة لأن المحافظ يتبع في تحرياته الطريق الصحيح، لو أنه عرف حقيقته قبل يوم فقط أو قادته فراسته و إمكانياته المهنية لاكتشاف العديد من الأشياء يتم الربط بينها لَتَمكن دون عناء يذكر من توجيه اتهامات جدية له تضعه في عين الإعصار، و قد تلصق به بعض الجرائم التي وقعت مؤخرا.

تعقد الموقف و أصبح أكثر خطورة، يتحتم عليه الآن اتخاذ القرار المناسب و المرور إلى التنفيذ و بأقصى سرعة.

تقييم سريع للموقف نبهه إلى وجود شرطي يقبع خارج الغرفة لحراسته، تبقى فقط نافذة الغرفة غير محروسة و غير مسيجة، المفارقة أن غرفته توجد بالطابق الثاني و يستحيل عليه محاولة

القفز أو تحقيق إنجاز شبيه بالنظر إلى الحالة البدنية التي هو عليها. أول شرط هو تحييد الشرطي كخطوة أولى... و بدأ يرسم خطة لحظة الحسم الملائمة للإفلات و التي تكون بلا شك في الليل، بعد منتصف الليل إذ يكون الإعياء قد فعل فعلته و أتى أكله بيقظة حراس المستشفى و تحفزهم، يبقى فقط إن كان يملك القوة الضرورية التي تؤهله و تمكنه و لو بدرجة متواضعة من صرع رجل... باستعمال كرسي ربما... يوجد مقعد حديدي في غرفته يصلح بامتياز لأداء مثل هذه المهمة.

دخلت ممرضة جميلة الغرفة، يبدو عليها النشاط و الحيوية، تتقدمها ابتسامة عريضة تتصدر وجهها المشرق.

هل أنت بخير ؟ سألته بصوت يدغدغ الأعصاب.

أنا بخير و عافية و أنتِ ؟ رد عليها يعقوب بسرعة و هو يتأملها.

تجاهلت الرد عليه كأنها لم تسمعه و تقدمت منه، سنها يناهز الثلاثين و إن بدت أقل من ذلك، ممتلئة الجسم، نظراتها تشع شهوانية تختفي تحت حاجبيها الرقيقين... انحنت عليه ترتب الوسادات و نهداها الكبيران يضغطان بشدة على صدره ما أدى إلى إثارة رغباته الجامحة، و لولا حرج الموقف الذي يتخبط فيه و يود الخروج منه بأي ثمن لفكر في خطة أخرى لها علاقة بالأحضان و النهود، باللثم و التقبيل... مجرد التفكير بالأمر جعل رعشة تعتريه و تسري في جل أوصاله المتورمة، بينما قلبه ينحدر و يهوي في هوة عميقة لا قرار لها و الدماء تغلي في عروقه و شرايينه، لكنه سرعان ما طرد تلك الأفكار

من ذهنه لأن الموقف لا يحتمل تشتيت أفكاره و ذهابها إلى أمور ثانوية بالقياس إلى الأمر الجلل الذي يزمع القيام به.

بادرته في همس لذيذ و هي تضع شفتيها الرائعتين على أذنه و أنفاسها العطرة تدغدغ أعصابه : لا عليك يا عزيزي، سنهتم بك الليلة غاية الاهتمام.

تأملها يعقوب بتعجب غير مصدق لما سمعه يصدر عن تلك الشفاه الشهية اللذيذة.

أدركت استغرابه و دهشته من كلامها فأكملت تقول : هذه الليلة، عند الواحدة بعد منتصف الليل. ثم انتصبت واقفة كأن عقربا لدغتها و غادرت الغرفة و هي تتبختر و تتمايل.

ألقى يعقوب نظرة خاطفة على ساعته الفوسفورية فوجد عقاربها تشير إلى الواحدة و النصف. لا يمكن أن نسمي هذا التزاما بالدقة ! عاد يفكر و يحث ذاكرته كي يهرب من ثقل وطأة الانتظار الممل و المحمل ربما بمفاجآت لا يمكنه أن يتصورها هو السجين بين أربعة جدران يستحيل عليه مغادرتها إلا بمساعدة خارجية ينتظرها على أحر من جمر الغضا مثل امرأة على وشك الولادة.

فجأة وصله صوت في الرواق جعله ينتفض في سريره، أنساه توتره آلامه و أصغى جيدا مادا أذنيه، لكن الضجة توقفت و عاد كل شيء إلى سابق عهده، إلى هدوئه العميق.

قرر القيام و التصدي للعمل بمفرده مستلهما الحكمة القائلة : « ما حك جلدك مثل ظفرك »، لا يمكنه أن يبقى طوال الليل ينتظر شيئا لا يدرك كنهه... ليس هناك أكثر وطأة على نفس الإنسان من الانتظار، انتظار حدوث أمر يتعلق تحقيقه

و تجسيده بطرف أو جهة معينة، كيف به هو الذي يجهل تماما من الذي سيقوم بمساعدته و الكيفية التي سيتحقق بها الأمر و الأسلوب الذي سيتبع لإنجاح العملية و الوصول بها إلى بر الأمان. هو صاحب الشأن و الأدرى بحاله و وضعه، عليه أن يعتمد على نفسه أولا و يطرد من مخيلته فرضية فكرة المساعدة الخارجية التي بلغته بها الممرضة و أوحت له بها، و ها قد مر زهاء كبير من الوقت و لا شيء في الأفق إلى حد الساعة، و إن لم يستغل الفرصة الليلة ستكون نهايته سوداء و مأساوية.

أزاح اللحاف و تزحلق إلى غاية أسفل السرير، كانت مجموعة الحقن التي تلقاها لمنع الألم قد حولت جسمه إلى شبه خرقة هشة و لينة، سيقانه كأنها صنعت من عهن لا تقوى على حمله، و موجة عارمة تدق باب معدته تدفعه إلى التقيؤ.

سار ببطء نحو الخزانة يهتدي على نور مصباح صغير معلق في السقف ينير بما فيه الكفاية، ثم أخرج ملابسه و شرع في ارتدائها، لو فاجأه أحدهم سيتظاهر بالبلاهة و يرتمي في أحضانه باكيا و خصوصا الشرطي، ثم يصيح طالبا منه إعادته إلى بيته... لم يستطع أن يمتنع عن الضحك و هو يتخيل نفسه يؤدي ذلك المشهد.

تمكن أخيرا و بصعوبة من وضع رجليه في سرواله، لكنه شعر بالباب يفتح فجأة ببطء... تسمر في مكانه و أمسك تنفسه، إن كان الشرطي قد جاء يتفقد سجينه ستكون هي الضربة القاضية و تسقط خطته في الماء، و لحسن حظه كان القادم شخص الممرضة الشهية، تعرف عليها من ظلها المرتسم من خلال حزمة الأشعة المتسربة من الرواق و هي ثابتة في

مكانها جراء الدهشة التي اعترتها لخلو السرير، أرسل يعقوب ضحكة خافتة جعلت رأس الممرضة يستدير نحوه، لمحته فدخلت و أغلقت خلفها الباب بسرعة و هي تقول بصوت منخفض قريب من الهمس : أدرك جيدا بأنني قد تأخرت و لم أحضر حسب الموعد المحدد.

لو أنكِ تأخرت عشر دقائق أخرى لما وجدتِ أحدا في الغرفة، رد عليها يعقوب هامسا.

سبب التأخير يعود إلى هذا الشرطي الملعون الذي تعنت و أبى أن ينام بسرعة...

كيف ذلك ؟

وضعت له مخدرا خفيفا في الشاي كي يظن بأنه نام طبيعيا حال استيقاظه و لا يتفطن للأمر، و من مصلحته أن يخفيه و إلا طاله العقاب الشديد من وصايته.

ثم تقدمَت منه و ساعدته على ارتداء بقية ثيابه، و كلما لمسته و لامسته سرى تيار كهربائي لذيذ في كامل أعضاء جسمه الحساسة، و لولا حساسية المرحلة و أنه في عجلة من أمره لتمنى أن تطول المدة أو تحجج بأشياء أخرى كي تبقى قريبة منه لأنها من نوعية النساء التي تجذبه و تستهويه، تماثل فرنشيسكا في تكوينها الجسماني و جمالها إن لم تكن تفوقها بمراحل.

لا بأس عليك الآن، أم مازلت متوعكا ؟

كل أعضائي رخوة، لا أستطيع الاعتماد على ساقي.

أعطته بسرعة بعض أقراص من هرمون الأندروجين و تركيبة فيتامينات ابتلعهما على الفور و هو يسألها بسرعة : أرجوك كلميني من فضلك عن خطة الهروب ؟

هناك سيارة تنتظرك في الخارج، ردت عليه بصوت هامس.

من نظم هذا الأمر ؟

تمتمت الممرضة في همس : لا أظنك تتخيل من قام بهذا... إنها سيدة ! نعم إنها سيدة !

امتلأ فمه باللعاب و هو يتخيل يديه تمران تمسحان بلطف و تلمسان بحنان و رغبة المناطق الفاتنة المستديرة و المغرية الساحرة للسيدة التي جازفت بإنقاذه.

حسنا، هيا بنا... رد عليها يعقوب بسرعة و امتنع عن السؤال و معرفة بقية التفاصيل.

على مهلك و بهدوء، اتبعني و لا تتفوه بكلمة، إن فاجأنا أحدهم أكون قد أمسكت بك في الرواق و أقوم بإعادتك إلى غرفتك بلطف، أوصته الممرضة.

موافق، (رد عليها بسرعة) و أدعي أمام الجميع أنني كنت أنوي العودة إلى البيت حيث تنتظرني أمي.

ابتسمت الممرضة و ردت شبه محتجة : هل جننت، ستقضي على كل ما قمنا به و تذهب جهودنا أدراج الرياح، عليك بالصمت و اتباعي، هذا كل ما أتوخاه منك و دع الباقي عليّ أتكفل به، هل فهمتني جيدا ؟

توجهت بعدها مباشرة دون انتظار رده نحو الباب، فتحته بحذر و أطلت برأسها على الرواق، و من دون أن تستدير أشارت له بيدها أن اتبعني.

غادرا الغرفة، أغلق يعقوب خلفه الباب و قد لمح الشرطي يجلس على كرسي حديدي يصدر بين الحين و الآخر شخيرا خفيفا... مرا دون ضجة من أمامه و هو غائب عن الدنيا يغط في نوم عميق.

يعقوب يعاني كثيرا في سيره، يتعثر تقريبا في كل خطوة يخطوها مثل صبي يحاول تجسيد أولى خطوات المسير في حياته و هو يتأرجح، مفاصل ركبتيه تستسلم في كل خطوة حتى أنه يكاد يقع و يسقط لولا بقية من حرارة العزيمة و هول الموقف، و تداركت الممرضة الوضع درءا للفضيحة و انكشاف الأمر و ربحا للوقت فأسندته و ضمته إليها بقوة.

ملامستها له بجنبها الأيمن و التصاقه بها كلما توقفت لحظات تأخذ أنفاسها أوقدت نيران غريزته المتأهبة خصوصا عند نزول السلم و انطلاق مفاتن جسدها الحساسة في تأدية وصلات من الاهتزازات تداعبه مصطدمة به مثل مد البحر و جزره و في الطليعة نهداها الكبيران برأسي حلمتيهما الصلبتين و اللينتين في آن واحد يسحقان جنبه الأيسر و جزءا من صدره بقوة ألهبت نيران شهوته و دغدغت أعصابه مما أنساه آلامه و الخطر المحدق به.

وصلا للتو إلى الطابق الأرضي و كل شيء يسير بصفة عادية. جرته الممرضة التي لم تكن تجهل ما يدور بخلده و سايرته بدورها، و لو كان الظرف غير ما هو عليه و حالته

الصحية مقبولة لاستجابت له و أرته من فنون المتعة ما يبقى عالقا بذهنه طول حياته، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن... سحبته في رواق طويل نصف مظلم، رواق لا نهاية له، خاله رواق يوم الحساب، و إلى حد الساعة لم يحدث أن تصادفا مع أحد رغم وجود الكثير من مصالح الخدمات الطبية و الاستعجالية. أدركا أخيرا نهاية الرواق و جسم يعقوب يرشح بالعرق كأنه أخذ حماما فنلنديا، حمام بخار جاف، و قد ركبه عفريت الغضب من الممرضة التي لم تفكر بإعطائه العقار من قبل لأن مفعول الأقراص يتطلب نصف ساعة على الأقل حتى يشعر بوطأة مفعوله و نجاعته. و فجأة فتحت الممرضة بابا تسرب منه هواء بارد أحاط بهما في الحال.

حذار من الدرجة ! همست الممرضة و هما يخرجان إلى فناء داخلي حيث كانت بعض النوافذ لا تزال مضاءة، بينما الرياح تعصف بقوة مثيرة دوامات من الغبار محملة بأوراق الأشجار تتطاير في كل الاتجاهات رفقة كل ما يرميه و يتخلص منه البشر من الفضلات في الطرقات، و وجه السماء مكفهر في حين تحجب السحب الكثيفة وجه القمر و لا تنحسر عنه إلا لماما ثم لا تلبث أن تعاود تراكمها و كثافتها مثل جحافل جيش جرار يهاجم متسترا بحلكة الظلام.

عبرا الفناء من أحد جوانبه، ثم أخرجت الممرضة مفتاحا صغيرا من جيب مئزرها و فتحت بابا حديديا صغيرا أصدر زئيرا حادا اهتزت له جوانب يعقوب، أخرجت رأسها للخارج تستطلع ثم استدارت ناحيته و أشارت له بأصبعها، و أعلنت له مرتاحة من خلال نبرات صوتها : السيارة هناك، يمكنك الآن الذهاب

بسلام و اطمئنان، حظا سعيدا... و إن حدث - لا قدّر الله - ما لم يكن في الحسبان أنت لا تعرفني و عمرك ما رأيتني، أليس كذلك ؟

أنت تعلمين و لا شك بأنني فاقد الذاكرة و لا أتذكر أي شيء أبدا.

أطلقت ضحكة رائعة لم يتمالك معها يعقوب نفسه و ألصق فمه بشفتيها الشهيتين في قبلة طويلة يعصرهما عصرا يتذوق رحيقهما الأحلى من الشهد، قبلة حملها كل حنينه و ما يختلج في صدره من رغبة و تعطش لم يقوَ لسانه على التفوه بهما.

رحلة سعيدة... قالت و هي تسحب جسدها الشهي من بين أحضانه.

لا أدري كيف أشكرك، تأكدي بأنني لن أنسى صنيعك هذا ما حييت و سنلتقي مرة أخرى في ظروف مغايرة و عندها سيكون لكل مقام مقال.

ابتسمت و لم ترد و قد فهمت تلميحاته و أعجبها الإطراء و المدح، و الغواني يغرهن الثناء غالبا.

وجد نفسه عند خروجه فوق رصيف شارع ضيق و مبلط، إشارة ضوئية من السيارة جذبته ناحيتها، و قد تعرف عليها على الفور، إنها سيارة الكاشف المهترئة. صعد إليها من دون انتظار أو تردد... لم يكن الكاشف هو من يقود السيارة ! فلبث صامتا و قد عقدت الدهشة لسانه، و عند انطلاق السيارة انبرى يقول : هل يعقل أن أراك ثانية أم أنك تمكنت من الهروب من العالم الآخر ؟

انطلقت فرنشيسكا في نوبة ساخنة من الضحك و جسمها الرائع يهتز و يتمايل.

ألست ترى بأني مازلت على قيد الحياة حية أرزق ؟

كانت تسير بسرعة فائقة و براحة تامة، يظهر أنها تعرف بالضبط المكان الذي تريد و تنوي التوجه إليه.

هلا شرحتِ لي كيفية تمكنك من إنقاذي ؟

تزحزحت من فوق مقعدها قبل أن ترد قائلة : المال يا حبيبي يفتح الأبواب الموصدة و ييسر الصعاب، لقد دفعت خمسة آلاف دينار لهذه الممرضة.

كانت بالطبع معلومة جد هامة لكنه لم يكن يقصد هذا بسؤاله و قد رابه كيفية حصولها على مبلغ كبير من المال و ساورته شكوك جدية ناحيتها ، لكنه تظاهر بتصديقها و غيّر مجرى الحديث كي لا تتفطن لما يدور بداخله.

أخبريني، ماذا حصل كي يعلنوا نعيك في الجرائد و الصحف ؟

الطرق الخالية جعلت فرنشيسكا تستغل الوضعية و تسير مثل أبطال الراليات، قيادتها رائعة و منسجمة مقارنة بحالة الطريق المبللة، لاحظ بعد قليل أنها أخذت اتجاه الوجهة الغربية.

جانبهم الصواب و ارتكبوا خطأ جسيما ، (ردت أخيرا بمضض و تبرم على سؤاله المعلق) أظن أن الأمر يتعلق بغوندليزا و أنت تعلم حيازتها لجواز سفر يحمل اسمي.

رد يعقوب معترضا : لكن جواز السفر كان بالشقة، و أنت من أخذه عند هروبك !

احتجت بقوة : أنا ؟ هل جننت ؟! من يستطيع أن ينفي بأنها الأخرى تملك وثائق مشابهة تحمل اسمي ؟

فكر يعقوب لحظات فوجد أنه يجوز ذلك و هو وارد جدا، و يمكن التصديق و القبول بأن المرأة التي وجدت مقتولة بخنجر على قارعة الطريق هي فعلا غوندليزا و هو ما ذهب إليه شخصيا و توصل إليه و اقتنع به إلى أن استمع إلى الأنباء في مذياع بيت صديق الكاشف.

أين هو الكاشف ؟ سأل يعقوب مستفسرا.

لا أعرف و لا أريد أن أعرف.

أليست هذه هي سيارته ؟

بلى، هي سيارته.

لما تتهربين من الرد على سؤالي ؟

ترددت برهة ثم انبرت تشرح : عندما تركتني وحدي معه في الشقة حاول اللعين اغتصابي بالقوة لكني تمكنت من الإفلات منه، و عندما انشغل عني هربت خلسة و أخذت سيارته و أنا متأكدة من أنه لا يستطيع أن يشتكيني.

لكن الكاشف لم يخبره أبدا بضياع سيارته، لماذا يا ترى ؟؟؟

و أين ذهبتِ بعد ذلك ؟

عند أصدقاء.

هنا في العاصمة ؟

نعم، و لا أستطيع أن أقول المزيد، لقد أقسمت لهم بأغلظ الأيمان بأن أحافظ على السر.

كان ردها من السهولة التي لم تقنع يعقوب، لكنه تغاضى مؤقتا عن ذلك و سألها مجددا : لماذا تدخلت لتهريبي من...

قاطعته بنبرة واضحة و صريحة لا تحتمل تفسيرا أو تأويلا : لقد أصبحت زوجتك بعد كل الذي جرى بيننا.

شعر يعقوب بشعر رأسه يقف و تيار كهربائي يجتاح تلافيف دماغه مهرولا مثل جواد جامح، و رد عليها مستغربا في استنكار : مزحة هذه و لا شك ! هل يعقل كوننا نمنا مع بعضنا جعل خيالك يذهب بك بعيدا متوهمة أشياء لا أساس لها في واقع ظروفنا، و منها إبرامك عقد قراننا ؟ أنت تحلمين و لا شك !

التزمت الصمت بينما السيارة تقطع الآن سهل المتيجة و تقترب رويدا رويدا من موقع القاعدة الجوية في بوفاريك التي تهيمن بضخامتها و اتساعها على أرجاء المكان البديع ببساتينه و خضرته التي تأخذ العقول و تسلب الألباب ببهائها الأخاذ و جمال رونقها الفريد كأنها جنات عدن.

ردت فرنشيسكا أخيرا بعد صمت مريب : أتفهم جيدا وساوسك و تحفظك، و رغم ذلك أعتبر نفسي زوجتك لأنني أحببتك و نزلت من نفسي منزلة عالية.

رائع جدا أن أجد نفسي بين أحضانك الدافئة و إلى الأبد ! قال هذا في نفسه قبل أن يرد : هذا لطف منك، لكن للأمانة أكون كاذبا إن أكدت لك تبني نفس الفكرة.

أنت تشتهيني و ترغب في أم لا ؟

عزيزتي، بالطبع هذا صحيح لا غبار عليه، لكن بين الاشتهاء و الحب يوجد فارق كبير.

هما وجهان لعملة واحدة، يقود أحدهما للوصول إلى الآخر تلقائيا و دون شعور.

مرة أخرى هذا صحيح، لكن الظروف الحالية لا تسمح بتحقيق رغبتك.

كانت تقود و هي منحنية قليلا إلى الأمام و يداها تمسكان بأسفل المقود بقوة لشدة التوتر الذي غمرها، لكنها استأنفت بعد لحظات تقول و قد غيرت – كما يبدو – تكتيك مناورة اقترابها من الموضوع : سأقترح عليك اتفاقا و لنترك عواطفي و أحاسيسي الشخصية جانبا، ألم أسدِ إليك خدمة لا تقدّر بثمن إذ أنقذتك من مصيدة مميتة بتسهيل هروبك مع ما في ذلك من أخطار عديدة تترصدني و تتهدد حياتي ؟

رد يعقوب : أكيد، ماذا تريدين مني بالمقابل ردا لجميلك باستثناء قبول زواجي منك ؟

أريد أن تساعدني كي أحصل على تأشيرة الدخول إلى أمريكا للإقامة و العمل، ردت دون تردد كأنها كانت تتوقع جنوح المسألة على هذا النحو و وصولها إلى نقطة الاستحالة و الرفض المطلق.

رد عليها يعقوب بسرعة : هذا الأمر ليس صعبا...

عليك أن تضمن لي ذلك الآن حتى أدرك ما ينتظرني و أكون على بينة من أمري.

اشتم من نبرات صوتها ما يشبه التهديد المبطن، لم يجانبه الصواب إذ تأكدت ظنونه على الفور، و كأنها كانت تقرأ ما يدور في سريرته فتابعت تقول كاظمة غيظها :

و إلا... سلمتك بيدي للشرطة غير مأسوف عليك و دون أن تحركني شفقة بك أو تأخذني بك رأفة.

ضحك يعقوب ملء فيه حتى كاد يستلقي على ظهره.

ها أنت تتقدمين بسرعة، أنت مخطئة لو توهمت لحظة بأنني سأتركك تفعلين بي كل ما يجول في رأسك العنيد و يرضي غرورك و غطرستك.

أنت أعزل من السلاح بينما أنا مسلحة، ردت في هجوم مضاد.

أطلق تصفيرة طويلة دليل إعجابه بفطنتها و دهائها.

ألا تشاطرينني الرأي بأننا قد ابتعدنا أميالا عن مواعيظ سيرة الحب و عتاباته الرقيقة.

تمتمت بصوت مخيف كله إصرار و عزم : أنا آسفة، أنت هو من اضطرني إلى ركوب هذا المركب و الانسياق وراءه.

رد يعقوب في حزم و قوة : أعدك بأنك ستحصلين على كل ما تعهدت لك به و أكثر.

إن لم تتمسك بوعدك و نيتك خداعي تأكد بأنه لا توجد قوة فوق الأرض تحول دوني و قتلك.

موافق، بشرط وحيد : أن تمنحيني ليلة أخيرة بين أحضانك الدافئة أطفئ فيها نيران حنيني و أشواقي إليك، تكون زاد قلبي الوحيد و أنا في العالم الآخر ساكن النفس مطمئن البال

بعد مغادرة الدنيا، و غاية ما أحمله معي ذخيرة عبق جسدك الساحر و قبلاتك الشهية فلا أتذكر مرارة الموت و قساوته، و تكون لي نِعم الأنيس و النديم في وحدتي و في قبري.

ردت عليه متجاهلة و كأنها لم تستمع إلى كل ما قاله : إن خنتني و غدرت بي، لن أمكنك من حمل أي شيء، بالمقابل سأزودك بمسحوق البارود و رصاصة في قلبك تؤنس غربتك في غياهب الجحيم السفلي، هل فهمت أيها الماكر ؟

حسنا، جمالك الأخاذ فاتن الأبعاد يغفر لك و لا يمكنني أن أرفض لك طلبا، و الآن إلى أين نحن ذاهبان بهذه السرعة الفائقة ؟

إلى مدينة وهران...

إلى وهران... إلى وهران ؟! ردد في دهشة و استغراب.

هناك قبطان باخرة شحن إيطالية أعرفه جيدا، يمكننا الإقامة على متنها و نغادر الجزائر بسلام و دون مضايقة بعيدا عن أعين مصالح الأمن الجزائرية، و في عرض البحر نلجأ إلى إحدى سفن الأسطول السادس الأمريكي المتواجد في المتوسط و الباقي عليك.

نظر يعقوب إليها متسليا... هي مثل غالبية بنات جنسها، يستسهلن الأمور و ينظمن الأشياء و ينظرن لها كما يحلو لهن دون التفكير في عواقبها و مآلاتها.

لنذهب أولا إلى باريس الثانية (الإسم الذي يطلقه الفرنسيون على مدينة وهران الجزائرية).

إلى هنا ساد بينهما صمت قطعه اضطرار فرنشيسكا إلى الفرملة فجأة بعنف عند خروجها من منعطف لتفادي الاصطدام

بثعلب يقطع الطريق ببطء شديد دون الاهتمام بخطر الموت الذي يترصده. دفعت القوة الكامنة تحت المقعد بجريدة لامست قدمي يعقوب، التقطها و هو يسألها إن كانت بتاريخ اليوم فأومأت برأسها إيجابا.

فتح صندوقا أمامه و أخرج مصباح جيب يهتدي بنوره لتفحص الجريدة، مر بسرعة على الصفحات قبل أن يستوقفه مقتطف في صفحة داخلية يتكلم عن شقة شارع ميشلي و الخراب المهول الذي حل بها، و لما لم يجد جديدا يروي غليله و هم بطي الصحيفة لمعت فجأة عيناه و أمسك أنفاسه و هو يتابع جرد الصحيفة للخراب الذي حل بشقة السيدة ماريكا و أنه لم يسلم من التدمير المنهج سوى أيقونة كان زوج صاحبة الشقة الراحل - و هو ربان باخرة - قد حملها معه خلال إحدى رحلاته، و يؤكد التقرير أن هذه الأيقونات الذائعة الصيت في القرون الخوالي يوجد بها ثقب مستتر خلفها يقال بأن الكهان و القساوسة كانوا يدسون فيها سما قاتلا و فتاكا على الفور، يبتلعونه عند تعرضهم للأخطار و المكاره في أزمنة الكنيسة و رجالها، كما أن مثل هذه الأيقونات النادرة تحمل سمعة سيئة، صيتها شؤم و شهرتها إجرامية. تعرف هذه الأيقونات العجيبة بسحرها و غرابتها و قيمتها التوثيقية التاريخية في عالم جامعي المقتنيات القديمة و النادرة المتفردة، لذا يطلق عليها إسم "أيقونات الخلاص الروحي" أو "صناديق العجائب السبعة".

انتهى يعقوب من القراءة و كلمات مثل أيقونة... صندوق... في صندوق خشبي... عند غوندليزا... تطرق رأسه

بشدة و تسيطر على جل تفكيره. الآن فقط توضحت أمامه الأشياء المستعصية و بدأت تشي بأسرارها، هو كان يبحث عن صندوق مثلما يفعل معظم الناس العاديين عكس المتوخى منه، لأنه يستلزم على العميل السري أن يعرف كل شيء : التاريخ، علم الأديان، الآثار... إلخ، فكر يعقوب و هو يأمر فرنشيسكا :

ارفعي قدمك عن الدواسة، سنعود فورا إلى العاصمة.

ماذا تقول ؟ هل جننت يا رجل ؟!

ألح مرة أخرى في حزم : سنعود إلى العاصمة.

لكن ماذا نفعل في العاصمة و الشرطة في انتظارنا ؟

هل يخبرها باكتشافه أم يحتفظ بالسر لنفسه ؟ فكر بسرعة قبل أن يقرر : لو صمت ستتمكن من معرفة ما يدور بخلده حتما، و الله وحده يعلم عما ستقدم عليه هذه المجنونة من تصرفات طائشة لا تخطر بباله تؤدي به إلى الوبال و الخسران.

عرفت أخيرا أين تتواجد الشيفرة، قالها بهمس و هدوء.

فرملت هذه المرة دفعة واحدة حتى كادت السيارة تنقلب.

لا أكاد أصدق أذني، ماذا قلت ؟

قلت توصلت أخيرا إلى معرفة مكان الشيفرة و الآن فقط، ردد على مسامعها بهدوء و رباطة جأش.

سحبت قدمها عن دواسة السرعة و تركت السيارة تسير بحرية.

إذا كنت قد توصلت إلى ما تزعم و تدعي بعد اطلاعك على الجريدة، ألست معي بأنه سبقك إلى ذلك آخرون ؟ كما

أنه فاتك بأن هذه الطبعة صباحية و قد تأخرت يوما كاملا يا عزيزي.

كلا، افهميني جيدا... شريف خان و هو يحتضر قال لي : « في صندوق خشبي... عند غوندليزا ». ظننت في البداية أن الأمر يتعلق بصندوق كبير أو حقيبة، تأكدت الآن بعد مطالعة الصحيفة أنه كان يقصد الأيقونة المجسدة للمسيح المعلقة في البهو، ألا تذكرينها ؟

نعم... نعم، الآن فقط استوعبت ما ترمي إليه، ردت في دهشة و هي تركن السيارة على جانب الطريق.

أمر آخر، هل من الحكمة و الحرص أن نعود في هذا الوقت ؟

من باب الحكمة، من باب الحرص سأعود، و أنت حرة في قرارك، هل تظنين أنه من بعد كل هذه المعاناة و تجشم المخاطر يمكن أن أفكر و لو لحظة في الانسحاب أجر أذيال الخيبة و يكون جزائي كجزاء سنمار ؟

نظرت إلى ساعتها فوجدتها جاوزت قليلا الثالثة صباحا.

همست فرنشيسكا شبه قلقة : أرجو أن نتمكن من العودة قبل طلوع النهار.

رد عليها يعقوب مطمئنا و مشجعا في نفس الوقت : تكفينا ساعة أو اثنتان على أبعد تقدير و ربما أقل...

قامت بدورة سريعة منعطفة بالسيارة آخذة وجهة عكسية في اتجاه العاصمة و انطلقت كأنها رصاصة زئبقية. انشغالها بالقيادة في منعرجات طرق المتيجة المعروفة بخطورتها أعطى

يعقوب الفرصة لإعادة قراءة المقال الذي حل عقدة تعسر عليه حلها و جعله على الطريق الصحيح، لا يوجد شك أو ارتياب، هذه هي الحقيقة ناصعة أمامه هو الذي ظل يبحث و ينقب عنها، و لم يتمكن من إمساك نفسه عن الضحك بمرارة و هو يتذكر أنه حطم و كسر كل محتويات الشقة، حتى الأرضية الإسفلتية لم تسلم من التخريب بينما مراده معلق أمامه يناديه في مجيئه و رواحه معلنا عن نفسه، مخفيا حرصا سره مصرّا على عدم التنازل عنه لكائن من كان، أفضل وسيلة للتنكر أن لا تتنكر، لقد وقع ضحية للسهل الممتنع في آن واحد.

أعاد يعقوب تفحص الصحيفة من جديد فوجد في صفحة الحوادث مقالا يتناول الحادثة يؤكد فيه المحقق الصحفي وجود جواز سفر باسم السيدة فرنشيسكا خان مع تأشيرة إلى بولينيزيا الفرنسية و تذكرتي سفر بحريتين لشخصين، إنها نفس الوثائق الموجودة في الغلاف الأبيض الذي وجد في حوزة القتيلة...

كان الكاشف قد أكد بأن فكرة اختيار المخبأ في سلم الخدمة تعود إلى فرنشيسكا التي فرت من نفس السلم، بينما هي تدّعي بأنها فرت مستعملة السلم الرئيسي !

يمكننا طبعا أن نفكر بأن غوندليزا عادت فجأة لتجد المصري يخفي الغلاف فانتظرته إلى أن عاد إلى الداخل و استحوذت عليه و هي التي تملك مفاتيح باب سلم الخدمة و الشقة ككل... لكن هناك نقطة رئيسية تفصل في الموضوع تتمثل في استحالة حدوث الأمر كونه هو شخصيا في ذلك الحين الذي يمكن فيه حدوث ذلك كان يتواجد عند غوندليزا في شقة لورنزوتي.

هو يشعر الآن بتحسن كبير و أنه استرد تقريبا كامل لياقته بعد أن أتت الأقراص أكلها ، مما جعل عقله يفكر بطريقة جيدة. على كل هذا ليس وقت التفكير في مشاكل معقدة لا تهمه البتة، ما يهمه و يسترعي اهتمامه بالمطلق هو وضع يده على الشيفرة و معرفة من قتل من و لماذا... و تبقى أمور ثانوية لا شأن لها و غير مؤثرة على السياق العام للأحداث و المواقف المتواترة.

بلغا العاصمة في وقت قياسي، و في مثل هذه الساعة من أواخر الليل تنعدم حركة المرور تقريبا مما يساعد على قطع المسافات براحة و سرعة فائقة. دخلا شارع ميشلي، فأوقفت فرنشيسكا السيارة أمام الرصيف المقابل و نزلا منها معا و ذهن يعقوب منشغل بالطريقة التي تمكنهما من دخول الشقة. شعرت رفيقته بتردده و ما يدور بخلده فانبرت تقول : إذا كان يؤرقك إيجاد وسيلة ندخل بها الشقة في صمت فلا تقلق، لا يزال في حوزتي مفتاح باب الخدمة و هو صالح للاستعمال.

البناية و الشارع نفسه يخيم عليهما هدوء و سكون و يلفهما ظلام دامس إلا من بعض أنوار أعمدة الإنارة العمومية المتباعدة تشتعل حينا ثم لا تلبث أن تنطفئ بعد ثوان متأثرة بالعواصف و الأمطار في غياب المتابعة الجدية و الصيانة الدائمة، الشيء الذي أجبر يعقوب على استعمال مصباح وجده بالصدفة داخل السيارة لتمييز طريقهما تفاديا أن يقع أحدهما في حفرة أو ما شابهها و لإنارة درجات السلم عند الصعود إلى الشقة التي دخلاها دون مشقة. أصاب فرنشيسكا الذهول و صدرت عنها صرخة و هي تكتشف الحالة المرثية التي

آلت إليها الشقة، هي التي لم تحضر العمليات التي جرت داخلها... صرخة تعبر عن الإعجاب و الاستنكار في آن واحد للمشهد المثير أمامها.

هذا تخريب منظم ! تمتمت مصدومة.

وصلا الرواق بصعوبة، تنفس يعقوب و هو يوجه المصباح نحو موضع معين في الجدار يفترض تواجد الأيقونة معلقة فيه كما تركها آخر مرة، لكن الجدار كان خاليا و لا أثر لأي أيقونة أو شيء آخر.

شعر يعقوب بوخزة في قلبه و خرس لسانه عن الكلام... أدركت فرنشيسكا بحدسها ذلك منه و قالت من باب الإيحاء و الإيعاز كي تبعد الشكوك تجاهها في الاتجاه الآخر :

أنا متأكدة الآن من أن صاحبة الشقة هي التي أخذتها و استولت عليها...

تأملها يعقوب مليا قبل أن يعقب : لا، لو أنك اطلعت على المقال لأدركت بأنها كانت مرعوبة لكل ما حل بشقتها، و أعلنت للصحفي بأنها لم تعد ترغب في امتلاك الشقة و أنها مستعدة أن تتخلى عنها و بيعها من أول عرض يقدم لها.

ألا يحتمل أن تكون قد باعتها لأحد المولعين باقتناء الآثار القديمة ؟

إن كان قد حصل ما تقولين يكون فعلا من حظنا... قال هذا بتهكم مر و انصرف يجول بأشعة مصباحه بكل ما يحيط بهما قبل أن يتوجه في حذر نحو المدخل ليجد مفاجأة غير متوقعة في انتظاره : جسد مسجى على الأرض، ممدد شاقوليا بالنسبة للرواق و كيس بلاستيكي خشن يغطي الرأس، تقدم عندها

يعقوب و أشعل مصباح الرواق... فرنشيسكا التي كانت تتبعه في صمت لم تتمالك نفسها من شدة الرعب و صرخت بقوة.

صه ! زمجر يعقوب غاضبا.

كانت الجمجمة مهشمة و الشعر ملطخا بالدماء، إنها السيدة ماريكا موريتشي مالكة الشقة، تم قتلها بحبس أنفاسها داخل الكيس البلاستيكي ثم توجيه ضربة قوية إلى أم رأسها، مع تقدمها في السن و معاناتها من أمراض الشيخوخة المعروفة تكون المسكينة قد توقف قلبها و لفظت أنفاسها و فارقت الحياة متأثرة بتوابع الصدمة على الفور.

هذا واضح جدا... قالت فرنشيسكا خائفة كما تدل عليه نبرات صوتها المهزوزة.

جاء أحدهم يأخذ الأيقونة أثناء وجودها داخل الشقة، (علق يعقوب و هو يقوم) هذا الأخير قام بقتلها كي لا يترك خلفه شاهدا يحتمل أن يشكل عليه في المستقبل خطرا محتملا. و كي تطمئن نفسه شرع في زيارة تفقدية دقيقة لكل أركان الغرفة المنكوبة، و لما باءت جهوده بالفشل قرر الخروج من الشقة لأن وجودهما فيها لمدة أطول أصبح محفوفا بمخاطر جمة تهدد حياتهما. غادرا المكان من حيث قدما، ولما وصلا إلى الأسفل أعلن لها يعقوب في حزم قائلا : أنا من سيقود السيارة منذ الساعة.

ردت محتجة في همس : لكنك لا تزال تعاني من الوهن و التعب.

لم يرد عليها و اعتلى مقعد القيادة ينتظر صعودها من الجهة الأخرى و إغلاق الباب لينطلق بسرعة خارقة.

إلى أين نحن ذاهبان ؟ سألته فرنشيسكا بعد أن رأت الاتجاه الذي أخذه.

رد عليها باقتضاب : سأذهب لتوديع صديق.

يسري الكاشف، أليس كذلك ؟ سألته متأكدة في شبه استغراب.

هو بلحمه و شحمه، رد يعقوب بإيجاز.

هذا تهور، (ردت بحدة مفاجئة) الشرطة تبحث عنه كما تعلم، هذه مجازفة ندفع جميعا ثمنها غاليا، يمكن بسهولة أن يتم القبض علينا فيها...

زاد في السرعة من دون أن يعقب على قولها.

توقف ! اتركني هنا أو في أي مكان، لا أريد أن أرمي بنفسي في فم الأسد، أنت حر أن تفعل ما بدا لك لكن لا تجبرني على ركوب مركبك الخشن بمرافقتك حيث ينتظرك حتفك، أصبحت الآن نادمة أشد الندم على قيامي بتسهيل هروبك !

رد عليها يعقوب في هجوم مضاد : أما أنا فلست نادما على أي شيء، كما أرجوك بلطف أن تتوقفي عن حكاياتك السمجة و المملة و تسيري مع التيار من دون اعتراض، هل فهمت ؟

تنفست بعمق و خرج زفيرها من بين أسنانها يشبه فحيح أفعى غاضبة : عليك أن تحذرني و أن لا تستهين بإمكانياتي في الإضرار بك، أنا مسلحة كما تعلم...

قاطعها قائلا : أنت معك مسدس و أنا لا، أعرف هذا، و بالمناسبة سنعالج الموضوع. و مد يده نحوها : هاتيه... لو سمحت.

كل إلا هذا !

كرر مطلبه ببرودة : أعطيني عزيزتي مسدسك قبل أن أفقد أعصابي و السيطرة على نفسي.

تراجعت قليلا إلى الوراء و ردت في خشونة : ماذا تنوي فعله بالمسدس ؟

لا شيء الآن، إن كنت تودين رؤية وهران قريبا يتوجب عليك إمدادي و تمكيني من الوسائل المطلوبة و المتاحة.

صمتت و لم ترد مباشرة... كان سينطق من جديد عندما انبرت تعلن بسرعة : سأعطيك ما تريد، لكن شرطي الوحيد أن لا تأخذني معك إلى الكاشف.

يظهر أنها تخاف فعلا من المصري من دون أن تقدم أسباب تصرفها الغريب و المريب في آن واحد.

رد عليها يعقوب : موافق، تمكثين داخل السيارة كما حدث في المرة السابقة.

انحنت مستديرة ناحية المقعد الخلفي تفتح حقيبة سفر.

خذ... قالت و هي تترك نفسها تنزل بكل ثقلها على مقعدها.

تسلم منها السلاح، فوجده من نوع "بيريطا 9 مم". يبدو أن هؤلاء القوم هم وحدهم من يحتكر و يفوز بكل صفقات المصانع

التي تسوق هذه النوعية من حصادات الحياة... وضعه في جيبه و طلب منها أن تبرز المسدس الآخر الذي تخفيه بعناية.

سألته بصوت مختنق : عن أي سلاح آخر تتكلم ؟

الموجود في حمالة صدرك أيتها الماكرة، رد عليها مبتسما.

وضعت يدها لا شعوريا فوق نهديها المنتفخين مثل قربتي ماء و هي تقول : في حمالة صدري تقول ؟؟ أنت تهذي و لا شك يا رجل !

نعم، أقصد كل كلمة قلتها، هل تظنين بأني هبطت للتو من كوكب آخر أم نسيت مع من تتعاملين جميلتي ؟ في مثل هذه الحالات، عندما نضع سلاحا في حقيبة سفر هذا يندرج في خانة الاحتياط و الحرص...

تكورت في ركنها منزوية قبل أن ترد في شبه دلال : لن أسلمك إياه و إياك و محاولة أخذه مني بالقوة، هو آخر ما بحوزتي من وسائل للدفاع عن تحصيناتي و الذود عن قلاع حياتي المهددة من الجميع و أولهم أنت.

بدأ يضحك و هو يربت بلطف على فخذها الممتلئة.

ليس في نيتي فعل ما يخامر ذهنك أيتها الماكرة، نحن حليفان في السراء و الضراء، الباخرة... المحيط... بولينيزيا و غيره... أم نسيت كل ذلك و فاتك ؟

همست و أحلام اليقظة تداعبها : الراحة، البحر، الاستجمام و ممارسة الحب... هل تتحقق أحلامي قريبا و أعيشها مجسدة على أرضية الواقع يا ترى ؟

السيارة الآن تشق طريقها في شوارع عتيقة، إنه حي باب الواد الشعبي.

إلى أين تذهب ؟ سألت فرنشيسكا متوجسة.

إلى الكاشف كما أخبرتك، رد عليها مطمئنا.

أنت تسير في الطريق الخطأ.

أنتِ إذا تعرفين مكان تواجده ؟

أعرف فقط مكان إقامته كما تعرفه أنت أيضا.

حسنا عزيزتي، ما دام الأمر على هذا النحو اتركيني أفعل ما أراه صوابا دون اعتراض منك.

أوقف السيارة بعيدا عن المنزل و أطفأ جميع الأنوار. قطرات كبيرة من المطر تتهاطل منهمرة شاقة طريقها بين الرياح العاتية تحت أضواء مصابيح عمومية باهتة تشتعل و تنطفئ بالتناوب.

انتظريني هنا، إن لم أرجع إليك بعد نصف ساعة هبي لنجدتي.

لكنني لا أعرف البيت.

هل ترين البيت الذي يقع أمام مصباح الإنارة الأخير، بعده مباشرة تنحرفين إلى يسارك، البيت الأوسط و هو جد متواضع و قديم، تكونين عندها قد وصلت إليه، هل فهمت ؟

أظن بأنه يمكنني التعرف عليه في يسر، قالت ذلك و هي تنحني إلى الأمام في صعوبة بسبب قطرات المطر الغزير المتساقطة على زجاج السيارة الأمامي تحول دونها و التمييز بوضوح و سهولة عما يوجد و يدور بالخارج.

اعتبري إذا نفسك قد تعرفت على المنزل، قال يعقوب و هو يتأهب للذهاب.

لكن كيف أهب لنجدتك و أنا...

قاطعها يعقوب بسرعة : طبعا، إن لم أرجع وحدي هذا يعني أن أحدا منعني و حال دوني و الرجوع، الكاشف كان هناك البارحة لكن لا أحد يدري بالتطورات التي حدثت منذ غادرته. فتح الباب، نزل و استدار ثم انحنى ناحية فرنشيسكا متمما كلامه : لا تنسي أبدا أنني تأشيرتك الوحيدة نحو المستقبل الواعد الذي ينتظرك.

أما هذا فلا يمكن لأي قوة أن تنسيني إياه، ردت عليه و هي تتحداه بنظرها.

أنت رائعة و مجنونة في آن واحد، لا أفهم لماذا أحبك، هيا قبليني.

هزت كتفيها في عدم اكتراث و هي تقول : تقبيل حزمة من الضمادات الطبية... دعني أضحك ! حسنا فعلت أن ذكرتني، إذ يستحسن أن تنزعها و إلا كشفت نفسك.

ابتسم طالبا منها توخي الحذر و اليقظة ثم انصرف و هو يغلق الباب بتأنٍّ و يرفع عنق معطفه الشمعي. الليلة حالكة السواد و أمامه ثلاث ساعات قبل بزوغ تباشير خيوط الفجر الأولى، يمكنه خلال الساعات المتبقية أن يفعل الكثير من الأشياء.

بلغ منزل زرياب المرح مستترا و من دون ضجة و هو يتساءل إن كان سيجد الكاشف. تقدم بهدوء و حذر، فلمح بعض الضوء الضعيف ينبعث من تحت الباب و مصراعي نافذة الصالة التي

جلس فيها البارحة، جس الحائط و تحرك خطوة واحدة يحاول وضع قدمه في فجوة بالجدار فزلت رجله ساحبة معها حجرا تحت تأثير وزنه حتى كاد يفقد توازنه و يسقط على الأرض، تجمد إثرها في مكانه و قلبه يخفق بشدة مخافة أن يتفطن من بالداخل للجلبة التي أحدثها و الضوضاء التي صاحبت ترنحه و وقوع الحجر... من حسن حظه أن صفير الرياح العاصفة بفروع الأشجار و أوراقها عصفا شديدا يتآلف و يتناغم مع حفيفها العازف لمقطوعة سيمفونية مرتجلة قد طغى و غطى على الضجة التي أحدثها و ستره. ثم أدخل رأسه في الشق محاولا إيجاد صدع أو ثقب يمكن من خلاله أن يتسلل بنظره إلى الداخل، و بعد لأي تمكن من اكتشاف فتحة صغيرة، و وضع عينه بحذر قائده الضوء الباهت المنبعث منها فلمح على الفور الكاشف و زرياب قبالته يجلسان أمام الطاولة الصغيرة مانحين جانبيهما إلى النافذة يتوسطهما مصباح بترولي. أي سبب وجيه جعلهما يمتنعان عن إشعال مصباح الغرفة الكهربائي ؟! تبادر هذا إلى ذهن يعقوب و جال في خاطره من أول وهلة، و لما حدق جيدا بجهد بالغ من خلال ما تسمح به الفتحة و أشعة المصباح البترولي السوداء الشاحبة و المهتزة خفق قلبه بعنف... كيف لا و قد لمح الأيقونة التي حفيت قدماه من أجلها و واجه بسببها شتى الأخطار و ركب كل صعب في سبيل العثور عليها، ليس حبا فيها أو تعلقا بها إنما من أجل الكنز الدفين الذي يرقد في مخبأ سري بين جوانبها.

لمح الكاشف يمد يده و يمسك بالأيقونة و زرياب يقرب المصباح منه. أخرج المصري آلة حادة من جيبه تشبه شفرة مدببة و انهمك يحفر بتأنٍّ من خلفها بهمة و نشاط و احترافية يحسده عليها

أمهر و أبرع النحاتين. يمكن أن تكون الفتحة قد سدت بشمع خاص لإحكام الإغلاق أو خشب أعد خصيصا للفتحة.

لا يزال الكاشف يعمل بهمة و تأنٍّ و حذر، و أخيرا لمح يعقوب شيئا أسود صغيرا جدا يسقط فوق الطاولة ما جعل أنفاسه تتوقف و قلبه يقفز في صدره... و رغم المسافة و الإضاءة الضعيفة تمكن من التعرف على الكيس البلاستيكي المشابه للذي يستعمله رجال المخابرات في حمل الأفلام المجهرية، و المفترض أن يكون الكاشف بصفته من الوسط يعرف ذلك من دون أدنى شك. بابتسامة عريضة تتصدر ملامحه القاسية، و بعينين تلمعان من شدة التأثر، بدأ الكاشف بفتح الغلاف دون انفعال مع أخذه كل الاحتياطات اللازمة، و مرر له زرياب ملقطا شبيها بالذي يستعمله هواة جمع الطوابع و الصاغة.

يعقوب الذي يوجد في وضعية مرهقة و غير مريحة على الإطلاق قرر بأن الوقت قد حان بالنسبة له كي يشارك مباشرة في حيازة الغنيمة و تقاسم الانتصار، و في خطوتين عاد إلى الباب و قرعه على نفس المنوال كما رأى الكاشف يفعل الليلة الفائتة ؛ وصله ضجيج كراسي تتدافع كأن المفاجأة جعلت المتآمرَين يقفزان في الهواء قبل أن يسود صمت مريب خيم على المكان، صمت امتد و طال أمده ما دفع يعقوب إلى معاودة قرع الباب دون توقف. مضت ثوانٍ ثقيلة خالها يعقوب دهرا قبل أن يسمع حركة متبوعة بصوت زرياب يسأل بحدة : من أنت ؟

رد يعقوب بصوت هادئ و لطيف : افتح أنا يعقوب صديق الكاشف، هل يعقل أن تكون قد نسيت صوتي بهذه السرعة ؟

لم يفتح الباب مباشرة، فأدرك يعقوب أنه يتشاور مع الكاشف و يأخذ رأيه في كيفية التعامل معه و الرد عليه... توترت أعصابه و تفاقم غضبه و عاود الطرق بشدة و عنف و هو يصيح : ما هذا اللهو العبثي غير المحبذ ؟! هل تفتح الباب الساعة أم أظل أنتظر للغد ؟

استمع مباشرة بعد ذلك إلى صوت المزلاج و هو يسحب بسرعة و المفتاح يدور في القفل، ثم انفتح الباب و هو يرسل صوتا مثل الأنين.

ما هذا يا صديقي ؟ هل قامت القيامة أم حدث طوفان ؟! بادره زرياب مبتسما في غضب.

لماذا ؟ هل كنت نائما ؟

دخل الصالة حيث ينتظره المصري الذي بدت على محياه أمارات ارتياح برؤيته مجددا.

صباح الخير، هل أنت على ما يرام ؟

لا بأس، ظننت أنك وقعت في شراك الأمن.

ظنك في محله عزيزي... كنت أنتظر قدومك لتخلصني من ورطتي، و لما أدركت أن الأمر تأخر و لا بادرة في الأفق اعتمدت على نفسي مستعملا إمكانياتي الذاتية.

كنا نخطط لذلك، رد الكاشف بعدم اكتراث.

ليس عندي شك في ذلك، رد عليه يعقوب مراوغا، ثم سأله منحرفا بالحديث بغتة إلى وجهة أخرى : ما الجديد عندك ؟

قطب الكاشف وجهه و هز رأسه يمنة و يسرة قبل أن يرد قائلا : للأسف لا شيء... ما جعلنا نتخلى عن الأمر نهائيا و ننساه.

شعر يعقوب بغصة في حلقه و بدأت تتأكد بعض الشكوك التي راودته بإلحاح في الفترة الأخيرة.

أرى أن الجماعة قد اعتنوا بك جيدا، لاحظ الكاشف في إشارة إلى لورنزوتي و رجاله.

لم يرد عليه يعقوب و نظراته الحادة لا تفارق وجه المصري.

استمر الكاشف يقول متضايقا في تذمر جلي : الآن و قد انتهى كل شيء و آلت الأمور إلى الفشل فإنني أحلك من اتفاقنا، و عليه يتحتم عليك مغادرة المدينة قبل طلوع النهار، لا عليك سأهتم بالأمر و أكلف صديقي زرياب بإحضار سيارة لهذا الغرض.

جميل، لكن أين هي سيارتك ؟ سأله يعقوب مستفسرا.

سيارتي معطلة، تركتها عند ميكانيكي للفحص و الصيانة.

الأمر هكذا إذا !

أنت تعرفها جيدا، سيارة أكل عليها الدهر و شرب، تصدى زرياب يساند صاحبه، هو الذي اندس في ركنه ملتزما الصمت منذ وطأت أقدام يعقوب أرض الصالة، لكن مواهبه في التمثيل و المراوغة لا ترقى إلى مستوى زميله المتمرس أكثر منه... قال

يعقوب هذا في سريرته و هو يهز رأسه الملفوفة بالضمادات هزات خفيفة و ابتسامة قاسية ترتسم فوق شفتيه الرقيقتين.

مهما كان يا عزيزي، لا يعقل أن تكون قد تعطلت تماما بين عشية و ضحاها !

من الأفضل لك أن تغادر في الحين، كرر الكاشف بتهديد مبطن و هو ينظر إلى زرياب المتواجد خلف يعقوب.

أنا على أتم الاستعداد ، أكد زرياب.

رد يعقوب بنبرات هادئة و طبيعية خالية من أي انفعال : إذا لنتفق أولا بخصوص الشيفرة، أم غيرت رأيك ؟

قطب الكاشف حاجبيه ثم رد بسرعة : قلت لك انتهى كل شيء و أنت حل من اتفاقنا ، لم يعد يهمني و أظن جازما بأن هذه الشيفرة لم توجد إلا في خيال شريف خان الذي تلاعب بنا و ألهانا حيا و ميتا.

رد يعقوب دائما بنفس الطريقة العادية : ما وجدته خلف الأيقونة يفند أقوالك يا صديقي.

تغير وجه الكاشف و انتفخت أوداجه من وقع المفاجأة و التوتر و تحجرت ملامحه حتى خال يعقوب نصفه الأعلى في ظلال الإنارة الباهتة رأس أبي الهول، في حين تصاعدت حمرة متدرجة غزت وجنتيه أعطت عينيه البارزتين صبغة مقلقة.

إلى ماذا ترمي بالضبط، لم أستوعب قصدك جيدا ؟ سأل بصوت خافت كأن أنفاسه على وشك أن تتوقف.

أخبره عندها يعقوب بالقصة من دون لف أو دوران، كيف كان يراقب و يتابع كل ما يحصل داخل القاعة منذ أن بدأ في

معالجة الأيقونة يستخرج منها ما يكمن داخل أحشائها من سر دفين و خطير، أي الميكروفيلم... ثم تحرك حتى لا يقع بين فكي الكماشة، بين الكاشف و زرياب فريسة سهلة المنال و غنيمة يسيرة في متناول أيديهما...

ابق مكانك و لا تتحرك... أمره الكاشف.

الأمر في حد ذاته لا يعني الكثير، لكن الصيغة المنطوق بها تحمل الكثير من التهديد و الوعيد في ثناياها و تعد بما لا تحمد عقباه، هو يدرك بأن الكاشف و زميله لا يتورعان عن إيذائه و التنكيل به بعد كل ما سمعاه منه ليحتفظا بالشيفرة لهما دون مشاركة من أحد تسول له نفسه أن يفكر مجرد التفكير أن يشاركهما في غنيمتهما الحاتمية التي ستدر عليهما إن أحسنا استغلالها ما لم يدر بخلدهما يوما أو خطر ببالهما حتى في الأحلام.

أنت أيها الكاشف أقذر شخص صادفته في مشواري إلى حد الآن، لا تحترم عهودك، تخون و تضرب عرض الحائط بالاتفاق الذي أبرم بيننا... رد عليه يعقوب منفعلا و غاضبا.

ضحك الآخر مستهزئا و رد و هو يسحب مسدسه :

هذه وجهة نظرك و نحن نحترمها و نقدرها و إن كانت في غير موقعها الطبيعي.

أحمق و غبي أنت و لا شك، (أضاف يعقوب موجها كلامه للمصري دون اكتراث بزرياب) ألا تعلم بأننا سنحصل على قدر هائل من المال يمكننا من قضاء بقية حياتنا في بحبوحة و رغد عيش فنودع الفاقة و الفقر و الحاجة... و إلى الأبد ؟!

تأمله جيدا حتى خاله يعقوب يتردد و يتصارع مع نفسه و هي علامة مبشرة لعل و عسى... لكن رده أمات بارقة الأمل التي تخيلها.

اعلم إذا و خلافا لما تعتقده بأن المال لا يهمني البتة، رد الآخر بسرعة مقاطعا.

يعقوب (بسخرية و تهكم) : آه معذرة، فقد نسيت... أنتما تعملان من أجل المجد و العظمة، و سيخلدكما التاريخ عبرة للأجيال القادمة.

هبّ عندها المصري واقفا في كبرياء و غطرسة يرد عليه بحماس و عيناه تلمعان و الشرر يتطاير منهما : نعم، كل شيء في سبيل مجد و عزة و أمن و عظمة بلادي و أمتي يهون، لكن أنت بالذات لا تستطيع أن تفهم ذلك، كل ما يهمك هو مجدك الشخصي و بريق المال... ثم المال لا غير و ولاؤك لمن يدفع لك أكثر !

أذعن يعقوب صاغرا لكنه انبرى يسأل مغيّرا مجرى الحديث إلى وجهة أخرى : حسنا، ماذا تنوي فعله الآن ؟

رد الكاشف عليه بنبرات تماثل في حدتها و قسوتها المأثور عن صلابة و حدة السيوف العربية الشهيرة : أنت محترف و كلانا ينتمي إلى نفس الوسط، فلا تقل أنك تجهل و لا تعرف قانون اللعبة.

طبعا أعرف ذلك جيدا، لكن ما لا تعرفه أنت أمران : أولهما أن بلدينا تربطهما علاقات طبيعية، ثانيا رؤسائي يعلمون بالقصة و كل ما تقوم به يعتبر عبثا لا طائل منه، و لن يترددوا في إبلاغ و تحذير حكومة بلدك بحيازتك و استحواذك

على الشيفرة الخاصة باتصالات جيوشها ، و لن يتأخر المصريون بتغييرها و استعمال شيفرة بديلة معدة مسبقا لحالات الطوارئ القصوى في مثل هذه الظروف كما هو ساري المفعول في مختلف جيوش العالم، سيحدث كل هذا قبل أن تتمكن من تسويق الشيفرة و العثور على مشترٍ مع ما يلازم هذه العملية من أخطار و مهالك، يتم بعدها متابعتك و محاسبتك من طرف نظام بلدك و حتى تصفيتك إن تعذر القبض عليك حيا ، و إن حدث و بقيت حيا ترزق ستصبح مطارَدا و شريدا و خائفا... و لن تجد مكانا آمنا في رحاب هذا العالم تلجأ إليه و تأمن فيه على حياتك و مصيرك.

رد عليه الكاشف بسرعة : توقعت مثل هذا الأمر، لذا سأرتب الأمر بحيث يبدو أنك وقعت ضحية و تمت تصفيتك من طرف الاستخبارات الرومانية و أقوم بإبلاغ رؤسائك بالنتيجة المأساوية و السلبية لشراكتنا.

ابتسم يعقوب ابتسامة صفراء و رد في هجوم مضاد : فات الأوان يا صديقي، فقد جئت رفقة شخص تعرفه عز المعرفة هو الآن ينتظرني بالخارج، إنها فرنشيسكا التي ساعدتني في الهروب مستعملة سيارتك، و التي أؤكد لك بالمناسبة أنها في حالة جيدة، كما لا يفوتني أن أؤكد أيضا رؤيتي لك و أنت تخرج المايكرو فيلم من الأيقونة، فمن باب الاحتراس تركتها تنتظرني، و أوصيتها بأن تتصل بآخرين إن طال غيابي.

فجأة امتقع لون الكاشف أكثر من اللازم و تجمدت أوصاله كأنه تمثال حجري، إنه يفكر بعمق و سرعة... و أخيرا رد عليه :

هذه و لا شك إحدى نكتك السمجة التي تفتق عنها ذهنك، أنا لا أصدق هذيانك البتة.

تقدم يعقوب خطوات نحو اليمين، زرياب يلاحظه من مكانه لكنه لم يتحرك.

لست مجبرا على تصديقي لكن أحذرك، أنت تسير في نفق مظلم لا نهاية له، عليك أن لا تنسى بأن بلدك يقرأ ألف حساب لقوة أمريكا و دورها المتميز في صراعكم مع إسرائيل و مبادراتها العديدة لفك فتيل الأزمة في المنطقة، و آخرها مبادرة "رودجرس" التي سيتم قبولها من قيادة بلدك، أحذرك و أنصحك لآخر مرة، لو أنه حصل لي مكروه تأكد بأن دولتي لن تسكت عن ذلك و ستدفع و بلدك الثمن غاليا ، سيتبرأ منك رؤساؤك و تواجه عندها وحدك مصيرا لا أحبذه لك، أرجو أن تفكر جيدا قبل الإقدام على أمر متهور تكون عواقبه وخيمة و تداعياته لا يمكنها أن تخطر ببالك، هذه نصيحتي لك قبل فوات الأوان و قد قلت كل ما عندي و الباقي عليك.

نحن لا نحتاج إلى أحد، لدينا من الحلفاء الأقوياء في المعسكر الشرقي من يسندنا و يدعم توجهاتنا الاستراتيجية و السياسية و في مقدمتهم الاتحاد السوفييتي، إن كنت تحاول إخافتنا بقوة و جبروت بلادك فأنت تجانب الصواب، لن يرهبنا ما ترمي إليه و تحاول عبثا زعزعة إيماننا بقضيتنا العادلة التي لا يختلف عليها أحرار العالم و تعاديها بلادك و من يتبعها من أزلامها في سياساتها العدوانية الاستعمارية في تركيع الشعوب و نهب خيراتها السطحية و الباطنية، رد عليه الكاشف بحدة.

طبعا، طبعا... (رد يعقوب ساخرا)، شكرا على محاضرتك المستفيضة التي ذكرتني بدروس طلبة كليات العلوم السياسية، تكلم و تكلم ما دام في الأمر متسع و سترى - كما يقول المثل - من يجني الأشواك في نهاية المطاف، قال ذلك و هو ينظر في ساعته، لقد مرت أكثر من نصف ساعة منذ دخوله البيت.

لا بد و أنها في الطريق الآن، فلتتأكد أني أقول الصدق... ثم توجه بسرعة نحو النافذة و هو رافع يديه في الهواء، فتحها و استدار نحو الرجلين الواقع تحت تهديد مسدسيهما و أصبعاهما على الزناد على أهبة الاستعداد لإطلاق النار عند أي بادرة مريبة تصدر عنه.

دفع بالمصراعين و هو يقول بصوت عال : سترون الآن... كانت يداه مرفوعتين إلى مستوى كتفيه لأنه أمر جوهري كي تصدق فرنشيسكا بأنه في خطر حقيقي، نادى عليها :

فرنشيسكا، أين أنت ؟

لم يرد أحد سوى رجع صوته الممزوج بعصف الرياح و صفيرها الحاد، مما دفع بالكاشف إلى الانغماس في نوبة ضحك ساخرة. أعاد النداء من جديد و حنجرته مشدودة : فرنشيسكا، إنه قارب نجاتك إلى بر الأمان من يكلمك...

لا شيء سوى الريح العاصفة في ثنايا أغصان الأشجار.

انغمس الكاشف من جديد يضحك ملء فيه...

لقد انهزمت، عليك ألا تكابر و تعترف بفشلك، و أنت حسب معرفتي بك لا تنقصك الشجاعة، هيا تقدم إلى الوراء

و عد إلى مكانك الأول سيقوم زرياب بغلق النافذة لأن البرد لا يحتمل.

أطاع يعقوب الأمر الصادر إليه المبطن بتحذير لم يغب على فطنته، إذ لا يمكنه أن يقفز من خلال النافذة و ينفذ بيسر، سيكون المسدسان أسرع منه قبل أن يحقق بغيته و يختفي عن أبصارهما التي ترصد حركاته مثلما يترصد الصياد فريسته.

حينما كان زرياب منحنيا إلى الخارج يمسك بمصراعي النافذة شعر يعقوب بصدمة مكتومة و سمع أنينا يشبه الزفير أعقبهما ضجيج خافت لجسم يسقط متهاويا ببطء.

لم يسع الكاشف و قد شعر بالخطر الداهم إلا أن يصيح به : الزم مكانك و لا تتحرك قيد أنملة و إلا أفرغت عبوة مسدسي في دماغك !

لم يدم الأمر كثيرا، ما إن أتم الكاشف تحذيره ليعقوب حتى جلجل فجأة في أجواء المكان المكهربة صوت فرنشيسكا الرقيق المرتعش : دعه يخرج أيها الكاشف و إلا قتلتك.

ابتسم يعقوب و وجه أصبعه نحو النافذة قائلا : ألم أحذرك بأنها معي، هل صدقت الآن ؟

و عندما لم يجبه المصري، توجه إلى المرأة قائلا و هو يقفز من الزهو والفرح : أنا سعيد بك، أعشقك بكل جوارحي و كل ذرة في كياني حبيبتي الغالية !

عاود مرة أخرى يقول بلطف متعمدا إثارة حفيظة الكاشف و استفزازه : سأتزوجها، أجدها رائعة، ما رأيك أنت ؟

كان الكاشف قد أرخى سلاحه بالتزامن مع إرخاء يعقوب يديه.

و الآن يا صديقي... (صاح يعقوب)، هل نعود إلى نقطة الانطلاق، إلى ما كانت عليه شراكتنا أم لديك حل آخر ؟

ملامح الكاشف توحي بأن مرارته تكاد تنفجر من شدة الغيظ و الحنق.

لقد تمكنت هذه العاهرة من الإيقاع بك في براثن شباكها المميتة، أنا الذي توسمت فيك نفاذ البصيرة و حدة الذكاء، ردد مزمجرا.

همّ يعقوب بالرد عليه لولا أن شيئا ما بداخله استوقفه و جعله يمسك. أكمل الكاشف سرده قائلا : ستكون المتسببة في قتلك يوما ما كما هو دأبها، إن كانت فعلت ذلك مع زوجها شريف خان فهل هناك ما يمنعها و يحول دونها أن تعيد الكرة معك ؟

فرنشيسكا من الخارج تصيح بأعلى صوتها : أرجوك لا تستمع إليه، إنه يحاول إفساد الأمر بيننا، اجعله يصمت !

لكن الكاشف استمر يقول : نعم، إنها هي من سلمني زوجها و مثّلت عليك مسرحيتها بمهارة و إتقان للإيقاع بك ظنا منها أن الشيفرة ستكون معه عندما يأتي للموعد المضروب بينكما، هل اقتنعت الآن أم مازلت تهيم في دهاليز حبها التي أعمتك عن رؤية و اكتشاف حقيقتها الانتهازية و شخصيتها الميكيافيلية التي لا تمنعها من ارتكاب الفظائع في سبيل تحقيق غاياتها و أهدافها الدنيئة ؟

بدأت الغمامة تنزاح رويدا رويدا عن أعين يعقوب، إذ أدرك ماهية الكثير من الأشياء التي تراءت له غريبة و شاذة... إذن هو الكاشف من قام بتعذيب شريف خان حتى الموت و كان يعلم بوجوده في البيت عندما قام بلعب دوره المتميز في المسرحية الصفراء المُعدَّة سلفا متظاهرا بالاندهاش و الاستغراب عند العثور على الجثة في شقته.

استمر الكاشف في حنق يفضح أسرار فرنشيسكا : راهنت في البداية على شخصي ضد زوجها، و بعد يأسها انتقلت آملة في استعدائك ضدي لسبب وحيد هو جشعها و طمعها في الحصول على مبلغ طائل من ورائك لا يمكنني أنا أن أوفره لها لإرواء سيل نزواتها المادية التي لا تنضب و لا تضاهى.

في تلك اللحظة برزت فرنشيسكا بقرب النافذة، كان لونها شاحبا و وجهها معصورا من شدة الغضب الذي ركبها.

سأقتله، سأقتل هذا اللعين... زمجرت صارخة.

تدخل يعقوب بسرعة واضعا نفسه أمام الكاشف كي يحول دونها و تنفيذ مأربها.

أنت مجنونة و لا شك، توقفي عن هذا الهراء و العبث حبيبتي حتى ننتهي من فصل الرواية الأخير المشوق !

نعم، لم ننتهِ بعد... (انفجر الكاشف يصيح بأعلى صوته) كي تتوج النهاية و تحقق ما تصبو إليه حملتني على التخلص من غوندليزا و استولت على كل ما يخصها من أوراق ثبوتية تحمل صفتها تنتحل شخصيتها لتضليل مصالح الأمن الجزائرية و الإفلات من قبضتها.

بدأ يعقوب يراجع في عجالة بعض حساباته فوجد رواية الكاشف لتسلسل الأحداث بكل حيثياتها و ملابساتها تنطبق بغرابة لا غبار عليها في كل ما ساوره من شكوك و طرحه من أسئلة لم يجد لها في حينها ما يؤكدها أو ينفيها على أرض الواقع إلا الساعة.

كيف تمكنت من اصطياد غوندليزا ؟ سأله فجأة يعقوب.

كلمتها هاتفيا و وعدتها أن أسلمها وثائقها كي تتمكن من مغادرة الجزائر نحو الوجهة التي تريد، بلعت المسكينة الطعم و الباقي تعرفه... رد الكاشف و مرارة في حلقه كأنه نادم على ما قام به.

أنت أيضا غررت بك فرنشيسكا و انطلت عليك حيلها و وقعت في الشراك، أليس كذلك ؟

ابتسم الكاشف ابتسامة صفراء تنم عن الحرقة و الألم، و قال متنهدا :

طبعا... لم تكن قد بلغت آخر الشارع و تركتنا معا حتى انبرت تنزع ثيابها و تخلعها أمامي تغريني بمفاتنها التي لا تغيب على فطنتك، لم أتمكن من كبح جماح شهوتي و فقدت السيطرة على نفسي و رضخت رغم أنفي بعد أن سلمت لها القياد – وا أسفاه – مثل مراهق مفتون وقع في حبائل غانية لعبت بغرائزه و أعصابه حتى فقد روح المقاومة أو المواجهة، و البقية لا تخفى عليك.

هذه هي الحياة... رد يعقوب و هو يشير في حركة استسلام مؤمنا، هو نفسه خضع لها و لم يستطع أن يقاوم إغراءها، الفارق بينه و بين الكاشف أنه لم يسلم أوراقه لها و لم يَنقَد

لها مغمض العينين تفعل به ما تشاء، لكن هذا أكمل يقول : لا ينبغي أن تفرق بيننا أو تحول دون تعاوننا و نحن أحوج ما نكون في الوقت الراهن بالذات إلى التعاون و التنسيق بين بعضنا البعض... الآن و قد تصارحنا و تم نشر غسيلنا علينا أن لا ننسى المصلحة التي جمعت بيننا و نجعلها نصب أعيننا في كل خطواتنا المقبلة بكل صدق و شفافية.

تقدمت فرنشيسكا مبتعدة عن النافذة كاشفة نفسها.

أرجو أن تتذكر وعودك لي و أن لا تنساها.

تذكر يعقوب و أجابها بنبرات مهتزة تشوبها شكوك جدية : اسمعي حبيبتي، لا يهمني كل ما قمت به، بلا ريب فيك عيوب كثيرة لكن بالمقابل تملكين مزايا لا يرقى إليها الشك أو ينكرها عاقل... و ترك بصره يصول و يجول في مفاتن تقوسات جسدها الرائع المندس داخل المعطف، هي التي لا تزال واثقة من نفسها و من أسلحة غوايتها الظاهرة و الخفية.

أنا قادمة في الحال...

يعقوب في همس سريع للكاشف : تظاهر بأنك خائف و مرعوب و قل بأنه لا يمكنك الحديث ما دامت تحتفظ بمسدسها و دعني أتكفل بالباقي. ثم ذهب يفتح لها الباب و هو مطمئن بعدم وجود خطر يتهدده من ناحية الكاشف.

دخلت و عيناها تلمعان بشراسة قاتلة، و انهالت على الكاشف تسبه و تشتمه، لكن يعقوب استوقفها :

لا عليك منه حبيبتي، تماسكي و لا تتركي الغضب يسيطر عليك بانفعالاته الهوجاء و يفقدك تركيزك و توازنك، لدينا

قضية أنا و السيد الكاشف لذا أرجوك أن تجلسي و تهدئي كي نتمكن من البت فيها.

الكاشف يهدد محتجا : لن أتفوه بحرف واحد و هي توجه مسدسها نحو صدري، هذا يرعبني و يفقدني التركيز.

تنطلق ضحكات قاسية يهتز لها جسد المرأة في تموجات شهوانية.

ها...! ها...! الآن خانتك رجولتك و فقدت فحولتك لتتحول إلى مسخ شبيه بعاهرات سانت دونيس أثناء الحرب... رد عليه يعقوب.

توقف عن هذا الكلام الفاحش لو سمحت، احترم وجود السيدة، أنت تتصرف و كأنك رجل بدائي لا يمت بصلة للعالم المتحضر.

أعطيني عزيزتي مسدسك و سأرجعه لك لاحقا.

نجح في تجريدها من سلاحها على حين غرة. أتت حركة لتسترده لكنها توقفت في منتصف الطريق لما شاهدت تعابير وجه يعقوب المصرة.

ستعيده لي من دون شك ؟ قالت مستفسرة باستعطاف.

بالطبع... ثم قال موجها كلامه إلى المصري : المثل يقول : "خير الكلام ما قل و دل"، أنا متأكد من أن الشيفرة موجودة معك و لا يمكنك أن تفعل بها أدنى حاجة من دوني و العكس صحيح، الحل العملي و البراغماتي هو أن تسلمني الشيفرة و بدوري أسلمها لرؤسائي في واشنطن، نعطيك نسخة طبق الأصل منها إن رغبت في ذلك كي يطمئن بالك و أقترح مهلة

أربعة أيام تكون بعدها في حل من اتفاقنا و يمكنك بعدها أن تفعل كل ما تريد و تراه مثل أن تبلغ رؤساءك أو تتصل بجهة يروقك التعامل معها، بالإضافة لكل ذلك ستكون ملازما لي كظلي في كل خطوة أخطوها، هل يرضيك مقترحي ؟

كان المصري قد التقط مسدسه و أمارات التفكير بعمق و اهتمام بادية على وجهه. مرت دقيقتان في صمت تام قبل أن ينبري يقول بكل بساطة و هدوء : أنا أوافق على مقترحك لكن بالمقابل أحذرك من أي محاولة للتلاعب و ربح الوقت لغاية في نفسك. ثم مباشرة و دون تردد أخرج الغلاف البلاستيكي الأسود و سلمه إلى يعقوب.

شرع فورا هذا الأخير في فحص الوثيقة بعناية بالغة، عناية المحترف المدرك خبايا و خلفيات الأمور.

جميل، كل شيء على ما يرام، (أكد يعقوب) الآن سأطلب منك تسليمي سيارتك، و ليطمئن بالك سأعوضك عنها فلا تنزعج.

ليتك تفعل و تريحيني منها فقد أرتني النجوم في عز الظهر بسبب نزواتها المشابهة للبشر، قال هذا و هو يغمز ناحية فرنشيسكا.

ابتسم يعقوب و هو يقول : سأقدم لك أيضا هدية، بعد أن فكرت مليا ظهر لي أن العزيزة فرنشيسكا مندفعة و هوائية أكثر من اللازم، خطورتها تأخذ منحى تصاعديا تفوق بمراحل الفائدة المتوقعة منها لذا قررت التنازل عنها و تركها لك.

لمعت مقلتا الكاشف القاسيتين بفرحة صبيانية.

مرت ثوانٍ قبل أن تستوعب فرنشيسكا الموقف و حقيقة الأمر الذي يدور بخصوصها، فتغير لونها و ارتعدت أوصالها و هي تهم بالانقضاض على يعقوب.

هذا يخالف اتفاقنا، أنت تمزح و لا شك ؟

دفعها عنه بعنف حتى اصطدمت بجانب الطاولة المدبب فصرخت من الألم و هي تلمس خاصرتها.

خنزير... قذر... ستدفع الثمن الغالي و على يديَّ هاتين جراء خيانتك و غدرك أيها النذل.

ظهرت علامات التبرم و الانزعاج على وجه يعقوب لكنه أكمل كلامه كأنه لم يسمعها : و فوق كل هذا هي عديمة التربية، جميلة نعم، لكنها لئيمة و وقحة، ماذا في وسع الشخص أن يفعل مع امرأة من هذا الطراز.

و أضاف يؤكد بتصميم لا يقبل التراجع : هي لك، افعل بها ما بدا لك فقد نفضت يدي منها و إلى الأبد.

همّت فجأة مندفعة نحو الباب لكن يعقوب تفطن لمعنى محاولتها و اعترض طريقها حائلا بينها و بين تنفيذ مرادها لترتطم به و تقع على الأرض تصرخ.

أمسك بها من شعرها و أوقفها و هي تمد ذراعيها نحوه متضرعة تترجاه و تستعطفه، لكن يعقوب أصم أذنيه و طرد الرحمة من قلبه، الرأفة ؟ هو لا يعرفها يجهل تماما معناها و مغزاها في مثل هذه المواقف التي تستلزم الحزم و الصرامة و ذهنه منشغل يفكر في فرنشيسكا و كيف تمكنت من اكتشاف علاقة زوجها بغوندليزا و مشروع هروبهما إلى بولينيزيا الفرنسية قبل أن تطفو القضية نفسها على السطح... لم تكن من نوعية

النساء المتسامحات العاقلات لذا لجأت على الفور إلى استعمال وسائل تتجاوز إمكاناتها و قدراتها المحدودة جالبة إلى لعبتها القذرة المصري قبل أن تنقلب عليه، كيف لا و هي التي غدرت بزوجها نفسه و خانته ثم سلمته عن طيب خاطر إلى الإعدام قبل أن تراودها أطماع الحصول على الثروة من خلاله هو، كونه أمريكيا أسال لعابها و فتح شهية طموحاتها الجنونية، جشعها و تعطشها للمال جعلاها تعيد الكرّة و تتعاون مجددا مع الكاشف عندما أرادت الانتقام و التخلص من غوندليزا كي يخلو لها الجو و تتحرك بسهولة و يسر دون مضايقة من الأمن الجزائري باستبدال الهوية و انتحال شخصية غريمتها. يا لها من فاجرة جميلة و لذيذة، جمالها يوازي فجورها و يعادله.

قام الكاشف في محاولة منه لإسكاتها بصفعها صفعة قوية أفقدتها الوعي جزئيا و أذهلتها عن نفسها جعلتها تخلد للسكون مكرهة رغم أنفها، ثم وجّه كلامه ليعقوب :

هناك أمر يحيّرني، ما منعك من التخلص مني و في مقدورك أن تنفذ الأمر بكل سهولة و يسر ؟

ابتسم يعقوب و رد قائلا : رغم كل شيء عزيزي الكاشف أنت رجل طيب، طبيعي و عفوي و أنا أحترم هذه النوعية من الرجال و قد سعدت بالتعاون معك أيما سعادة، وداعا صديقي و بدون حقد أو ضغينة.

قفز يعقوب من النافذة فوقع على جثة زرياب و تعثر محلقا في السماء يطير بروعة و مهارة يحسده عليها عباس بن فرناس قبل أن يقع فوق الأرضية الأسفلتية، أصيب بخدوش طفيفة،

حاول القيام ممسكا جنبه و هو يسب و يشتم و قد عاودته آلام جسمه أشد ضراوة و وطأة من ذي قبل.

اللعنة... ماذا يفعل هذا الرجل مجددا هنا ؟

أخيرا تمكن من الوقوف منحنيا بصعوبة و هو يضغط على أضلاع صدره... لمح أحذية ثقيلة تحيط به فجأة و يدا تمتد إليه تساعده على الوقوف و الانتصاب، أنظار الأشخاص الخمسة كلها مركزة عليه تكاد تحرقه في ذلك الجو المتجمد، يرتدون معاطف شتوية و أيديهم في جيوبهم.

هيا، اتبعنا إلى الداخل، قال فجأة أحدهم في صيغة أمر.

كان يعقوب محاطا بهم سدا لأي منفذ يمكنه من الفرار أو مناورة تخامر ذهنه للإفلات و الهروب منهم، تبعهم و هو صامت يراقب الوضع الجديد غير المتوقع الذي ألمّ به دون سابق إنذار أو مقدمة.

أول ما فعلوه عند دخول المنزل نزع المسدس منه بينما الكاشف و فرنشيسكا في نفس الوضعية التي تركهما عليها.

كيف حالك يا كاشف، هل أنت بخير ؟

نعم سيدي، أنا بخير و الحمد لله.

هلا قدمتنا للسيد يعقوب مائير كي يطمئن باله و يهدأ روعه و يزول توتره قليلا ؟

هم يعرفونه بلا أدنى شك و الدليل نطق أحدهم باسمه.

يا ترى من يكونون ؟ (تساءل يعقوب في سريرته) أكاد أجزم بأنهم عرب و عسكريون من خلال حركاتهم و طريقة كلامهم، لكن لا شيء يؤكد الأمر أو ينفيه إلى حد الآن.

قام الكاشف و بدأ عملية التقديم بدءا من اليمين إلى الشِّمال بهمة و نشاط :

العقيد يسري بركات، المقدم عبده المنياوي و الرائد جمال منصور من جهاز المخابرات العسكرية المصرية، و الزميلان هما الرائد سعيد سفياني و النقيب حسين بن سليمان من جهاز الأمن العسكري الجزائري.

بعد التقديم انبرى الرائد الجزائري يقول بهدوء : سيد يعقوب، كي لا نضيع وقتنا جميعا، في حوزتك "ميكرو- فيلم" على جانب كبير من الحساسية و الخطورة على أمن مصر و الأمة العربية ككل نطلب منك أن تعيده لنا، و لا مانع عندي من أن أخبرك أنه منذ حلولك بالجزائر و أنت موضوع تحت الرقابة المشددة، لم تغب لحظة عن أعيننا، تركناك تتحرك بحرية كي نتمكن من الإحاطة و الإلمام بشبكتك إن وجدت و المتورطين المحتملين معك، اتفقت القيادات السياسية في البلدين رغم خطورة الموقف أن تترك كامل حرية التعامل و المبادرة للجهازين الأمنيين بالطرق التي يريانها ناجعة لاسترجاع الشيفرة، و قد أقسمنا بأغلظ الأيمان أن لا ندعك تخرج من الجزائر إلا على جثثنا، و قد وقعت في الفخ الذي نصبناه لك و أصبحت تتعاون مع الكاشف و فرنشيسكا أيضا، و هي بالرغم من كونها إيطالية فقد قبلت دون تردد التعاون معنا، كانت عيننا الساهرة التي لا تنام، انظر سيد يعقوب، أنت ابن الجزائر مولدا، ترعرعت في تربتها، شربت من مائها و تنفست هواءها، نحن نعلم حبك للجزائر و أن اسمك الحركي في "لانجلي" هو الجزائري، أنت لست صهيونيا، أبحرت رغما عنك في هذه

القضية صدفة و دون تخطيط مسبق... أنت تدرك بأن وقوع الشيفرة في يد الـ "سي أي أيه" يعني وصوله إلى إسرائيل و ما يترتب عن ذلك من تهديد أمن الجيوش المصرية و العربية و الأمة برمتها على حد سواء... صمت قليلا و هو يتأمله ليرى تأثير كلامه فيه ثم واصل يقول : لا نريد أن نؤذيك و لا تحبذ الجزائر كقيادة سياسية الدخول في متاهات مع أمريكا بسببك، نحن تربطنا علاقات طيبة معهم، و لا يزال ماثلا في ذاكرتنا الجماعية موقف أمريكا و رئيسها جون كيندي مع شرائح واسعة من الشعب و السياسيين بشتى أطيافهم و أعراقهم من ثورتنا و نصرتهم لنا في قضية تقرير مصيرنا عند طرحها في الأمم المتحدة آنذاك، أنا أخاطب فيك حبك الجارف لوطنك الأول الجزائر و الأمريكي ثانيا و حرصك الشديد على تجنيبهما مشاكل لا فائدة منها، أنت تدرك بالطبع أنه من السهل علينا التخلص منك و إخفاء أثرك و أخذ ما نريده منك بكل يسر، و لكنني أكلمك بالعقل و المنطق. يمكنك بعدها أن تغادر الجزائر كما دخلتها في أمان تام مع ألف سلام، فماذا أنت قائل ؟

لم يأت الرجل على نهاية كلامه حتى اعترت يعقوب الدهشة و انعقد لسانه و ارتعدت أوصاله و شحب لونه إذ تأكد بما لا يدع أي مجال للشك أو التخمين من أنه وقع فريسة سهلة في براثن من لا يعتقه أو يمكّنه من المناورة أو الفرار، لأن الواقفين أمامه متحفزون على أهبة الاستعداد لكل إشارة أو مبادرة تصدر عنه، البيت نفسه يكون في هذه اللحظات مراقبا و محاصرا مما سيجهض أي محاولة منه للإفلات أو المقاومة و عندها تكون العواقب وخيمة و لن يجني إلا الأشواك و العواصف من دون طائل.

لقد نجح الكاشف مع فرنشيسكا في خداعي و الإيقاع بي، أعترف و أقر بأنهما كانا الأذكى و الأدهى مني، لاعباني بطريقة ماكرة و جعلاني أتجشم الأخطار و أواجه الموت الزؤام، و عندما أصبحت قاب قوسين من قطف الثمرة ها هما يتسلمانها بدلا عني بيسر و تلذذ ليتحول انتصاري الفجائي و المؤقت إلى نكسة مستديمة، يعود هذا حتما إلى غروري و الثقة الزائدة عن حدها بقدراتي و ذكائي و قوة جهاز الـ "سي أي أيه" و رجاله، محصلة هذه العوامل مجتمعة مع تداخلات أخرى جعلتني أحصد رياح السموم و أتوَّج بأكاليل الفشل الذريع و نسيت في الخضم أنه يمكن أن تدور عليّ شخصيا الدوائر...

الأمور تتطور بسرعة فائقة في المجال الاستخباراتي و دوام الحال من المحال، هو يعرف جيدا أن جهاز الاستخبارات الجزائري تكوّن على أسس صحيحة و متينة، له باع طويل أثناء ثورة التحرير و بعد الاستقلال إذ يُعدّ من أهم الأجهزة التي يعتمد عليها الوطن حكومة و شعبا في مواجهة التحديات المرتبطة بتوجهات البلد السياسية داخليا و خارجيا، جهاز على شاكلة معظم الأجهزة التي تدور في فلك الاتحاد السوفييتي مثل بلغاريا، و بولونيا، و رومانيا، و كوبا... المشهود لها بالحنكة و الخبرة. لم يعد في إمكانه الآن فعل أي شيء بعد أن قُضي الأمر و لم يبق أمامه سوى النفاذ بجلده و اجترار مرارة الخيبة و الفشل، حياته و سلامته مقابل الشيفرة أو يفقدهما معا...

ليس هناك من فائدة أن أبقى أندب حظي و أبكي مثل النسوان، عليّ بالصبر و التجلد و فعل كل ما في وسعي للخروج من هذه الوضعية دون خسائر قاتلة.

وضع يده في جيبه و أخرج الغلاف الذي تسلمه منه النقيب الجزائري و أخذ يفحصه بعناية و اهتمام بنفس طريقته ثم وضعه في جيبه و هو يبتسم.

الآن أثبتّ لي أنك رجل عاقل، لم تخيّب ظني و أكدت بالفعل كل ما في حوزتنا من معلومات تخصك.

هل تملكون ملفا يخصني ؟ تساءل يعقوب في دهشة.

و هل تظن يا سيدي بأننا نقضي وقتنا في لعب الطاولة و السياحة ؟ أنت ابن نفس البيت و تعرف هذا جيدا... لا تحزن عزيزي، أمامك العزيزة فرنشيسكا، كونها إيطالية لم يمنعها من أن تتعاون معنا، فقدت زوجها الخائن و تعرضت للضرب و المخاطر لسبب وحيد هو مناصرة الحق المغتصب و إعادته إلى أصحابه الأصليين، سيحاسَب الخبراء الخونة من الروس و كل المتعاونين معهم من الجيش المصري في سرقة الشيفرة السرية الخاصة بالجيش، و قد نال أحدهم جزاءه في حريق فيلا شريف خان، المهم أننا تمكنّا من إنقاذ سمعة الوطن و تأمين الجيش و سيتم لاحقا القبض على كل المتورطين و سيحاسَبون، كما لا يفوتني أن أشكرك جزيل الشكر على تفهمك و تعاونك معنا. يبقى شيء أخير، بعد أن انتهت الأمور إلى ما انتهت إليه يمكنك أن تغادر الجزائر خلال مدة أقصاها ثمانية و أربعون ساعة، أقم في الفندق الذي كنت فيه و سنرسل لك أحد رجالنا ترتب معه خط رحلتك و اعتبر نفسك مواطنا في زيارة لبلده.

كانت هذه كلمة ختام مؤثرة نطق بها الرائد سفياني مواسيا يعقوب و مخففا عنه وطأة الألم و المعاناة النفسية، غادر على إثرها الغرفة بسرعة مع رفقته كما ولجوها أول مرة.

لكن و هم يخرجون وصل أسماعهم صوت يعقوب يخاطبهم فتسمروا مكانهم من دون حراك ينصتون لما يقوله.

اسمحوا لي في البداية أيها السادة أن أقر و أعترف لكم بالتفوق و المقدرة، تأكد لي الآن بالملموس بأن تسمية "الكي جي بي الصغيرة" التي تطلق على جهاز الاستخبارات الجزائرية صحيحة لا تشوبها شبهة و لا يعتريها شك، كنت في الماضي أستهزئ منها و أحملها محمل النكتة، لكنكم أثبتم بما لا يدع مجالا للشك أنكم أذكياء بل متفوقون في طريقة إدارتكم للعملية باصطياد و إيقاع رجل يملك كما هائلا من الخبرة و الدهاء و سجلا رهيبا من النجاحات و الانتصارات طيلة حياته المهنية زيادة على انتمائه لأكبر جهاز استخبارات فوق الأرض مشهود له بالتميّز و التفوق بما يملكه من تقنيات و إمكانيات بشرية و مادية و...

قاطعه أحدهم رافعا صوته كي يصل سمعه : تعرف سيد يعقوب، أنت محق في كل ما قلته، و بغض النظر عن الخبرات و الإمكانيات، طبعا هي ضرورية و لا غنى عنها لأي جهاز و لا ننكرها، فقط هنالك فارق كبير في العقيدة العسكرية بيننا و بينكم، يبدو بسيطا لكنه قطعي الدلالة و حاسم في آن واحد، نحن نحمل قضية نؤمن بها و ندافع عنها بكل ما أوتينا من قوة و إمكانيات لا ترقى طبعا إلى إمكانياتكم الهائلة و المعتبرة، هل تعرف ما هو هذا الفارق ؟ سأجيبك كي لا تتعب نفسك في التفكير و حالتك النفسية لا تسمح لك بذلك، أنتم و غالبا بسبب سياساتكم الخارجية الظالمة المعادية لتطلعات الشعوب في الحرية و الديمقراطية و استقلال قراراتها السياسية

و الاقتصادية و الاستراتيجية و كل ما يختص بمناحي حياتها الحاضرة و المستقبلية تناصبونها العداء و تحاصرونها أو تقومون بغزوها و احتلالها، أنت و أمثالك تدافعون عن قضايا خاسرة تأخذ فيها طموحاتكم الشخصية و انتصاراتكم الذاتية الاهتمام الأول بما تحققونه من مجد شخصي و عائد مادي على حساب الآخرين، و هذه هي المفارقة بيننا و بينكم سيدي العزيز.

تتبع يعقوب وقع خطواتهم و هم يخرجون بهدوء إلى أن اختفت أصواتهم و أصبحوا في الخارج متوارين عن أنظار الجميع ليحوّل بصره إلى الكاشف و فرنشيسكا فلم يلاحظ شماتة أو سخرية من جانبهما، بل على العكس من ذلك اشتم رائحة تعاطف و مواساة.

تقدم منه الرجل، و وقف يتأمله قبل أن ينطق قائلا : صديقي يعقوب، بالرغم من كل شيء حدث بيننا أنت تدرك جيدا و تعي تماما أنه لا يمكنني أن أخون بلدي و قضيته مقابل أموال قارون نفسها، لا تحزن عزيزي على ما فاتك، ها هي أمامك فرنشيسكا نفسها و التي تعاونت معنا رغم أنها إيطالية... و أنا أشكركَ كثيرًا يا يعقوب على تعاونك معي، فبالرغم من يهوديتك أنت إنسان طيّب و لا أشك أبدا في تأييدك و وقوفك مع الحق و نصرة المظلوم أينما كان و حيثما وُجد... أمر أخير أود أن أبوح به لك الآن، اعلم بأن فرنشيسكا تحبك بكل ذرة في كيانها، و لتطمئن نفسك أنا لم ألمسها و لم أمارس الجنس معها رغم الضعف الذي انتابني و الأفكار الشيطانية الذي راودتني في لحظات معينة، لكنها قاومتني و أوقفتني عند حدي برفضها القاطع

للاستجابة لنزوتي الطارئة، علاقتي بها لا تخرج عن إطار التعاون الذي تعرفه و قد صارحتني بحبها لك و تمسّكها بك، و عندما تفكر بروية ستجد أنها لم تخذلك بل انتصرت للحق و العدل، المسكينة دفعت ثمنا باهظا، فقدت أقرب الناس إليها و هو رغم خيانته يبقى زوجها، تشردت و تعرضت لكل ما لا تحمد عقباه و البقية تعرفها و لا داعي لتكرارها، إن قبلت نصيحتي تزوجها و خذها معك إلى أمريكا تشاركك حياتك و تنعش ما تبقى من أيام حياتك.

لمحها تتقدم منه في استحياء العذارى ممسكة بخاصرتها التي تؤلمها فأحنى رأسه و خفض عينيه و ظل صامتا، لم تبالي و لفّت ذراعيها حوله و طبعت على شفتيه قبلة حارة شهية حمّلتها كل أحاسيسها الجيّاشة و حبها الفياض أنسته كل ما عاناه من آلام و هموم و ذكرته بجسدها الرائع البديع بفخذيها اللحيمتين و نهديها المتعجرفين بحلماتهما الصلبتين و بكل جمالها الفاتن الأخاذ.

حبيبي، هل تقبلني زوجة لك تشاركك حياتك سراءها و ضراءها إلى أن يفرق بيننا الموت ؟

ظل يلتزم الصمت، أدركت فرنشيسكا بذكائها ما يدور في دخيلته من صراع عنيف بين الخير و الشر فتصدت للأمر بكل ما تملكه من أفانين الإغراء لتحمله على تغيير موقفه تجاهها بعد النكسة التي أصيب بها في كبريائه و معنوياته و هي واثقة من قدراتها و إمكانياتها التي تجعله يعود إلى جادة الصواب فيتهاوى في شباكها مستسلما رافعا الراية البيضاء يحتمي في أحضانها الدافئة المسكرة.

لم تضيع ثانية من وقتها ، فتقدمت على الفور نحوه و أخذت مكانها على المقعد المواجه له متعمدة رغم آلام خاصرتها أن تفتح معطفها فتقع عيناه على ساقيها العاريتين و صدرها البض البارزة معالمه يبهر الرائي و يجذبه بقوة مغناطيسية لا فكاك منها تحت تأثير فستانها الضيق في إثارة و فتنة مقرِّرةً استعادته مهما كان الثمن، هو الذي قوض سعادتها و حطم أحلامها و أذل كبريائها و جرحها بالتخلي عنها و السماح فيها بعد كل ما كان بينهما من متعة و سعادة...

رغم كل ما انتابها من مشاعر الغضب تمالكت نفسها و قالت معاتبة بلهجة رقيقة : أهذه هي طريقتك التي تتعامل بها مع من أحبتك و أخلصت لك ؟

و ماذا كنت تنتظرين ؟ رد عليها بخشونة.

أن تكون لي و أكون لك كما تعاهدنا و أقسمنا.

أرجوكِ، أنتِ تضيّعين وقتي، دعيني و شأني...

أنتَ غاضب منّي مع العلم أنني لم أقترف في حقك ما يحملك على معاملتي بكل هذا الجحود و الإجحاف.

لا فائدة من إثارة هذه المواضيع الآن.

يُسعدني أن تكون قد ندمت و لو لحظة بتخلّيك عني بهذه الطريقة المهينة و تسليمي للكاشف...

لم أندم قَطّ على ذلك... رد عليها بنغمة تَشَفٍّ متعجرفة إمعانا منه في إذلالها و إيذائها.

هل جنيت إلا الخيبة و الشقاء من وراء خداعي ؟

ما عرفت الشقاء و الإخفاق إلا بسببك.

بسببي أنا ؟! ألستُ السبب في نجاتك و إنقاذك ؟
السجن أرحم منكِ و من العيش معك.
الآن أصبحتُ سجنا ؟! ألم أمتعك و أتعاون معك ؟
أمتعتِ غرائزي و بالمقابل دمرت نفسي...
كانت قبلاتي تجننك و أحضاني تدثرك...
كانت أحضانك و قبلاتك تنويما مغناطيسيا عطّل إرادتي و شلّ عقلي.
هل نسيت ليالينا و سهراتنا الحمراء... هل نسيتها فعلا ؟
هذا بالذات ما أسعى إلى نسيانه و محوه من حياتي.
لماذا تسعى جاهدا إلى عكس الحقائق الواضحة ؟
بل أضع الأمور في نصابها.
دعنا من العتاب الآن، إن كنت تظنني خائنة فأنت مخطئ لأنني أقدمت على ما فعلت من أجلك، هم كانوا يعرفون مسبقا بالأمر، كيف ؟ لست أدري. ثانيا أنا عشت في هذا البلد و أعتبر نفسي واحدة من أهله، كيف تريدني أن أخونه ؟ أنا بطبعي أكره الخيانة، ما فعلته مع زوجي ليس خيانة بل هو فعل أعتز و أفتخر به، ضحيت بزوجي السابق لأنه خائن و قد طلبت منهم أن لا يؤذوك لأنك أقحِمت في الأمر إقحاما من دون أن تدري و من دون تخطيط مسبق، و هو أحد العوامل التي أبقتك حيا تُرزق، بالإضافة إلى تصميمي على ذلك... دعنا من كل هذا الآن، أنا أحبك و أعرف بأنك تحبني، انظر إلى جمالي الذي يثير مكامن نفسك، تأمل مفاتني و سحر

جسدي التي ما انفكت تشدك و تأخذك بعيدا في عوالم العشق و الغرام، تأمل ملامحي، انظر إلى سحر عينَيّ اللتين كنت تبحر فيهما بدون مجاديف فتحس بالطمأنينة و الأمان، أنت لا تطيق العيش مع غيري فلا تكابر و تتعنت يا عزيزي.

الجمال الحقيقي يكمن في أعماق النفس و الروح لأن الظواهر كثيرا ما تناقض البواطن.

من قال لك أنني أريد محاضرة في الأخلاقيات الفلسفية ؟

عليكِ بتطهير نفسك و روحك...

أنتَ روحي و عقلي و حبي و كل شيء جميل في حياتي.

اتركي الحب بعيدا ما أنت إلا امرأة شهوانية تبحث عن اللذة و تسعى للمتعة بكل المسميات.

و هل هناك حب بدون شهوة يا عزيزي ؟

مثل هذا الحب محكوم عليه بالزوال و الاندثار عاجلا أم آجلا.

أنتَ مخطئ لأن الشهوة هي أقوى عرى الحب عبر الزمن و التاريخ منذ وُجدت الخليقة.

مؤقتا فقط لأن الحب الذي يُبنى على الشهوة ما ينفك أن ينتهي و يزول.

كنت أظن بأنك أذكى من ذلك، تذكر ذكرياتنا، تبادلنا الأنخاب، رقصنا معا على أنغام الموسيقى الهادئة في غرفتنا، تذكر صدري الذي يموج بحبك و قلبي الذي يخفق بعشقك و لساني الذي يلهث بذكرك، تذكر أيها القاسي تواصلنا العاطفي و اندماجنا الحسي، سنعيش بصدق عشقنا و جوارحنا

الجياشة أعظم قصة حب بأمجادها الرائعة و مآثر انتصاراتها البديعة.

لم يعرف الصراع المرير بداخله وقتا طويلا رغم حدة المعركة و حساسية الموقف، إذ سرعان ما قرر تغيير الوضع و إعادة الأمور إلى حجمها الحقيقي و عدم الذهاب بعيدا في التعنت و التشنج فيدفع الثمن مضاعفا لأن الأمر لا يعنيه إلى درجة تجعله يقتل نفسه و يستميت في الدفاع عنه فهو قد قدم إلى الجزائر في أمر لا علاقة له البتة بالموضوع الذي وجد نفسه مُقحما فيه رغم إرادته فاستهوته المغامرة و ركب ظهرها ربما من باب إثبات الذات أو الشعور بأنه مازال قادرا على لعب أدوار الرجل الأول في عالم الاستخبارات المليء بالمفاجآت و الأخطار ليس إلا، لذا لم يلبث أن استعاد برودة أعصابه و تمالك نفسه و اختلال توازنه بعد الهزة الشديدة و تأثيرات الخيبة و الإخفاق التي مُنِّيَ بهما بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من الفوز و تحقيق هدفه و بلوغ مأربه، سيما بعد الصراعات المريرة التي كابدها و اكتوى بها.

فرنشيسكا تراقبه عن كثب و قد شعرت بذكائها و غريزتها الأنثوية بالصراع الذي يدور بداخله بالتزامن مع تأثير كلامها في نفسيته، هي التي اختارت كلماتها بعناية كي تكون مؤثّرة و تأتي أكلها في الوقت المناسب إذ تعلم جيدا بأنه يحبها و يهواها و لن يستطيع الابتعاد عنها و العيش بعيدا عنها... خُيِّل لها و قد رفع بصره يحدق فيها أنه يبتسم و هو يرنو إليها.

كانت مُحقّة في كل ما ذهبت إليه فهي تعرف كيف تُؤكل الكتف، و كيف تَطرُق الحديد ساخنا لتطويعه و تليينه في نهاية المطاف.

و أخيرا تكلم و نطق بعد زوال الحرج و قرر الإفصاح و البوح بحقيقة ما يدور بشأنها و قال بصوت مثل الهمس :

فرنشيسكا... أنا نادم و جد آسف على كل الأذى الذي سببته لك، أنتِ إنسانة رائعة بكل المقاييس، أنا لا أستأهلك، فإن رضيت بي زوجا لك سأكون أسعد الرجال فوق الأرض... لا أدري ماذا أقول أكثر... أنت تعلمين أنني لست خطيبا مفوَّها و لا أحسِن بديعيات الكلام و تقنياته الغرامية المنمقة...

لم تَرُدّ، لكنها ارتمت عليه و احتضنته بشغف و هي تضع مجددا شفتيها فوق شفتيه في قبلة طويلة و معبّرة... أبلغ دليل على قبولها ربط مصيرها به و إلى الأبد.

رافقهما الكاشف إلى الخارج في جوف ذلك الليل المكفهر و المحتجب قمره بغيوم سوداء و سُحب ثقيلة مترافقة مع الريح العاصف و المطر المتساقط مثل معزوفة رعب في إحدى أفلام "ألفريد هتشكوك"، عزف سيمفوني يتداخل تناغما و نشازا بصفير الرياح الحاد و الأجش المنطلق من اهتزاز و ترنح فروع و أغصان الأشجار الضخمة و حفيف أوراقها العابر بقوة رهيبة من خلالها في عنفوان يدمدم و يزمجر كأنه وحش مفترس يثير الرعب و الهلع في النفوس.

أوصلهما الكاشف في سيارته المتهرئة إلى غاية باب الفندق، و هناك ودّعهما وداعا حارا مؤثرا حتى أن عيناه اغرورقتا بالدموع متمنيا لهما قضاء ليلة طيبة و هنيئة.

هَمَّ الكاشف بمغادرة المكان و تركهما فتناهى إليه صوت يعقوب و هو يصيح به : شكرا لك صديقي، لن أنسى ما حييت عِشرة الأيام التي جمعتنا معا، و أتمنى عليك إن كنت تعتبرني مثلما أعتبرك أن تزورني في يوم من الأيام في أمريكا في الوقت الذي تراه يناسبك، و لا تنقصك الوسائل كي تعرف أين أكون.

ابتسم الكاشف و هو يرد عليه قائلا : أتمنى ذلك، وداعا صديقي العزيز... وداعا أيتها العزيزة فرنشيسكا... رحلة سعيدة و حياة مديدة...

ثم داس على دواسة السرعة فانطلقت السيارة كالسهم الشارد ناشرة خلفها خيط دخان أسود كثيف ذهب يتموج متعرجا و متمايلا صعودا و نزولا عكس اتجاه مهب الريح.

النهاية

أنجز طبعه على مطابع
Chihab print – باتنة –